من روائع الأدب الأمريكي المعاصر

نوبة حراسة

وقصص أخرى

ترجمة وتقديم

د. نهاد صليحة

الطبعـة الأولى
١٤١١ هـ ــ ١٩٩٠ م

النـاشر : مركز الأهـرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهـرام ــ شارع الجـلاء ــ القاهرة
تليفـون ٧٤٨٢٤٨ ــ تلـكس ٩٢٠٠٢ يوان

تصميم الغلاف
مصطـفى حسـين

المحتـــويـات

مقـــدمـة

تحتل القصة القصيرة بمفهومها الحديث مكانة خاصة متميزة فى الأدب الأمريكى تتفوق بكثير على المكانة التى تشغلها فى الآداب الغربية الأخرى ، ربما باستثناء الأدب الروسى فى الفترة ما بين جوجول وتشيخوف . فدارس الأدب الإنجليزى مثلاً يستطيع أن يلم به مسرحا وشعراً ورواية فيكون صورة متكاملة عنه ، واضحة المعالم دون أن يتعرض للقصة القصيرة رغم تميز إنتاجها عند تشارلز ديكنز أو جوزيف كونراد أو د . هـ . لورانس أو هـ . أ . بيتس وغيرهم . وكذلك الحال مع دارس الأدب الفرنسى أو الألمانى رغم إبداعات وإسهامات ميرميه وموباسان أو هوفمان وهاينريش فون كلايست . لكن الحال يختلف حين يلج الباحث عالم الأدب الأمريكى إذ سرعان ما يكتشف أن القصة القصيرة لا تمثل رافداً فرعيا من روافد السرد أو فضاءً هامشيا من فضاءات الإبداع ، بل تشكل المجرى الإبداعى الرئيسى الذى انتظم التجربة الأمريكية المعقدة منذ بدايتها – تجربة الاغتراب عن العالم القديم وصياغة هوية حضارية متفردة فى عالم جديد وبيئة مجهولة – وبلور فى القصة وراء القصة والمجموعة وراء الأخرى صور التفاعل المنوعة بين القديم والجديد ومراحل انبثاق الوعى بالذات والحساسية الأمريكية الخاصة .

ولم يكن من الغريب أن يصادف فن السرد النثرى القصير – الغامض الهوية رغم إيغاله فى القدم ، المبهم الملامح رغم تنوع مصادره وأشكاله

وسخاء تراثه – لم يكن من الغريب أن يصادف هذا الشكل الفنى اللقيط هوى فى نفس الكاتب الأمريكى الباحث عن هويته ، فقد كانت أمريكا تعيش مفارقة وجودية حادة ، مفارقة أمة شرط وجودها وتحقق هويتها هو الاغتراب الواعى عن تراث ضارب فى القدم هو تراث الحضارة الأوروبية مع ضرورة الحفاظ على هذا المخزون التراثى القديم وتجذيره وإعادة زرعه فى البيئة الجديدة الغريبة حتى يتحقق الانتماء إليها .

وفى تلك الفترة ، فى القرن التاسع عشر ، حين كان الأدب الأمريكى يمر بهذا المأزق الحضارى ويعيش تلك المفارقة المضنية ، ويسعى إلى التحرر من الوصاية الأوروبية دون أن يقطع وشائجه تماما مع تراثه ، كانت القصة القصيرة ، أو السرد النثرى القصير بمعنى أصح ، يبحث هو الآخر عن هويته ويسعى إلى استقلاله بعد أن أثبت وجوده وحيويته على مر التاريخ . فقد عرف الإنسان هذا الفن منذ أن عرف اللغة ، ومنذ أن تعلم آدم الأسماء ، فى الحواديت الشفاهية والقصص الفرعونية المدونة نثرا منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، وفى قصص الكتب المقدسة وحكايات العصور الوسطى وعصر النهضة ، فى سير القديسين وحكايات **ألف ليلة وليلة** و**كليلة ودمنة** و**حكماء روما السبعة** ، وفى قصص **الديكاميرون** للإيطالى بوكاشيو و **حكايات الأمثال** للأسبانى سيرفانتيس وغيرهم ، لكن القصة القصيرة ظلت رغم هذا التراث العريض ظلا من ظلال السيرة أو السرد التاريخى أو الأسطورى المكتوب أو الشفاهى ، حائرة بين دروب الملحمة والطرفة والتاريخ والأسطورة والأمثولة التعليمية والموعظة الدينية ، وكان شرط نضجها هو الانفصال وتأكيد تفردها وملامحها الخاصة .

وكان أن التقى هذا الفن القصصى النثرى القصير فى مساره التاريخى نحو النضج والاستقلال بالأدب الأمريكى الباحث عن هويته فى القرن

التاسع عشر فتبنى الأمريكيون هذا الشكل الفنى الحائر وانتصروا له وأسسوا النظريات فى ملامحه وتقنياته . وكان الكاتب القصصى الأمريكى إدجار آلان بو رائداً فى هذا المجال إذ قام بأول محاولة لتعريف القصة القصيرة باعتبارها جنسا أدبيا منفردا ، وذلك فى مقالتين حول مجموعة قصصية بعنوان **حكايات تروى للمرة الثانية** لأحد رواد القصة القصيرة فى أمريكا وهو ناتانيال هوثورن . لقد عرف إدجار بو القصة القصيرة فى هاتين المقالتين اللتين نشرهما فى عام ١٨٤٢ وعام ١٨٤٧ بأنها قطعة قصيرة من السرد النثرى تستغرق قراءتها ما بين نصف الساعة إلى الساعة أو الساعتين على أكثر تقدير ، وتسعى فى مجمل عناصرها وتفاصيلها إلى إحداث أثر موحد فى نفس القارىء ، وذلك عن طريق الاقتصاد فى انتقاء المادة والأحداث وانتظامها فى تشكيل فنى دقيق صارم . ويلحظ القارىء أن هذا التعريف رغم إلحاحه على ضرورة احترام الشكل الفنى للقصة القصيرة ومراعاته لا يرسى قواعد ملزمة للكاتب ، بل يفسح مجالا واسعا للتجريب فى الشكل بشرط مراعاة الاتساق والتكامل والوحدة العضوية . وقد التزم معظم كتاب القصة فى أمريكا بهذا الشرط الجمالى ، رغم تنوع أساليبهم وتباين رؤاهم ، فساهموا فى إنضاج هذا الشكل الفنى الذى أفسح لهم بدوره فضاءً مثاليا لاحتواء حيرتهم بين القديم والجديد وبلورة هويتهم المتفردة . ولشد ما صدق الناقد الكبير جيمس كوشرين حين قال فى تصديره لمجموعة مختارة من القصص الأمريكية أصدرتها دار بنجوين للنشر : « يمكننا الجزم بأن الأدب الأمريكى والقصة القصيرة قد وصلا إلى سن الرشد – أى إلى النضج والاستقلال – فى نفس الوقت تقريبا . وإذا وضعنا هذه الحقيقة نصب أعيننا جنبا إلى جنب مع الطبيعة الخاصة للمزاج الأمريكى الذى يتميز بالحيوية العارمة والجنوح إلى السرعة استطعنا أن نفهم ذلك التلازم بين هذا الأدب وذلك الشكل الفنى فى المسار

والمصير » . ويضيف كوشرين : « إن الأمريكيين يشعرون بالألفة والانتماء فى فضاء القصة القصيرة ويسبحون فيه بحرية وانطلاق وعفوية كما تسبح الأسماك في الماء » . وربما كان السبب فى ذلك أنه فضاء جديد جدة الحضارة الأمريكية ، قديم قدم تراث سكانها الجدد ، أى أنه فضاء تشكله مفارقة الجدة والقدم ، وهو أيضا فضاء لا يتسع إلا للسرد القصير السريع الذى يتسق مع عمر التجربة الأمريكية القصير وطبيعتها اللاهثة المتغيرة القائمة على المرونة والتحول والتجوال - فى بدايتها على الأقل . وربما كان السبب أيضا أن القصة القصيرة تمثل فى أحد تجلياتها لقطة أو مجموعة من اللقطات التى تستعيض بالصورة عن السرد ، وتحضرنى فى هذا الصدد ملاحظة ذكية للكاتب الإنجليزى هـ . أ . بيتس فحواها أن القصة القصيرة والفيلم السينمائى ينتميان إلى نوع فنى واحد هو فن السرد عن طريق الإيماءة والصورة والإشارة والإيحاء بالمعنى دون تصريح أو تقرير . فلا أعتقد أنه كان من قبيل الصدفة أن يحتل السرد السينمائى فى أمريكا القرن العشرين نفس المكانة التى احتلتها القصة القصيرة فى القرن التاسع عشر وأن يتمتع بنفس الشعبية ، فالفيلم كالقصة القصيرة فضاء ديمقراطى يتسع للأرستقراطية الفنية وأيضاً للبروليتاريا .

وإذا تركنا جانبا الحديث عن الجهود النقدية التى ساهمت فى إرساء القصة القصيرة كنوع أدبي متفرد - تلك الجهود التى لم تقتصر على إدجار آلان بو وحده بل شارك فيها معاصروه من كتاب القصة ومن تبعهم مثل هنرى جيمس ، وناثانيال هوثورن ، ومارك توين ، وفرانسيس بريت هارت ، وهيرمان ميلفيل ، ووليام دين هاولز ، وترومان كابوت وغيرهم - وأرسلنا البصر إلى النتاج الإبداعى الذى سبق وواكب التنظير فسوف نلحظ إلحاحاً كبيراً فى عناوين المجموعات القصصية على العنصرين الأساسيين اللذين شكلا القصة القصيرة

بمفهومها الحديث فى القرن التاسع عشر وهما « الحكاية » – وهى عنصر قديم يولى وجهه شطر الماضى والحواديت الشعبية ، ثم « الصورة » وهى عنصر جديد يولى وجهه شطر المستقبل وفن الصحافة والسرد السينمائى . ففى المجموعة تلو المجموعة يلتقى القارىء إما بكلمة حكاية على الغلاف – Tale – أو بكلمة صورة – Sketch . فهناك على سبيل المثال لا الحصر **حكايات الجروتسك والأرابيسك** لإدجار آلان بو (Tales of the Grotesque and Arabesque) **وحكايات الميدان** لهرمان ميلفيل (Piazza Tales) ، وهناك أيضاً مجموعة **صور من الحياة** (Sketch Book) لواشنطن إيرفنج ومجموعة **صور من الحياة فى الضواحى** (Suburban Sketches) لوليام دين هاولز .

إن هذين المصطلحين الأدبيين – مصطلح « القصة الصورة » (Sketch) ومصطلح « القصة الحكاية » (Tale) يمثلان قطبى مفارقة الأصالة والمعاصرة ، أو القديم والجديد التى أفرزت فى آن واحد القصة القصيرة والحساسية الأمريكية . فالحكاية كشكل أدبى تنتمى إلى تراث البشرية القديم ، وتحمل عبق الرواية الشعبية الشفاهية وفنون الرواة ، وتستخدم العديد من الموتيفات والشخصيات التى تحمل طاقة إحالة رمزية إلى ثقافة المجتمع ، فتبلور صورته عن نفسه وعن علاقته بتراثه وآلهته وأجداده وموضعه فى العالم ، فالحكاية بطبيعتها هى تعبير شعبى جماعى عن تصور المجتمع لنفسه . أما القصة الصورة فهى نتاج جديد نسبيا يرتبط بظهور الصحافة ، ولا يسعى بالدرجة الأولى إلى السرد والتجسيد الدرامى بقدر ما يسعى إلى الوصف والتحليل الموضوعى . وإذا كان طابع الحكاية هو الاستفاضة والاسترسال والإيحاء والتوغل فى الزمن الغابر وتاريخ الجماعة وعوالم الخيال والخرافة والحلم والأسطورة ، فإن طابع القصة الصورة هو الاختزال والموضوعية والتركيز والآنية الواقعية . وإذا كانت الحكاية تحتفظ فى لغتها وطريقة

عرضها بملامح عدة من أسلوب السرد الشفاهى الذى يتوسط فيه الراوى بين الموضوع والمتلقى ، فإن القصة الصورة هى خطاب مكتوب للقراءة يخاطب العين مباشرة دون وسيط فى فضاء الحاضر المفترض . ويفسر هذا الاختلاف بين طبيعة الخطاب فى كل من النوعين اختلاف طبيعة التأثير الفنى ، فقارىء القصة الصورة يشعر وكأنه يقرأ تحقيقا صحافيا أو قصة إخبارية (News story) تقدم إليه الأحداث والشخصيات بصورة موضوعية تماما . أما قارىء القصة الحكاية فيشعر أن كل الأحداث تصله مقطرة من خلال وعى الراوى ، ملونة بمزاجه وخبرته وطبيعته النفسية .

ويلحظ القارىء للقصة القصيرة الأمريكية ، بل والقصة القصيرة الحديثة بصفة عامة ، تراسل واندماج هذين النوعين من السرد ، بل وقد يخلص إلى أن تاريخ تطور هذا الشكل الفنى يتلخص فى مزج الأسلوبين بهدف تحرير الصورة الإخبارية من عبوديتها للواقعية الشكلية الخارجية ، وتحرير السرد الحكائى من صيغة الشفاهية الموروثة وموضوعاته التقليدية وجنوحه إلى الخرافة والخيال . لقد أفرز هذا المزج نمط السرد الموضوعى الخارجى عند الفرنسى موباسان ، رغم احتفاظه بعنصر الحكاية المحبوكة أو الحبكة المثيرة التى تتقدم من بداية إلى وسط ونهاية ، وأفرز أيضا واقعية تشيكوف الساخرة التى تستعيض عن الحبكة برصد تداخل وتفاعل تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة فى وقعها وأثرها على الشخصيات . ومن هذا المزج أيضا نشأت القصة الانطباعية كما نعرفها عند جوجول أو إدجار آلان بو أو هيرمان ميلفيل أو دستيوفسكى التى يصبح فيها الراوى وانطباعاته موضوع السرد ، وكذلك القصة النفسية الموضوعية التى تقدم صورة دقيقة للنفس البشرية ودواخلها عن طريق كشف الدوافع وراء الأحداث ، وذلك من وجهة

نظر راوٍ محايد كما كتبها تولستوى – خاصة فى قصة « موت إيفان إليتش » (١٨٨٦) – أو وليام دين هاولز .

وتتضح لنا عملية المزج هذه بين الصورة والحكاية بصفة خاصة إذا قارنا قصص إرنست همنجواى بقصص معاصر له هو وليام فوكنر ، فبينما تعتمد قصص همنجواى أسلوب التصوير الإخبارى الواقعى الموضوعى – أى أسلوب القصة الصورة – نجدها رغم ذلك تستلهم جوانب من الحدوتة الشعبية فى استخدامها للاستعارة المحورية الدالة وتوظيفها لرموز فطرية إنسانية عامة مثل الماء والأسماك . أما فوكنر فهو يتبنى صيغة الحدوتة الشعبية فتجىء قصصه محملة بعبق الماضى ، كما تحمل لغته وموضوعاته إحالات كثيفة إلى التراث وخاصة تراث الجنوب الأمريكى فتتبدى وكأنها حكايات شعبية كتبها شاعر جنوبى مجهول للجنوبيين ، وكأن الجماعة تتحدث عن نفسها إلى نفسها . ورغم ذلك لا تخلو تلك الحكايات من طاقات الاستكشاف الموضوعى ، والتحليل الإخبارى والوصف الدقيق الخارجى الذى يضفى عليها صبغة العالمية رغم إغراقها فى المحلية .

إن ذلك المزج والتداخل بين الحكاية التراثية الشعبية القديمة والقصة الإخبارية الصحافية الجديدة فى القصة الأمريكية القصيرة لهو أبلغ تجسيد لتلك المفارقة المحورية – مفارقة الاغتراب والانتماء بهدف تحقيق الهوية – التى شغلت مكان القلب فى وعى وأدب أمريكا وثقافتها . وقد أفرز هذا المزج بنية قصصية فنية خاصة متكررة وجواً نفسياً عاماً يلحظه القارىء فى القصة الأمريكية القصيرة منذ القرن التاسع عشر وحتى مشارف نهاية القرن العشرين ، وذلك رغم كل المتغيرات الحضارية والتاريخية – وتتلخص هذه البنية الأساسية فى التناقض والتقابل والصراع بين عالمين يفترض الكاتب صراحة أو ضمنا

أن أحدهما سلبى والآخر إيجابى ، لكنّ كُلاً منهما يشد إليه الفرد – مركز الوعى – فى القصة ويمزقه سواء أدرك الفرد هذا التمزق كما يعيه القارىء أم لم يدركه . وأما الجو النفسى العام فمقوماته الحيرة والدهشة والإحساس بالغربة والغرابة والعزلة والغموض فى بيئة تكتنفها الأسرار . ونتيجة لهذه البنية القصصية ، وهذا الجو النفسى العام نجد أن الصورة النمطية أو الرمزية المتكررة فى القصص الأمريكية القصيرة هى صورة الفرد وحيداً يحاول أن يقيم مشروع حياة ويحلم بالانتماء وسط مساحات وفضاءات شاسعة خاوية لا تسكنها سوى الأخطار والعزلة ، ويستوى فى هذا ساكن المدن المزدحمة أو المراعى أو الغابات أو الصحارى . فالصورة النمطية للأمريكى التى أفرزها أدبه هى صورة الفرد المغترب الذى يسعى إلى الانتماء . وربما كان الفرق الوحيد بين شخصيات القصص الأمريكية القصيرة القديمة والقصص الجديدة هو ازدياد درجة الحيرة والغموض ، ربما بسبب انهيار ما كان يسمى بالحلم الأمريكى ، فقد أدى انهيار هذا الحلم فى النصف الثانى من القرن العشرين إلى انهيار نسق القيم الذى يساند الفرد فى صنع القرار الصائب ويقوده كالمنار وسط حيرته وعزلته واغترابه ، فأصبح الفرد المنعزل فى القصة الأمريكية لا يبحث عن الانتماء فقط بل يبحث أيضا عن المعنى ، ولم تعد مشكلته هى البحث عن الأمان والنجاح والانتماء المادى ، بل غدت مشكلته هى البحث عن يقين فردى فى غيبة اليقين الجماعى .

إن المجموعة القصصية التى أضعها اليوم بين أيدى القراء تجسد هذه الحيرة الوجودية الميتافيزيقية والحضارية أبلغ تجسيد ، ففى كل قصة يلمح القارىء عزلة الفرد وسط عالمين متناقضين لا يفضل أحدهما الآخر ، وتغدو المشكلة أو يغدو السؤال هو أيهما يستطيع هذا الفرد

الحائر أن يعيش فى ظله ليحقق ذاته ؟ وفى كل قصص المجموعة تنتقل هذه الحيرة الوجودية إلى القارىء ، فلا يدرى أى مشروع حياة يختار أو أى نسق من القيم يتبنى ، فقد اختفت من القصة القصيرة الأمريكية الحديثة ، بل وربما من الأدب الحديث عامة ، تلك الاتفاقية الضمنية بين الكاتب والقارىء حول معايير الصدق والزيف والسعادة والشقاء والحياة الحقة ، ولم تعد العبارات أو الأحداث فى ذاتها مؤشراً ودليلاً صحيحاً على القيمة ، أى أن القيم الأخلاقية غدت اختياراً فردياً بحتاً . ومع انهيار اليقين الأخلاقى والميتافيزيقى والحضارى ممثلاً فى انهيار الحلم الأمريكى ازداد اهتمام الفنان كاتب القصة القصيرة بالشكل باعتباره لغة التواصل الوحيدة والنسق الإيجابى الوحيد الذى من شأنه أن يضفى على التجربة قدراً من الاتساق والتجانس ، بل والمعنى ، فغدا الشكل هو المعنى باختصار شديد . إن كل قصة فى هذه المجموعة تتحدى أى محاولة لتلخيص محتواها أو رسالتها أو لاستخلاص معناها بعيداً عن نسقها التشكيلى ، فالأحداث والشخصيات إن وجدت - كما توجد فى قصة **موت الدوق** مثلا لا تسلمنا (رغم وضوحها وحدتها ، بل ورغم دمويتها وعنفها وضراوتها) إلى معنى القصة ، فهذا المعنى ، الذى لا يمكننا تلخيصه فى جملة أو اختزاله بصورة مريحة شافية فى عبارة ما لا يتحقق إلا فى ضوء تلك المقابلة الدالة ، وذلك التناقض الذكى بين تجربة الراوى المثقف التى تمتد بالقارىء إلى عالم خارج السجن عبر مدير السجن ونائبه ، وبين عالم العنف والدم والشذوذ فى الحضيض . وفى نهاية القصة يقف القارىء حائراً متأملا للعالمين لا يدرى أيهما الأفضل أو الأكثر صدقا ، وإذا سألته أن يحكى لك القصة أو أن يذكر موضوعها ويلخص رسالتها حار وسكت ، أو طفق يقص عليك مجموعة من الأحداث الميلودرامية المفككة وهو يشعر أنه يبتعد بك عن عالم القصة ويزيفه بدلا من أن يكشفه لك ، وقد يشرع فى أحيان قليلة

إذا كان قارئا حساساً ذكياً فى وصف البنية الفنية للقصة ونسقها التشكيلى ونسيجها اللغوى ، فيشرق المعنى فى نفسك وأنت تتلمس معه ملامح شكلها الجمالى .

ويصدق ما قلناه عن قصة **موت الدوق** على القصص الأخرى فى هذه المجموعة وذلك رغم اختلاف أساليبها وأشكالها الفنية ، وتباين أجوائها النفسية ، وتنوع البيئات والشرائح الاجتماعية والتجارب الإنسانية التى تتناولها . إن قصة **بيت يغرق** على سبيل المثال قد تبدو لأول وهلة مختلفة تماما عن قصة **موت الدوق** ، ففضاء القصة هو ضاحية ناعمة أنيقة من ضواحى سان فرانسيسكو ، وليس غابة السجن الضارية التى يسكنها الدوق ، وشخصيات القصة من الطبقة المتعلمة الموسرة وليسوا من قاع المجتمع ، أما الأحداث فتنحصر فى حدث واحد يتوسطُ ركاماً من تفاصيل الحياة اليومية المعتادة ، ويتلخص فى محاولة الجارة المسنة إغراق بيتها عن طريق فتح كل صنابير المياه . ورغم هذا الاختلاف الواضح بين القصتين إلا أنهما تشتركان فى نفس البنية الفنية الأساسية ، أى بنية التقابل والتناقض بين عالمين التى تتولد منها دلالات القصة ونسيجها الشعورى . فالقصة تصور امرأتين ، جارتين فى منزلين متجاورين ، إحداهما أم شابة جميلة وزوجة سعيدة والأخرى أرملة مسنة قبيحة مترهلة ووحيدة . وتنتقل بنا القصة بين المنزلين والمرأتين أو العالمين وفق إيقاع ذكى محسوب ينتظم مراحل إشراق الوعى بمعنى ودلالات هذه الشريحة من التجربة الإنسانية فى نفس المرأتين وفى نفس القارىء أيضا ، فتكتسب صورة الغرق المحورية دلالات الطوفان ، وتتحول القصة برمتها إلى رؤية نقدية جريئة وشجاعة تعيد فحص المفاهيم الأمريكية السائدة عن النجاح والحياة الطيبة والزواج بل والجمال أيضاً ، وتراجع نسق القيم والمبادىء التى أقام عليها الأمريكيون حلمهم ومشروعهم الحضارى .

وتتكرر تلك الرؤية النقدية الجريئة الواعية لأسس الحضارة الأمريكية وحلمها فى قصة **نوبة حراسة** ، وتنبثق من بنية فنية مماثلة تجمع بين الحكاية والصورة وتنهض على التقابل والتناقض . فالقصة تقدم لنا عالمين أو خيارين ، عالم البدائية والغابات والأحراش والتماسيح والبعوض والملاريا الذى يسكنه بازبى ونساؤه السود ، وعالم الحضارة التكنولوجية الحديثة ، عالم السرعة لذاتها والمعلبات والكوكاكولا . وبين العالمين يقف كل من جيسى وهولينجزورث حائرين فى عزلة وجودية ممضة مؤلمة يعمقها إيقاع السرد البطىء المتعمد فى جمل تطول أحيانا وتبتر فجأة ، وتمتد أحيانا إلى فقرات كاملة مترامية الأبعاد تتراكم فيها العبارات وتتصل وتنقطع ، وقد تتكرر وتلتف حول نفسها فننسى الفعل والفاعل والمفعول به ويضيع منا المبتدأ والخبر وتتحول الكلمات إلى عبارات معلقة مبتورة فى متاهات لا تعرف المعانى الكاملة . إن جيسى وهولينجزورث ينشدان التواصل والانتماء ويتحرقان شوقا إليه ، لكنهما فى النهاية يفشلان فى تحقيقه ، فالمشروع الحياتى الوحيد الذى يجمعهما لفترة ما فى صداقة وهمية هو مشروع ظالم فاسد يثير الألم والسخرية معاً – إنه مشروع صيد إنسان تمرد على حضارتهما وهرب إلى الأحراش ليقيم مشروع حياة بديلا ! إن قصة **نوبة حراسة** تمثل فى تصورى قمة من قمم القصة القصيرة وفنون السرد والتصوير ، وهى قصة توظف جماليات هذا الشكل الفنى الصعب المركب لتقدم فحصاً نقديا وتحليلاً عميقاً ساخراً لمفهوم الحرية الذى تبنته الحضارة الأمريكية أساساً لها وخلدته فى تمثالها الشهير ، وأيضاً لمفهوم التقدم .

ولا أريد أن أستفيض فى الحديث عن هذه القصة وتحليلها ، فلهذا مجال آخر ، ولا أريد أيضاً أن أتعرض لبقية قصص المجموعة ، فأنا أفضل أن يستكشف القارىء عوالمها وحده دون دليل ، وأن يتلمس

ملامحها ويتذوق مباهجها ومرارتها وآلامها دون وسيط ، وآمل مخلصة أن يجنى من سياحته فى أرجائها بعضاً من المتعة التى جنيتها أثناء ترجمتها رغم العناء الشديد ، فأصعب القصص عند الترجمة هى القصص التى ينبثق معناها من صياغتها الفنية وحيلها الأسلوبية وإيقاعها الماكر ، وتعففها الصارم عن التصريح والتقرير . لقد شعرت بعد الانتهاء من ترجمة هذه القصص البديعة ، وكأننى عدت من رحلة إلى أمريكا دامت أعواماً تعرفت خلالها على شتى طوائفها وبيئاتها وشرائحها الاجتماعية ، وغصت فى أعماقها حتى الغرق ثم طفوت إلى قمم الصدق مع النفس فيها والأمانة الفنية حتى الانتشاء . إننى أعرف أمريكا الآن حق المعرفة رغم أننى لم أزرها قط ، ولا أعتقد أن أى زيارة لها ستضيف إلى معرفتى الحميمة بها بعد هذه التجربة .

إن قارىء هذه المجموعة لن يلتقى بأحداث وحبكات وشخصيات خيالية روائية ، بل سوف يلتقى بأصوات صادقة حميمة ، وكأنه يسترق السمع إلى حوارات النفس مع النفس ، فلغة هذه القصص الحديثة قد تخلت إلى حد بعيد عن لغة الخطاب الأدبى التقليدى ، واعتنقت أسلوب التعبير الصادق عن مكنون النفس وحيرتها دون مواراة أو زيف لا عن طريق التقرير بل عن طريق الاختيار الذكى للمفردات وتنوع مستوياتها ، وعن طريق تطويع بناء الجملة والفقرة وإيقاع تتابع العبارات والفقرات سواء جاء السرد بضمير المتكلم أو بضمير الغائب ، وسواء ازدحمت القصة بالأحداث أو كادت تخلو منها تماما ، وسواء غامرت فى مجالات الحداثة أو قبعت فى ظل الأطر والأشكال والصيغ الحكائية القديمة .

وأخيراً ، وفى ختام هذه المقدمة التى طالت ، أود أن ألفت نظر القارىء إلى أن هذه القصص قد صدرت ضمن مجموعة حصل بعضها

على جائزة التفوق الإبداعى فى فن القصة القصيرة ، وهى الجائزة التى تمنحها سنوياً جمعية الفنون والعلوم تحت اسم كاتب القصة القصيرة الأمريكى الشهير « و . هنرى » تخليداً لذكراه ، وتكريما لدوره الرائد فى إرساء دعائم هذا الفن .

ومن الجدير بالذكر أن « و . هنرى » ليس اسم الكاتب الحقيقى فهو اسم مستعار ، أو اسم الشهرة للكاتب الأمريكى وليام سيدنى بورتر (١٨٦٢ - ١٩١٠) الذى ولد فى ولاية « كارولينا الشمالية » وعاش حياة منوعة فوضوية جامحة فى البداية انتهت به إلى السجن عام ١٨٩٦ بتهمة الاختلاس حيث بدأ يكتب القصة القصيرة فبرع فى فنونها ، ونشر أول مجموعاته القصصية عام ١٩٠٤ تحت عنوان **الكرنب والملوك** (Cabbages and Kings) ، ثم توالت بعدها قصصه التى تميزت بروح المرح والسخرية والفكاهة ، وبراعة توظيف عنصر الصدفة حتى غدا أشهر كاتب للقصة القصيرة فى زمانه . ومن الطريف أن نجد بين كتاب هذه المجموعة القصصية سجينا سابقا أيضاً هو بانينج ك . لارى مؤلف قصة **موت الدوق** ، وقد كتبها فى السجن وفازت بجائزة أفضل قصة قصيرة لسجين فى مسابقة أقامتها الجمعية الدولية للشعراء وكتاب المسرح والرواية والمقالة . وحين اختيرت هذه القصة لجائزة « و . هنرى » كان صاحبها لحسن حظه أو سوئه قد غادر السجن ، واختفى دون أثر فى زحمة الحياة ، فلا يعرف له أحد عنوانا !

أنشئت جائزة « و . هنرى » عام ١٩١٨ حين اجتمعت جمعية الفنون والعلوم الأمريكية للنظر فى وسيلة للاحتفاء بهذا المؤلف البارع المحبوب وتخليد ذكراه ، فقررت طرح جائزتين ماليتين باسمه كل عام تمنحهما لأفضل قصتين قصيرتين تنشرهما المجلات الأمريكية - ومنذ عام ١٩١٩ ، وهو العام الذى منحت فيه الجائزة للمرة الأولى استثنت

الجمعية تقليداً يقضى بإصدار كتاب يحمل عنوان القصص الفائزة بجائزة « و . هنرى » ويضم أفضل القصص التى رشحت للجائزة إلى جانب القصص الفائزة ، والتى لا يقل عددها عادة عن العشرين .

وقد صدرت هذه السلسلة تباعا عن دار نشر دابلداى كل عام منذ سنة ١٩١٩ وحتى وقتنا هذا ، ولم تتوقف سوى عامين فقط هما عام ١٩٥٢ ، وعام ١٩٥٣ . أما رؤساء تحرير السلسلة فكانوا على التوالى : بلانش كولتون وليامز من ١٩١٩ إلى ١٩٣٢ ، ثم هارى هانش من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٠ ، ثم هيرشل بريكيل من ١٩٤١ إلى ١٩٥١ ثم توقفت السلسلة بعد موته عامين واستؤنفت عام ١٩٥٤ تحت رئاسة بول إنجل حتى عام ١٩٥٩ ، وساعده فى تحريرها وإدارتها هانسون مارتن من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٠ حين تولتها مارى ستيجنر وخلفها ريتشارد بواربيه من ١٩٦١ إلى ١٩٦٦ بمساعدة وليام إبراهامز من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦ ، وأخيراً أمسك بدفتها رئيس تحريرها الحالى وليام إبراهامز منذ عام ١٩٦٧ .

والقصص التى تضمها المجموعة والتى يضعها مركز الأهرام للترجمة والنشر اليوم بين يدى القارىء تأتى من آخر مجموعة تذكارية تحمل اسم جائزة « و . هنرى » ، وهى المجموعة التى نشرت عام ١٩٨٩ ، أما القصص التى يضمها الكتاب فقد نشرت لأول مرة فى المجلات الأمريكية المتنوعة فى الفترة من صيف ١٩٨٧ إلى صيف ١٩٨٨ .

وقد يتساءل القارىء عن معيار الاختيار ، وفى هذا الصدد يقول محرر السلسلة الحالى وليام إبراهامز : إن المعيار الوحيد هو الجودة الفنية والصدق الإنسانى ، أما الشرط الوحيد فهو أن تكون القصة قد

نشرت فى مجلة سيارة ، فالجائزة تستثنى القصص التى نشرت ضمن مجموعات قصصية ، أى فى كتاب مطبوع ، ولا شك أن هذين المعيارين يتوفران هنا وفى القصص المختارة المترجمة بصورة لم أكن أتوقعها عندما شرعت فى ترجمة هذه الأعمال الأدبية الرائعة ، وأرجو أن يشاركنى القارىء العربى فى كل مكان هذا الشعور .

نهـــاد صليحـــه

القـاهرة ١٩٩٠

نــوبــة حـــراســـة

ريــك باس

حين بلغ أبو هولينجزورث - وكان يدعى بازبى - الخامسة والسبعين من عمره كانت قيمته طوال صيف ذلك العام وخريفه تساوى ألف دولار . تصدر اسمه المطاعم وأكشاك الحلوى والمرطبات والأطعمة الجاهزة على طول الطريق بين الولايتين ، وكانت صورته المطموسة المعالم التى نسخت على آلات التصوير وألصقت بالجدران والأبواب تضفى عليه مسحة من التميز والمهابة لا يتمتع بها فى الواقع . لم يحمل الإعلان المطبوع على آلة « الزيروكس » كلمة « مكافأة » أو كلمة « غائب » أو « مفقود » وإنما اختصر الطريق إلى لب الموضوع فقال باقتضاب : السيد بازبى . ألف دولار .

كانت المنطقة التى اختفى فيها السيد بازبى منطقة غابات صنوبرية نائية تقع وسط الولاية بعيدا عن المدن والعمران وعن نهر المسيسبى بل وعن كل شىء . كانت منطقة مستنقعات وهضاب فى أشد مناطق الولاية حرارة ولذا نادراً ما كان الناس يعيشون فيها ، وإذا حدث ذلك كانوا يلزمون المناطق المرتفعة وينأون عن السفوح . كنت ترى أحيانا بعض الحقول هنا وهناك مهدها أصحابها بأيديهم للزراعة رغم أن التربة كانت حمراء فقيرة لا تنبت إلا حشائش طويلة بلون الليمون تنثنى أمام

الرياح وكأنها أمواج بحر عاصف ولا تصلح إلا مرعى للجياد فقط ، فلا زروع ولا محاصيل ولا أبقار ولا قيمة ترجى منها . كان هولينجزورث متأكداً أن أباه بازبى - الذى بدأ مؤخراً يتبول فى سرواله - لا يزال على قيد الحياة وأنه يرقد مختبئا كالكلب فى الحشائش الطويلة الكثيفة فى مكان ما هناك لا لهدف إلا أن يغيظه ويضايقه .

كان هولينجزورث يدرك أن المكافأة التى عرضها ضئيلة بالقياس إلى حالته المادية ، فقد كان لديه من المال ما يسمح له بعرض مكافأة أكثر سخاءً . لكنه اختار هذا الرقم عن عمد ، فقد كان يطلع على الصحف ، ويعلم أن أهل مدينة جاكسون الكبيرة فى الشمال - التى تبعد سبعين ميلا عن بلدته - يعرضون مثل هذا الرقم كل أسبوع حين يعلنون عن مكافأة لمن يعثر على كلابهم الهاربة أو قططهم الضالة حين تختفى فى موسم التناسل . وقد عرض هولينجزورث مبلغ ألف دولار دون نقص أو زيادة ، فأى نقص كأن يعرض مثلا ٩٠٠ دولار كان سينتقص من قيمة والده ، وأى زيادة كانت ستدفع الناس إلى الظن بأنه يفتقد والده ويحزن لغيابه . كان قلبه يدمى فى الواقع حين يقرأ عن هؤلاء المحامين فى مدينة جاكسون الذين لا يتورعون عن عرض ألف دولار لقاء العثور على قططهم التى تهوى التسكع فى الطرقات . كيف يحصلون على تلك الأرقام ؟ وهل يعميهم الولع ببعض الأشياء عن قيمتها فيسرفون فى تقديرها ؟

كان يشعر بالوحدة فى غياب بازبى وبالكآبة أيضا . كان الصمت عميقا مؤلما خاصة فى المساء ، وكانت هذه هى المرة الأولى فى حياته التى يسمع فيها مثل هذا الصمت . كان بعض راكبى الدراجات يعبرون أحيانا أمام متجره الريفى الذى كان فى الماضى مخزن غلال ، وكان أحدهم يتوقف أحيانا ليجرع زجاجة من زجاجات المشروبات الغازية

بينما يتصبب منه العرق وتتلاحق أنفاسه اللاهثة فيبدو أقرب إلى حيوان من حيوانات الجر منه إلى إنسان ، حيوان لا يشغله سوى السرعة والعدو فلا يجد الوقت للثرثرة مع هولينجزورث وتبادل الحكاوى والأقاصيص . كان اسمه « جيسى » . كان يندفع إلى المتجر ، ويلقى بالتحية ثم يصب زجاجة « الكوكاكولا » فى جوفه ويمضى لاهثا ليلحق بالآخرين الذين لم يتوقفوا .

حاول هولينجزورث أن يخمن أسماء الآخرين ، وكان يشعر وهو يعطيهم أسماء لا يعرفونها أنه يمتلك سراً يمنحه قوة خفية عليهم وكأنه يملكهم ، وكأنهم مشدودون إليه بخيوط خفية يمسك بأطرافها فى يديه فيستطيع أن يجذبهم إليه عائدين حين يتمتم بأسمائهم . أعطى الآخرين جميعا باستثناء جيسى أسماء فرنسية مثل : فرانسوا وبيير وجاك ، فقد كانوا يركبون دراجات فرنسية الصنع من طراز يصعب نطقه ، وكانوا يبدون فى ضوء هذه الأسماء الرقيقة ناعمين مخنثين مدللين . لكنَّ جيسى راق فى عينيه ، وأكثر منه دراجته ، فقد كانت سوداء من طراز « شوين » ، وكانت ثقيلة عتيقة تعوق انطلاق جيسى وتجعله يكافح ويبذل جهدا مضاعفا ليلحق بالدراجات الفرنسية الرشيقة .

كان هولينجزورث يراقبهم وهم يعبرون أمامه بدراجاتهم كقطيع من الحيوانات ويصعدون ويهبطون الطرق المهجورة التى غطتها الأعشاب فى القيظ ثم يتلاشون فى وهج الحرارة المنبعثة من الطريق والحقول ويتحولون إلى سراب وأشباح تتحرك مبتعدة فى خط مستقيم ، ثم يتجسدون مرة أخرى من أطياف السراب أمامه فى نهاية اليوم حيث يجلس أمام متجره وينتظر .

حين توقف جيسى لأول مرة أمام متجر هولينجزورث المتداعى ليبتاع زجاجة مياه غازية انفلتت الزجاجة القديمة من مكانها وانزلقت

فى القناة الموصلة بالثلاجة محدثة ضجة عالية . كانت زجاجة من الطراز القديم الذى لم ينفد من مخزون المتجر لندرة الزبائن ، فلم يكن أحد يرتاد هذا الدكان المتهالك الذى مازال يحمل طابع مخزن الغلال ويقع فوق تل على حافة طريق مهجور . فى تلك المرة الأولى عقدت دهشة المفاجأة لسان هولينجزورث فظل يبلع ريقه حتى امتلأت معدته بالهواء وانتفخت ، وشعر بصوت الزجاجة وهى تنزلق وكأنها ترتطم برأسه ، وكأنه يقف أسفل القناة الموصلة بالثلاجة ويتلقفها على أم رأسه . كان جيسى أول زبون يزور متجره منذ رحيل والده باستثناء ضابط النقطة الذى زاره مرة .

كان متجر هولينجزورث يقع على حافة طريق مهجور فى بلدة تسكنها الأشباح . كانت فى مطلع القرن عامرة آهلة بالسكان الذين كانوا ينتشرون على سفح التل أسفل متجره وعبر الطريق فى الحقول الواسعة الغزيرة الحشائش من جراء ترسيب مياه فيضان نهر « بايو بيير » الذى يصب فى المسيسبى ، وفى الغابات القريبة ذات الأخشاب الصلبة والأشجار الضخمة التى كان يعجز ثلاثة من الرجال عن تطويق واحدة منها بأذرعهم المتشابكة – كانت فى الماضى مستعمرة مأهولة ، بل فى الواقع مدينة كبيرة نوعا ما تعيش على نقل محصول القطن عبر نهر البايو فى الخريف حين يعلو منسوب المياه فيه .

كان اسم المدينة هولينجزورث .

لكنها فنيت عن آخرها كغيرها من مدن الولاية حين اجتاحها وباء الحمى الصفراء عام ١٩٠٣ . ومن الغريب أن المدن القريبة من الأحراش والمستنقعات حيث كانت الحمى الصفراء تمثل مشكلة مزمنة ، كانت أكثر مقاومة للوباء وصموداً أمامه فكانت آخر المدن التى

انهارت . وحين استقر الناجون من الوباء فى مجتمعات ومدن جديدة بالولاية فى السنوات التالية ، لم يختر أحد منهم أن يعيش بالقرب من هولينجزورث مرة أخرى . كان والد بازبى واحدا من القلائل الذين غادروا المدينة قبل أن تفنى رغم إصابته بالوباء ، ولم يمض وقت طويل على ولادة بازبى حتى فارق والده الحياة .

وحين اجتاحت الملاريا المنطقة مرة أخرى عام ١٩٣٠ بعد ولادة هولينجزورث كانت أمه زوجة بازبى من ضحاياها ، لكن بازبى تحداها وصمد ، ورفض أن يرحل ويترك متجره فبقى مع ابنه ، وحين كان هولينجزورث فى الخامسة عشرة أصابهما الوباء مرة أخرى فحارباه معاً ونجحا فى التغلب عليه ، فقد كان من نوع يختلف عن الأنواع السابقة ، فكانت الحمى تهاجم المريض يوما بعد يوم ، ومن حسن الحظ أن الحمى لم تكن تنتابهما معا فى نفس الأيام فاستطاع كل منهما أن يمرّض الآخر ويعنى به فيزيل مخلفات القيء والبصق من الدم الأسود ، ويغطيه بالبطاطين حين تبدأ نوبات البرد والرعشة ويوقد النار فى المدفأة طوال الوقت حتى فى أيام الصيف الحارة . جرَّبا معاً كل أعشاب ونباتات المنطقة وجذورها بحثا عن العلاج فكانا يأكلان أى شيء ينمو دون تمييز ، فيجربان فروع أشجار الصنوبر مرة والجزر البرى مرة ، وجذور نباتات أخرى غريبة لا يعرفان لها أسماء مرات ، وربما لهذا السبب وبفضل أحد هذه النباتات نجيا من الموت بينما انتشرت المقابر فى كل مكان حولهما ، فى الغابات والحقول .. لم يكن أى مكان مرتفع يتعرض للرياح يخلو من مقبرة .

لهذا لم تكن ندرة الزبائن أو البيع والشراء تزعجهما ، فقد تحصنا ضد الكوارث ، وكانت كل المصائب تهون بالمقارنة لما لقياه خلال عامين من الوباء والموت ودفن جثث الضحايا ومخلفاتهم ، والقلق العارم حين

يستيقظان فى الليل فجأة على لدغات البعوض الذى قد يحمل جرثومة الحمى وترقب النتائج . على الأرفف استقرت بعض علب اللبن التى يعود تاريخها إلى أربعين عاماً خلت ، وبعض أكياس البطاطس المحمرة التى رقدت هناك منذ عشرين عاماً ولم تبرح مكانها إذ لم يكونا مولعين بأكل البطاطس المحمرة .

***

كان هولينجزورث يجلس القرفصاء على سلم المتجر ويرتجف كلما مر أمامه جيسى فى طابور راكبى الدراجات ، وإذا حدث وتوقف جيسى وعرج على المتجر كان هولينجزورث يسارع بإخراج سيجارة وإشعالها فى لهفة ويشرع فى الحديث بنبرات متأنية كعادة أهل الريف كما كان يرسمها فى خياله ، حين يتصور ما ينبغى أن تكون عليه حياته ، وكان فى لهفته واندفاعه هذا يسقط بعض السجائر ، وما أن يفلح أخيراً فى إشعال واحدة وسحب نفس منها حتى يجد جيسى وقد فرغ من زجاجة الكوكاكولا وفرد ظهره ووضع الزجاجة المبتلة الفارغة على حامل الزجاجات المعدنى ، ورفع يده محييا وامتطى دراجته ومضى ، فيراقب عضلات سمانة ساقيه وركبتيه تتحرك صعودا وهبوطا وكأنها تبتلع شيئا ، وكأنها أشياء محبوسة فى جوال – أشياء غامضة تثير القلق . لم يكن أمامه حينذاك إلا أن ينتظر عودة جيسى مرة أخرى ، وحين عاد جيسى فى المرة التالية كان هولينجزورث قد حسم الأمر وبات على يقين أن بازبى حقود ، وأنه يخفى نفسه عمدا ليكدره .

***

قبل هرب بازبى كان هولينجزورث يشاركه أحيانا إعداد العشاء فى المساء ، وكانا أحيانا يذهبان إلى أحد مطاعم المدينة القريبة حيث يأكلان

ويتسليان بمراقبة البشر ، أو بالحديث إلى خادمات المطعم . أما الآن فقد أصبح هولينجزورث يلزم متجره فى المساء حتى لا تفوته فرصة لقاء جيسى ، ويتناول فى العشاء وجبة سريعة بسيطة من المعلبات المكدسة على الأرفف التى تراكم عليها غبار السنين – مثل علبة من السجق النمساوى ، أو علبة سردين مع بعض البسكويت الجاف الصلب وعلبة من البيرة الدافئة ، من أصناف توقف إنتاجها ربما منذ عقد أو عقدين . إن مقاومة الزمن أمر صعب لكنه ليس أصعب من مقاومة الموت . لقد خدع هولينجزورث وبازبى الموت وانتصرا عليه وبقيا على قيد الحياة ، ورغم ذلك فقد فقدت حياتهما شيئا من جذوتها ولذتها ، فبعد الكفاح الكبير ضد الموت بدت كل الصراعات والتحديات تافهة لا تثير الحماس أو الاهتمام .

كانت محتويات العلب قد فقدت طعمها تماما لكن هولينجزورث لم يعر الأمر اهتماما ولم ير ضررا فى أكلها – قال له جيسى إن زملاءه يرفضون التوقف عند متجره لأنهم يعتقدون أن المياه الغازية مضرة لأنها تعرقل تنفسهم المنتظم وتقلل من سرعتهم .

كان هولينجزورث بعد رحيل والده يقع أحيانا فريسة المشاعر الجامحة والرغبة فى الانطلاق فيبذل جهدا كبيرا فى مقاومتها . لم يكن قد تزوج أبدا أو صادق أحداً عدا والده . كان كل شىء يأتيه بالبريد ، وكانت عربة توصيل البضائع والبقالة تحمل إليه المشتريات التى كان يطلبها فى أحوال نادرة . كان مشتركاً فى صحيفة وول ستريت جورنال التى كانت تصله بعد ثمانية أيام من صدورها ورغم ذلك يواظب على قراءتها ، وكان يتبادل القصص والأخبار والنوادر مع بازبى قبل رحيله . كانت المسامرة تبدأ عند الغروب ولا تنقطع قبل العاشرة . كان بازبى يروى عن الماضى ، وهولينجزورث يقص عليه ما يقرأه فى

الصحيفة ، وكانت نوادر بازبى عادة تبز نوادره ، فقد كان يحكى عن أشياء ملموسة مألوفة وعن أحداث وقعت قريبا منهما على بعد ميلين أو ثلاثة .

***

آلت أراضى البلدة إلى هولينجزورث وبازبى بعد فناء أهلها ، فوجدا نفسيهما فى الثلاثينات من القرن يمتلكان ما يربو على الألفى فدان من غابات السرو والبلوط الواقعة وسط المستنقعات وغابات أخرى من الأشجار الضخمة السامقة على المرتفعات . لكنهما باعا معظم الأراضى لشركات الأخشاب تدريجيا ، فكانا يبيعان أربعين أو خمسين فدانا كل بضعة أعوام حتى لم يعد لديهما سوى قطعة الأرض الصغيرة التى يقف عليها كوخهما الخشبى .

ولكن فى مقابل ذلك كانا يمتلكان أكواما وأكواما من النقود يحتفظان بها فى سلال من سلال جمع الفواكه اصطفت عالية فى مخدعهما . لم يحزنهما بيع الأرض ولم يفتقداها ، وإن كانا قد تمنيا لو كان لديهما المزيد منها حتى يعود عمال قطع الأشجار بمناشيرهم الكهربائية التى طالما أمتعهما صوتها .

كانا فى ذلك الزمن – زمن بيع الأراضى وقطع الأشجار – يجلسان فى المساء أمام البيت وينصتان إلى أصوات المناشير البعيدة وكأنها موسيقى عذبة ، ويتخيلان الأشجار العظيمة الشامخة وهى تهوى إلى الأرض ، ويشعران بشىء من الرضا والراحة كلما هوت واحدة .

***

كان استطلاع الطقس فى صفحة السماء هو أول فعل يأتيه جيسى

فى الصباح حين يفتح عينيه ، وبعد ذلك يخرج إلى الشرفة الخلفية ليستطلع أمر الرياح فإذا وجدها ساكنة انبسطت أساريره وزال توتره وشعر بالاسترخاء والرضا عن حياته ، أما إذا شعر بحركتها ولو كنسيم خفيف يدور حول كاحليه الحليقين ويرتفع ليدغدغ ساقيه المستديرتين فكان يقطب جبينه ويعبس فى توجس ويولى وجهه شطر المطبخ ليعد القهوة . كان يعلم أن الريح إذا هبت فى الصباح فلن تتوقف طوال اليوم حتى ولو بدأت نسيما خفيفا إذ سرعان ما تصطخب وتتحول إلى ريح عاصفة عاتية بحلول فترة ما بعد الظهر : وترتفع حرارة الحقول فى موجات لا تلبث أن تبرد وتعود لتستقر : وتهب كتل ملساء من الهواء اللزج فى نعومة زى ركوب الدراجات الذى يرتديه ، تنزلق صعودا وهبوطا فى الطرقات وبين الأشجار تبحث عن أماكن تعصف بها ودروب تعربد فيها دون عائق .

***

كان هولينجزورث يتوق إلى حديث طويل مع أى إنسان – مع جيسى مثلا أو حتى مع شخص مثل فرانسوا أو جاك أو بيير ، فقد كان فى جعبته الكثير الذى يود الإفضاء به . لقد رحل بازبى مع الأسف . لقد استهلكا هو وبازبى كل القصص القديمة وردداها مرات ومرات حتى بات حديثهما مكرراً معادا يخلو من الجدة والطرافة ومن أى أحداث جديدة تذكر ، واستمر هكذا زمنا طويلا حتى بدأ هولينجزورث يخترع أحيانا قصصا وهمية ويدعى أنه قرأها فى الصحيفة حتى يجارى بازبى فى رواياته خلال السنوات القليلة الماضية . والآن وقد غدا وحيدا فقد بدأ خياله يتقوقع ويلتف على نفسه ويتضخم كورم سرطانى لا يمكن السيطرة عليه ولا منفذ له . كان يخرج إلى الشرفة الأمامية للمنزل فى المساء ، ويرسل عينيه عبر الطرق الخالية المهجورة والحقول

المتماوجة فى الريح الغاربة إلى ذلك الخيط الأزرق من الأشجار الذى يحف منطقة الأحراش والمستنقعات حيث يختبىء بازبى - كما يعتقد - ثم يقرع ناقوس إعلان العشاء بقوة ، وقد تلبد وجهه بالغضب ، فيدوى عاليا واضحا ، ثم يتأمل الحقول وهو يأمل أن يرى بازبى أمامه يلوح بيده ويعلن عودته .

***

فى الأسبوع الثانى من شهر يوليو زار جيسى المتجر مرة أخرى ليبتاع زجاجة « كوكاكولا » . كانت الحرارة شديدة . كان هولينجزورث قد اتجه إلى مدينة كريستال سبرنجز قبل ذلك بقليل وأحضر عربة رصف الطرق التى سوت الزلط الذى يفترش الطريق إلى مدخل متجره ، ومهدته وصبت عليه الأسفلت الساخن اللامع ثم فردته وسوته فى طبقة جديدة ملساء . حين برد القار وجف بعد مدة بدا الطريق رائعا مصقولا وكأنه مرآة تتألق بالأضواء وألوان الطيف ، أو كثعبان أسود لامع يبرق وسط الحشائش الخضراء . امتد هذا الشريط البللورى المتلألىء فى خط مستقيم من باب المتجر إلى الطريق العام عبر الفناء وكأنه يلوح للمسافرين ويدعوهم إليه .

قال جيسى وهو ينظر تحت قدميه : « مبروك المدخل الجديد » .

كانت الزجاجة فى يده وقد بدأ يتجرعها . سيمضى سريعا قبل الأوان .

لا شىء يدوم ! لا شىء !

تحسس هولينجزورث صدره وجيب قميصه فى عجلة بحثا عن سجائره ، وسحب العلبة وأشعل سيجارة ، ثم جلس سريعا وقال فى

نبرات متئدة يمهد لروايته : « أجل .. أجل » . ثم نظر إلى الحقول أمامه ، ولم تخطر على باله قصة واحدة . لعن القصص كلها والروايات وتخبط فى حديثه وتلعثم ثم قال بطريقة عابرة : « لقد ظهرت العملات القديمة فجأة وبوفرة مرة أخرى ، لعلك لاحظت هذا ، خاصة الأرباع التى يعود تاريخها إلى الستينات – إلى عام ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ مثلا – أعنى العملات التى بها قدر من معدن الفضة » . لم يكن هذا ما يريد أن يقوله حقا .

قال جيسى : « إنه ممر جميل يشبه طريق سباق السيارات المسفلت الذى أتمرن فيه أحيانا » . كان الشريط الأسفلتى الداكن يمتد إلى شرفة المتجر الأمامية وثلاجة الكوكاكولا ناعما نضرا كثعبان أسود انتهى فى التو من تغيير جلده القديم . كان هولينجزورث يحرص على كنسه مرتين فى اليوم ليحفظه نظيفا من أوراق الشجر الذابلة والأغصان الصغيرة الجافة ، ثم يجلس أمامه وينتظر .

كان طريقا ناعما مستويا مريحا للأقدام . وقف جيسى يختبر صلابة سطحه بقدمه فيضغط عليه مستمتعا بملمسه ويعبر عن إعجابه بليونته المطاطية التى تستجيب لضغط القدم رغم صلابته وتماسكه .

كان جيسى قد فرغ من نصف زجاجة الكوكاكولا ، فقال هولينجزورث مسرعا : « لقد كان الروس يكتنزون هذه العملات . هذا تفسيرى للأمر . لقد حصلوا على الملايين منها من دور سك النقود فى بلدنا أثناء الحرب الباردة » . كان الحال يختلف تماما حين كان يروى تلك القصة لبازبى لكنه استمر : « لقد عرّضوا هذه العملات للإشعاع النووى ثم زرعوها مرة أخرى بين مواطنينا » .

حين استدار جيسى ليمضى بدت سمانتاه من الخلف أشبه بحوتين

هائلين ، وكان منظر ساقيه شاذا وكأنهما تنتميان لكائن من عالم آخر فقد كانتا تتحركان وترتطم إحداهما بالأخرى بصورة شائهة غريبة .

***

قال جيسى لهولينجزورث فى شهر أغسطس : « لقد رأيت رجلا يشبهك » .

كانت ساقاه قد بدأتا تكتسبان صلابة وقوة وليونة لم تكن بهما من قبل ، وكذلك صدره الغائر . جرع نصف زجاجة المياه الغازية فقط هذه المرة وسكب النصف الآخر على الأرض حثيثا . تأمل هولينجزورث الموقف محزونا : لقد انتهت الزيارة قبل الأوان بعد أن تقلصت مدتها إلى النصف بسبب نظام إنقاص الوزن الذى يتبعه الآن جيسى ، وجنون السرعة وقطع المسافات الشاسعة الذى اعتراه .

قال جيسى : « الفرق الوحيد أنه كان عجوزا طاعنا فى السن . أظن أنه الرجل الذى يبحثون عنه » . لم يكن جيسى يعرف اسم هولينجزورث الأول أو الأخير . لم يخطر بباله أن يسأل قط .

لم يجب هولينجزورث بشىء وكأنه فقد القدرة على الكلام . كونت المياه الغازية المسكوبة على الأرض بركة صغيرة أخذت ترغى وتزبد وتفور فقاعاتها ثم تختفى فى هدوء وسط الحشائش الجافة . بدا قرص الشمس كبيرا برتقاليا فى الأفق عبر الحقول وهو يهبط خلف الأشجار البعيدة التى لفتها زرقة المغيب . خفت حدة الحرارة وحلقت أسراب الحمام عاليا فى السماء وقد أسمنتها الحقول وغلال موسم آخر الصيف . سأل هولينجزورث نفسه : ترى كيف يعيش بازبى وماذا يأكل ولماذا تركه وهرب ؟

قال جيسى : « كان يستعد لعبور الطريق » .

كان يقف أمامه ويحاول الاحتفاظ بتوازنه فقد كان يرتدى حذاء ركوب الدراجات الذى ثبت أسفله قطعة رقيقة ملساء من المعدن كانت تنزلق تحته على الأرض أحيانا حين يحاول المشى به . لم يكن يستخدم ساعة لقياس سرعته كالآخرين ، ورغم ذلك فقد أدرك أن سرعته تزداد فقد أحس مؤخرا وهو يقود دراجته أنه يهوى – يهوى فى هدوء وصمت وكأن أحدا يدفعه برفق من الخلف . إن هذا الإحساس الغامض يدهم الرياضيين عادة – وربما فئات أخرى أحيانا – حين يتوغلون فى ممارسة رياضتهم وفجأة يشعرون وكأنهم يخترقون آخر حاجز ، آخر وأرق طبقة مانعة من أنسجة الجسد وأسهلها اختراقا فينفذون منها ويشعر الواحد منهم أنه يهوى حثيثا بعد أن هوت كل الحواجز أمامه ولم يعد هناك ما يعوق تقدمه ، فيتقدم دون جهد يذكر ، وينجز دون وعى منه . حينئذٍ تصبح رياضته هى كل حياته ويغدو إتقانها شغله الشاغلَ فينفق فيه كل وقته . هذا ما يحدث فى النهاية فجأة ، ذات يوم .

قال جيسى : « حاولت أن أوقف الدراجة وأنزل لمطاردته لكننى أصبت بتقلص فى عضلات الساق » .

وضع زجاجة الكوكاكولا الفارغة على الرف المعدنى .

كانت الشمس فى عينى هولينجزورث فشعر وكأنها توشك أن تسلبه البصر . لم ير جيسى . كان فقط يشم رائحة عرقه النفاذة ، ويشعر بالحرارة التى مازالت تشع من ساقيه وكأنهما عمودا مدفأة تشعان حرارة أخشابها المحترقة ، أو أرجل جواد تلفها شبكة عنكبوتية دقيقة من العروق تحت الجلد الأسمر الرقيق .

قال جيسى : « كان يرتدى « أوفرولا » قديما متسخا دون قميص تحته » . ثم أضاف : « واسمع هذا الآن . هل تصدق أنه كان يحمل سمكة كبيرة دون ذيل تحت إبطه . خطر لى آنذاك أنه تغذى على ذيل السمكة . قضمه ومضغه نيئاً » .

كان جيسى يتكلم وكأنه يلقى خطبة . شعر هولينجزورث بنصفه الأسفل يتثنى وبأمعائه تتلوى من اللذة ، وكأنه يوشك على الإغماء . استمر جيسى فى حديثه يؤكد الوقائع ويبرز التفاصيل .

ـــ « استدار على عقبيه وفر هاربا كغزال خائف عبر الحقول ، ثم انحدر فى اتجاه فرع النهر واختفى بين الأشجار وهو ما زال يحمل سمكته تحت إبطه » . ثم استدار وأشار بيده قائلا : « ما رأيك أن نطارده معا على جرارك ؟ نستطيع أن نتعقبه فإذا اكتشفنا مكانه اصطدناه بالحبال واقتسمنا المكافأة » . نظر جيسى إلى ساقيه . كانت عضلات الفخذين الأمامية قد استدارت وتكورت وانتفخت إلى حجم بالون كبير فلم يستطع أن يبصر قدميه وحذاءه الصغير أسفلهما . قال فى نغمة تشبه الاعتذار : « لا أظن أننى أستطيع أن أطارده وحدى على الأقدام . لا أعتقد هذا . إنه سريع العدو رغم سنه . من يدرى ماذا يدور بذهنه وما الذى دفعه إلى الهرب » .

سمع هولينجزورث صوته يهمس : « إن هوجسون الذى يمتلك مزرعة على طريق « جرين جيبل » لديه بعض الكلاب البوليسية . ابتاعها من السجن بخمسمائة دولار حين توحشت . إنها كلاب مدربة على المطاردة واقتفاء الأثر ، وإذا شمت رائحة العجوز فسوف تتعقبه دون هوادة حتى ولو ذهب إلى ولاية فلوريدا ولن تهدأ حتى تجده » .

طفت صورة تلك الكلاب فى ذاكرة هولينجزورث . كان بعضها أسود وبعضها عسلى ، بعضها فى لون الليل حين يوغل فى الظلام ويغشاه الصقيع وبعضها فى لون العسل البارد حين تسطع عليه الشمس فى الصباح . تخيلها وهى تشق طريقها فى الغابة بين الأشجار ورأى نفسه وجيسى يتبعانها بالنهار وينصبان خيمتهما بالليل فى العراء . هاهى تحاول الفكاك من أسر القيود والسلاسل الثقيلة التى تكبح جماحها . لقد لحقا ببازبى . إنه يتقدمهما بمسافة قصيرة ويحاول الهرب . تثب الكلاب عاليا وتنطلق فتسحق النباتات الكثيفة تحت أقدامها ثم تقفز إلى مستنقعات النهر الملتفة المتعرجة فتثير أمواجا عالية من الرذاذ ، وتفزع طيور الماء البرية فتندفع عاليا من الأشجار فى أسراب كثيفة تظلم وجه السماء وتدوى الغابة بالصرخات فكأنهما فى غابات أفريقيا وأدغالها . قد يستغرق البحث أياما . سيجلسان حول النار فى المساء يتسامران . رأى نفسه ينتزع وركاً دسماً من دجاجة سمينة تشوى على النار ويمد يده به إلى جيسى . سيحدثه فى أى شىء . فى كل شىء .

قال جيسى وهو يستبق الأحداث بخياله : « فلنجرب الجرار أولا » . كان التفكير فى أى شىء عدا ركوب الدراجات أمراً شاقاً بالنسبة له ، فقطب جبينه وانتابه شعور بالحرج وكأنه قد تعرى ، وكأنه أيضاً قد وقع فى فخ لا مهرب منه . « أما إذا توغل فى الغابات فقد نضطر إلى استخدام الكلاب إذن » .

شمر هولينجزورث أطراف سرواله والسيجارة مازالت بيده ، وكشف عن آثار جرح قديم أصابه فى حادث صيد تعرض له حين كان فى الثانية عشرة . قال أبوه إنه قد ظنه ظبيا فأطلق عليه النار . كان بازبى فى السادسة والعشرين حينذاك .

قال هولينجزورث فى رنة صريحة صادقة : « إننى مثلك . أنا أيضاً لا أجيد الجرى » . لكن جيسى كان قد امتطى دراجته وابتعد على الشريط الأسفلتى الأسود ، وكأنه طيار يقود طائرته على ممر الطائرات استعداداً للتحليق ، أو كسمكة تندفع نحو البحر . انحرف إلى الطريق العام الذى خلا من الحياة فغطته الأعشاب فى مناطق متفرقة ، بل ونبتت فى منتصفه أيضا ، ثم نهض مستندا بقدميه على البدالات وانطلق مسرعا بين الأشجار تدفعه الريح إلى بيته . اختفى فى لحظة .

***

غشى الظلام متجر هولينجزورث حين غابت الشمس خلف الأشجار . لم يشعر برغبة فى العودة إلى الداخل فجلس أمام الباب يراقب الطريق الخالى . ماتت أمه وهى تلده . كانت فى الرابعة عشرة مثل أبيه وكانت علاقته بأبيه دائما علاقة أخوة أكثر من أى شىء آخر . تذكر تلك اللعبة التى كان يلعبها مع أبيه حين كان فى السابعة أو الثامنة من عمره ، وكان أبوه حينذاك فى حوالى الواحدة والعشرين – أى فى عمر جيسى الآن تقريبا . كان أبوه يجرى إلى الحقول ويختبىء فى مزرعتهما القديمة ، ثم يهبط التل جريا وهو يلوح بذراعيه وكأنه طاحونة هواء ، ثم يختفى فجأة وسط الحشائش الطويلة فيبدأ هولينجزورث فى البحث عنه وهو يخطو فى تلصص وحذر حتى يباغته . كانا يلعبان هذه اللعبة مراراً وتكراراً – كانا يفضلانها على أى لعبة أخرى فى العالم ويلعبانها فى كل فصول العام وليس فى الصيف فقط .

***

كان لبازبى شجرة مفضلة كان يلجأ إليها كثيرا ويعتلى أدنى فرع فيها

ويجلس طويلا وهو ينظر خلفه فى اتجاه بيته القديم . كان يرى راكبى الدراجات كل يوم لكن السيارات لم تكن تسلك هذا الطريق أبدا . كان راكبو الدراجات أحيانا يتناولون الطعام والمرطبات حول منضدة صغيرة على جانب الطريق يضعون عليها البرتقال وزجاجات من الماء الدافىء وأكوام من أصابع الحلوى . كان قد تسلل إليها فى المساء من قبل مراراً عند الغسق وفتش مخلفاتهم وقرض قشر البرتقال ، ولذا كان يتوجس شراً ويشعر بالتوتر وهو يجلس فى شجرته إذا توقفوا بالقرب منه لسبب من الأسباب .

لم يخطر ببال بازبى على الإطلاق أن يعود إلى ابنه الذى جن جنونه حين رحل . غير وضعه على فرع الشجرة وراقب راكبى الدراجات وهم يأكلون البرتقال . غطى العرق ظهره فبدا لامعا زلقا ، وفاحت منه رائحة كريهة كرائحة أقذر الحيوانات . كان يستحم فى المساء مع كل النساء فى الأجزاء الضحلة من النهر ويتمرغ معهن فى طينه ، فقد كانت النساء يرفضن أن يخرجن إلى الأجزاء الأكثر عمقا ، إذ كانت الثعابين تسبح فيها جيئة وذهابا وكأنها جنود فى دورية من دوريات الحراسة وقد التوت واتخذت شكلا خبيثا . كان قد بدأ يتعرف على النساء جيدا ويألفهن ، ووجد أن العديد منهن لا يختلفن فى طبائعهن عن ابنه ، فكلهن مغرمات بالثرثرة فيما يبدو ، ولديهن تلك الرغبة العارمة فى التواصل وكأن تبادل الحديث يمكنهن من درء شر ما ، من صد غائلة خطر هائل يتهددهن . ترى كيف سيقضى الشتاء بينهن – نوفمبر والشهور التالية . سيجد نفسه وحيدا وسطهن حبيس الكوخ المهجور فوق الهضبة وكأنه حيوان وقع فى فخ ، بينما يجلسن هن حول المدفأة يثرثرن لمدة أربعة شهور كاملة .

هبط بخفة من فوق الشجرة وانزلق إلى الأرض واتخذ طريقه عبر

الحقول فى اتجاه راكبى الدراجات . راقبته النساء وهو يمضى . كان الطريق طويلا عبر الحقول وكانت الحرارة شديدة فأحس بالدوار وتعثر عدة مرات ونسى فى لحظات قصيرة متفرقة أين هو ، وتخيل أن أحد راكبى الدراجات هو ابنه ، وأنه يلعب معه لعبة الاختفاء التى كانا يلعبانها معا فتوقف وأقعى وسط الحشائش الطويلة وتظاهر بأنه يختبىء . لكن راكبى الدراجات انتهوا من طعامهم بعد قليل ونهضوا ورحلوا بدراجاتهم . راقبهم بازبى يمضون بعيدا فنهض من مخبئه واستدار وانطلق عدوا عائدا إلى الغابات والنسوة . لقد شعر بالفزع الشديد وحده فى الحقل المكشوف دون سبب مفهوم .

* * *

عثر بازبى على أطلال المستعمرة القديمة بعد أن تجول فى الغابات أسبوعا كاملاً . كانت أحراش النهر ومستنقعاته الطينية غنية بالأسماك الكبيرة ، وكان يصارع أضخمها حجما ويقتنصها فى منحنيات النهر وفروعه الضحلة التى انفصلت عن المجرى الرئيسى للماء ، كما كان يصطاد التماسيح الصغيرة أيضاً .

أوقد ناراً وأبقاها مشتعلة طوال الوقت حتى يطرد البعوض ، وحين توفر لديه عدد كبير من الأسماك الضخمة علقها من أصداغها على فروع الأشجار لتجف فى الهواء . كان يمرر غصنا طريا خلال فك السمكة الهائل ثم يعقده ويعلقها على أحد الأشجار المحيطة بالفضاء الممهد ، وكأنها مذنب يتدلى من حبل المشنقة ، حتى غدا هذا الفضاء الصغير بعد قليل أشبه بمقبرة من المقابر القديمة ، فقد حفته من كل جانب جثث الأسماك المعلقة من رؤوسها وقد فغرت أفواهها فى صمت الموت ودفعتها إلى السماء وكأنها تستعد للصعود إليها بعد أن خرجت من الماء .

كانت لذة الوحدة التى لم يستشعرها من قبل تفيض به أحيانا وتوقد حماسه فيندفع فى حيوية من عمل إلى آخر ، وكأنه فى جولة مرحة ممتعة بين المتاجر فى السوق أو بين الألعاب المختلفة فى أرض الملاهى . كان يعد العدة لحياته الجديدة ، ومع اقتراب الخريف والشتاء أحس بدماء الشباب تدب فى عروقه .

بعد أسبوعين من استقراره فى المستعمرة القديمة رحل متتبعا مجرى النهر إلى أعلى فى اتجاه المدينة ضد تيار المياه الطينية الراكدة . كان ينام أسفل جذوع الأشجار الضخمة التى هوت فوق المجرى فشكلت شبكة عبره ، وينشغل فى المساء بصد وقتل أسراب البعوض التى كانت تنقض عليه كلما توقف عن السير فيستمر فى مسيرته حتى أثناء الليل . كان القمر يرسل نوره خلال فروع الأشجار العارية التى ضرب فيها العفن فتحولت إلى أشباح أشجار - إلى هياكل عظمية بيضاء شاحبة قضت على حياتها أوبئة المستنقعات . لكنه حين تقدم أعلى النهر ، وغدا على مقربة من المدينة قرب بزوغ الفجر كان قد خلف المستنقعات وراءه فدبت الحياة فى المياه ، وازدادت سرعة جريانها وتجددها ولم يعد البعوض خطرا يتهدده .

***

رقد تحت عربة شحن على قضبان السكة الحديدية ونظر عبر الطريق إلى عاملات المغسلة العمومية ، وهن يدخلن ويخرجن وقد بدا عليهن الإرهاق ، وهن يمشين ببطء شديد وخطى ثقيلة كالعواجيز . كانت بعضهن فى العشرين والبعض الآخر فى الثلاثين أو الأربعين ، ورغم ذلك كانت الواحدة منهن تحمل أمامها سلة الملابس المبتلة وتمشى بها وهى تتأرجح بثقل من جانب إلى جانب ، وكأنها سوف تتهاوى مع

الخطوة التالية وتفارق الحياة . رأى العرق يلتمع على أذرعتهن وسمع الصنادل على أقدامهن العريضة المفلطحة تقرع الأرض فى وهن ، فأراد أن يحكى لهن عن مستقره الجديد . كان يرغب فى صحبة خمس أو ست منهن ، لا .. بل عشر أو عشرين . كان يريد أن يراهن يتجولن عاريات الأقدام على الأرض السمراء تحت أشجاره ، وتحت أسماكه وتماسيحه المعلقة عليها ، بجوار الماء والمستنقعات .

فى تلك الليلة سرق أربع دجاجات وديكا ، وغطى عيونها ووضعها فى جوال ، ودس ثلاث بيضات فى كل جيب من جيوب قميصه بعد أن التهم عشرا منها ، امتص محتوياتها تماما وجرعها بنهم شديد وهو يختبىء خلف مزرعة للدجاج فى طرف المدينة الغربى على حافة النهر ، ثم مضى فى طريقه عائداً بحذاء النهر وجواله يتأرجح على ظهره فينبعث منه إلى جسده الرطب دفء الدجاجات والديك التى هدأت حركتها وسكنت فى ترقب .

حين خرج من الغابات الخضراء الكثيفة توقف على تل صغير ، وأرسل بصره إلى الأراضى الواطئة حيث يتشعب النهر ويمتزج ماؤه بالطين فتثقل حركته ، ويتحول إلى مستنقعات رخوة لزجة كثيفة تحفها الأشجار البيضاء الميتة وتعشش فيها أسراب البعوض الخبيثة . جلس وأسند ظهره إلى شجرة وقد وضع دجاجاته إلى جواره ، وجعل يتأمل القمر يسطع بنوره الأزرق الشاحب على سطح المستنقعات .

انتظر حتى أشرقت الشمس وارتفعت حرارة الجو ورحلت أسراب البعوض ليبدأ الجزء الأخير من رحلة العودة هابطا نحو معسكره .

قضى الشطر الباقى من اليوم ينقب عن البذور والحبوب ويجمعها من الروابى والأماكن المفتوحة والمعشبة فى الغابة ليطعم دجاجه .

انتشرت الدجاجات فى أرجاء المعسكر وتجولت فى حرية دون أن تبرح حدوده . كانت تبدو بأجسادها البيضاء الصغيرة وانحناءاتها المعوجة وكأنها عفاريت صغيرة من عفاريت الغابات . أما الديك فقد حلق واعتلى شجرة قصيرة ومضى يحدق ذاهلا فى الأحراش والمستنقعات بعينين ذهبيتين .

كان بازبى قد أمضى أسابيع طويلة يفتش عن شجيرات نبات الكينين الذى قيل إنه زرع فى المنطقة أثناء وباء الكوليرا الكبير . وفى ذلك اليوم عثر عليها ، فقد اتجهت إليها الدجاجات على الفور وبدأت تنقرها بنهم لم ير بازبى له مثيلا من قبل . اعتلت أوراقها واندفعت تبحث فى جنون عن ثمارها فاشتبكت أجسادها بالفروع والأغصان والتصقت بها وكأنها أصبحت مضفرة معها .

كان والد بازبى قد زرع هذه الشجيرات التى استورد بذورها من أمريكا الجنوبية . وصلته البذور فى العام الثالث من الوباء على شاحنة فتسلمها فى ميناء نيو أورليانز وعاد بها إلى المستعمرة ، وزرعها فى نفس ذلك العام الثالث الذى فتك فيه الوباء أخيراً بالجميع .

لم تنجح زراعة الكينين فى البداية إذ سرعان ما كان العطب يدب فى الشجيرات فلا تزهر أو تثمر . كان بازبى قد سمع هذا من والده ، لكنه علم منه أيضا أن بعض النباتات عاشت بل وازدهرت لفترة قصيرة ، ربما لمدة أسبوع أو أسبوعين ، فأقام أهل المستعمرة الاحتفالات وولائم السمك والتماسيح ورقصوا ، وغرسوا بذور الكينين فى كل مكان فى الغابة لمسافة أميال حولهم فى كل منطقة تخطر على بال . وحين اندفع الدجاج إلى هذه الشجيرات وأخذ يقرق ويلتهم أعنابها أدرك بازبى على الفور أنها شجيرات الكينين – التى أدرك الدجاج بالغريزة فائدتها – جمع بازبى كل ثمار الكينين وشعر أخيراً بالأمان .

انتشر دخان ناره الموقدة فى هذا القاع المنخفض وتعلق فى سحابة فوق المستنقعات . كان هذا الجزء من المنطقة الذى يمتد وسط الأشجار الذابلة يبدو من أعلى وكأنه قد اختفى من الوجود تماما ، وكأن بقعة كبيرة من سائل أبيض قد انسكبت على وجه المكان وافترشته دون نظام ، وحين يصل البصر إلى نهايتها تعود المستنقعات إلى الظهور .

لكن بازبى بدأ يشعر بالأمان حين عثر على ثمار نبات الكينين فترك النار تخبو وتنطفىء . كان يقضى يومه جالسا تحت شجرته المفضلة على حافة الماء يترقب ظهور التماسيح الصغيرة ، فإذا رأى أحدها وثب إلى الماء وسبح وسط الرذاذ ليلاقيه ثم يصارعه حتى يخرجه من المياه الضحلة إلى الشاطىء الطينى حيث يصرعه بوحشية .

لكن الأيام كانت طويلة والتماسيح قليلة ، ومعظمها من الحجم الكبير ، بل والهائل أحياناً ، الذى لا يقوى على التصدى له . لكن ذلك لم يقلقه فقد كان لديه من الطعام ما يكفيه فى الشتاء . نظر إلى التماسيح المعلقة من الأشجار والأسماك الضخمة التى فغرت فاهها وهى تتأرجح برفق وتدور فى النسيم الذى يبشر بمقدم الخريف ، وقال لنفسه إنه إذا صبر وثابر على مراقبة المياه فلابد أن يرى تمساحا مناسبا للصيد إن عاجلا أو آجلا . أسند ظهره إلى الشجرة وأخذ يراقب المياه ويأكل ثمار نبات الكينين . كان يمضغها ببطء مستمتعا بمذاقها المر اللاذع .

كان يتخيل أنها تعطى دمه مذاقها المر فينفر البعوض من طعمه وينأى عنه ، وذلك رغم أن البعوض لم يتوقف عن لدغه كما لاحظ ، بل وازدادت لدغاته بعد انطفاء النار وانقشاع سحب الدخان . لكنه كان قد اعتاد لدغات البعوض ولم يعد يبالى بها .

لقد اختفت إحدى الدجاجات . ربما أكلها ثعبان أو حيوان آخر أو أصابها مكروه ما . فالغابة مليئة بالأخطار .

لكن ثمار الكينين ستحميه .

ظل يرقب المياه ويلمح أحيانا خيطا دقيقا من الفقاقيع يطفو إلى سطحها حين يتحرك أحد التماسيح فى قاعها الطينى .

***

تركت امرأتان من العاملات فى الغسالة بيتيهما وعبرتا الغابات إلى الأحراش ، وتتبعتا مسار فرع النهر الضحل فى وجل وتردد لتستطلعا صحة القصة التى سمعتاها . وصلتا إلى المستعمرة عند الغسق وقد تمزقت ملابسهما وارتسم على وجهيهما الهلع والذهول . نظر إليهما بازبى من مجلسه وقرأ الفزع فى أعينهما فأراد أن يهدىء من روعهما . لم يسألهما عن السبب الذى دفعهما لهجر بيتيهما ، عن الخوف الذى روعهما هناك فتضاءل إلى جواره الخوف من أخطار الرحلة عبر الغابة ومستنقعات النهر . وقفتا بين الأشجار وقد جمدهما الخوف ورفضتا أن تتقدما خطوة معه حتى حين أمسك بيد كل منهما فى يده . وفجأة أدرك أن التماسيح بابتسامتها الجامدة المخيفة والأسماك الجافة التى تدور فى النسيم هى مبعث ذعرهما ، فشرح لهما أنه علقها على الأشجار لتجف وتنضج على دخان النار ليقتات عليها فى فصل الشتاء .

قالت الأقصر طولا ، والأثقل وزنا : « إن رائحتها طيبة » . كانت بشرتها عميقة السواد فى لون التوت البرى السام وكان وجهها يلمع .

ضربت صديقتها بعوضة حطت على جسدها .

قال بازبى وهو يناولهما بعض حبات ثمار شجيرات الكينين : « إليكما هذه الثمرات . كلاها » .

حين ذاقتا مرارتها ظهر الاشمئزاز على وجهيهما ولفظتاها .

قطب بازبى حاجبيه وقال : « ستمرضان إذا لم تأكلاها . لن يكتب لكما البقاء دونها » .

تركتاه وتقدمتا إلى التماسيح المعلقة لتتأكدا أنه لا خطر منها وأنها لا تستطيع أن تغادر الأشجار ، فمدت كل منهما يدها فى خوف وحذر لتلمس جلدها الصلب السميك وقد تأهبت للفرار عند ظهور أية حركة أو بادرة حياة فيها .

* * *

سأل هولينجزورث كطفل صغير : « ألا تحن أحيانا إلى صحبة النساء ؟ » كان ذلك بعد أربعة أيام من آخر لقاء بينهما حين زار جيسى المتجر كعادته ليشرب نصف زجاجة من المياه الغازية . كان فريق راكبى الدراجات قد عبر أمام المتجر منذ حوالى ساعة . سمع هولينجزورث صوت الدراجات السريع المنتظم للحظة خاطفة ثم اختفت فى لمح البصر . بعدها بفترة طويلة رأى جيسى على دراجته يصعد التل بجهد ومشقة . كان يحرك البدالات بقوة وعزم ورغم ذلك كان أبطأ من الآخرين . لقد حاول جاهداً ألا يتخلف عنهم لكنه فشل . حين وصل إلى المتجر ألقى دراجته على الأرض فى حنق ونظر غاضبا إلى هولينجزورث حين تقدم من ثلاجة المياه الغازية ، وتجهم وجهه وكأن هولينجزورث هو المسئول عن فشله .

أجاب جيسى وهو ينظر خلفه عبر الطريق : « أتردد على إحدى

العاهرات » . كان العشب أخضر مبتلا بعد مطر الصباح ، تتعلق فوقه سحابة ضبابية من بخار الماء . كان جيسى يكذب . لم يكن يتردد على أحد ، ولم يضاجع امرأة منذ أكثر من عام . كان الجميع يعلمون أنه أبطأ عضو فى فريقه ولهذا السبب تجنبوه . أحس جيسى بأنه يتوغل فى عزلته ويتحول بالتدريج عما كان عليه فى الماضى إذ لم يعد يرغب فى أى إنسان أو أى شىء . تخيل نفسه يسافر بالسرعة الرهيبة التى يتمناها ، ويقطع المسافات الشاسعة فى لمح البصر فغامت الأشياء فى عينيه وانطمست ملامحها . خلف ضباب الحقول بدت الأشجار واضحة داكنة وقد غسلها ماء المطر وفاح شذاها فعطر المكان رغم بعد المسافة . تمنى هولينجزورث لو كانت لديه عاهرة ، وتساءل فى نفسه ترى هل يسمح له جيسى بأن يتردد على رفيقته ؟ أو هل تسمح هى بذلك له إذا رحل جيسى إلى الألعاب الأوليمبية مثلا بعد أن تزداد سرعته ؟

سأله هولينجزورث على استحياء : « كم أجرها ؟ »

ألقى إليه جيسى نظرة اشمئزاز وتقزز، ثم قال :« لم أقصد أنها عاهرة بهذا المعنى » . كان يبدو متعبا وكأنه يؤجل لبضع لحظات واجب العودة إلى الطريق واستئناف المسيرة . أحس هولينجزورث بضعفه وتردده فمال نحوه فى لهفة . كان الحرمان الطويل قد شحذ حواسه فأدرك بحدسه على الفور أن جيسى يعانى من شعور بالغباء والتبلد والخمول ، وذلك قبل أن يدرك هذا صاحب الشأن نفسه . وكما يعلم المزارع بالمطر قبل قدومه ، شعر هولينجزورث أن جيسى سوف يهجر سباق الدراجات .

تنهد جيسى وقال : « كنت أقصد امرأة عجوزا . صديقة . فتاة » .

سأل هولينجزورث على الفور : « ما اسمها ؟ » سينهك جيسى ويفت

فى عضده حتى تخور قواه فلا يعتلى الدراجات مرة أخرى . سيجلسان معا أمام المتجر كل يوم ويتحدثان إلى ما لانهاية .

- « اسمها جيمايما » .

أحس هولينجزورث أن اسمها وحده يشعل الرغبة فى نفسه .

قال فى صوت ضعيف : « اسم جميل » .

أحس هولينجزورث أن جيسى قد بدأ يسترد قوته ، لكنه كان متعبا من قبل وقد يتغير الحال - عقد هولينجزورث الآمال على هذا .

قال جيسى : « لقد اكتشفت أن العجوز الهارب أبوك » . كان يتطلع إلى الطريق وكأنه يوشك على الانصراف لكنه لم يبرح مكانه . طاف برأس هولينجزورث أنه يتلكأ حتى تجف الطرق وينقشع عنها بخار الماء فأحس وكأنه قد خدع .

قال : « أجل . لقد ترك البيت وهرب » .

تأملا الحقول معا .

أضاف : « إنه مختل » .

قال جيسى : « تقول النسوة السود فى المدينة ، اللاتى يرتزقن من الغسيل فى المغسلة العمومية ، إنه يعيش فى أطلال المستعمرة القديمة التى أفنتها الحمى الصفراء ، ويرددن أيضا أنه لا ينوى أن يبرحها ، وأن بعضهن يفكرن فى اللحاق به هناك - خاصة من يقاسين من سوء معاملة الأزواج أو من العمل الطويل الشاق . هل تعلم أنه يتسلل إلى المغسلة كل يوم فى آخر المساء ، ويتحدث إليهن ويعدهن بأن يطهو الطعام بنفسه

لأى امرأة تقبل أن تعيش معه هناك ، ويؤكد لهن أن المكان قد خلا تماما من الثعابين ، فالنسوة يخشين عودة الوباء لكنه يقسم أنه قد طهر المستعمرة من الثعابين وقتلها جميعا . يقال إن عددا كبيراً منهن يفكرن فى اللحاق به » .

قال جيسى كل هذا فى صوت رتيب هادىء وهو يرقب الطريق ، وكأنه يقطع الوقت بالحديث حتى يستجمع قواه . كان الضباب ينقشع تحت أشعة الشمس الحارقة وأحس هولينجزورث بالعرق يبلل جسده وبالوهن يتسرب إليه وشعر بالدوار ، وكأن المعلومات التى سمعها قد تكثفت على صفحة عقله وتجمعت فى قطرات تصببت منه عرقا كما يتجمع بخار الماء على عدسات المنظار فجأة فى ضباب كثيف يحجب الرؤية .

قال جيسى : « يبدو أنه يعانى من الوحدة » .

انقشع الضباب على الفور .

قال هولينجزورث فى رنة أمل : « سيتجمد من البرد هذا الشتاء » .

هز جيسى رأسه بالنفى وقال : « يبدو لى أنه رتب كل شىء وخطط لحياة جديدة . ستقطع له النسوة أخشاب التدفئة فى الشتاء ، ويروحن عليه بمراوح من أوراق الشجر فى الصيف ، وسوف يعلمهن صيد الأسماك والقنص ونصب الفخاخ فيقمن بكل هذا إلى جانب إنجاب وتربية الأطفال وغسل الملابس » .

قال هولينجزورث وهو يكور يده فى قبضة ويضرب بها كف يده اليسرى : « سنمسك به » . ثم أضاف : « لن تذهب النسوة على أية حال إلى تلك الغابات حيث الظلام والحمى الصفراء . سأذهب إلى المدينة

وأخبرهم أن الحمى مازالت ترعى هناك ، وأن بازبى يرتجف ويبصق دما أسود ويخطرف بعد أن ذهب عقله . لن تذهب النسوة إلى تلك الغابات » .

هز جيسى رأسه مرة أخرى فى شك ثم وضع زجاجة المياه الغازية على الرف ونظر إلى الطريق . جفت مياه الأمطار وبدا الطريق نظيفا لامعا وكأن العاصفة الرعدية القصيرة قد دعكته بفرشاة خشنة . قال : « إنك لم ترهن . العديد منهن يحملن آثار الضرب والصفع فى كدمات وسحجات على وجوههن وأذرعهن وفى أسنانهن المفقودة . إن حياتهن شاقة لا تحمل بارقة أمل فى الخلاص » . ثم أضاف فى نبرات متمهلة ، وكأنه يرى الموقف بوضوح لأول مرة : « أنا شخصيا أعتقد أنهن سيذهبن زرافات وجماعات ، فوباء الحمى الصفراء يهون إلى جانب ما يلقينه من شقاء وما ينتظرهن فى المستقبل » . أدار وجهه إلى هولينجزورث ورفع ساقه فوق الدراجة واعتلاها ، ووضع قدميه فى مشبك الأقدام فوق البدالات واستند بيده إلى سور المدخل الأمامى وقال : « حين يحل شهر يونيو فى العام القادم سيكون لك ما يقرب من عشرين أخاً وأختاً من أمهات أخريات - أراهنك على هذا » .

مضى جيسى بدراجته متثاقلا ، وكأن حرارة الهواء وحدها تعرقل مساره فلا يقوى على مغالبتها . أدرك هولينجزورث وهو ينظر إليه أنه قد بدأ يشعر بالتعب . لاشك فى هذا ، وها هو الخريف يقترب . لقد تعب جيسى وعما قريب سيشعر هو أيضا - هولينجزورث - بالتعب ، وكذلك بازبى والنسوة الملونات فى المغسلة وغيرهم . ستنخفض درجة الحرارة ويصبح الجو معتدلا بعد حوالى شهر ، وسوف يضاعف راكبو الدراجات جهدهم وتزداد سرعتهم . سيتصاعد دخان المدافىء ويتجه الصيادون إلى النهر . وفى الليل ستسطع النجوم أكثر توهجا ولمعانا ،

كما سيصبح نوم الناس أكثر استغراقا وعمقا . تساءل هولينجزورث فى نفسه : ترى أى سرعة يطمح إليها راكبو الدراجات هؤلاء فى النهاية ؟ ألا تكفيهم السرعة التى حققوها ؟ إنهم يسافرون الآن بسرعة رهيبة فيما يرى . إنه لا يفهمهم . من المؤكد أنهم لا يدركون ما يفعلون .

لم يكن جيسى واثقا أن السرعات التى حققها فى نهاية شهر يونيو وبداية شهر يوليو ، والتى لم يستشعرها من قبل ، ستدوم أو إذا كان بإمكانه الحفاظ عليها . كان يجاهد حتى لا يتخلف عن الآخرين دون أن يدرى ما الذى ينبغى عليه أن يفعله ليحتفظ بالسرعة المحدودة التى حققها عند عبور المنحنيات أو صعود التلال . كان يشعر بأن قلبه يدق بقوة وانتظام مثل آلة منطلقة لكنها يمكن أن تتوقف فى أى لحظة ، لكنه كان يجاهد حتى لا ينفصل عن الفريق .

كان هذا العجوز المقدد هولينجزورث يندفع إلى الطريق ملوحا فى بعض الأيام ويحاول أن يستوقفه بحجة فارغة أو أخرى لكنه لم يتوقف ، فالوقت ضيق ، بل ولم ينظر إليه وثبت بصره على الطريق أمامه .

طارت الحمائم وأوغل العام فى سعيه الحثيث نحو النهاية . أتى صحفى إلى المنطقة ليعد تحقيقا قصيرا عن بازبى الذى مازال مفقودا ، وكان يشاع أنه يعيش فى كوخ مهجور متداع فى أعماق منطقة المستنقعات الكثيفة المظلمة ، وأنه قد بدأ يستدرج إلى مخبئه بعض النساء الملونات من كبار السن والخادمات ومن غسالات المغسلة العمومية ، فيذهبن معه إلى الغابات ويقمن هناك . كان يشاع أنه يحبسهن فى حظيرة كبيرة مثل قطيع من الخيول البرية . وهكذا أوغل الصحفى فى الخيال بعيدا عن الحقيقة ، فقد كان الأمر لغزا يلفه الغموض وتكثر حوله الأقاويل والشائعات ، وحين اعتدلت الشمس على مدار السرطان

وازدادت الأيام قصراً ووحشة رفع هولينجزورث المكافأة إلى ١٢٠٠ دولار .

توقف جيسى عن التدريب على سباق الدراجات فجأة . لزم بيته ذات صباح ولم يخرج وحين مر عليه راكبو الدراجات الفرنسية ادعى أنه ليس بالبيت .

***

بدأ يستيقظ متأخرا فى الصباح ويلتهم مقادير هائلة من عصيدة الشوفان ، وأحيانا ، عند الظهر ، يتوقف عن الأكل ويمتطى دراجته ويمضى متمهلا إلى متجر هولينجزورث - كان زملاؤه السابقون يمرون به أحيانا هناك فيتغامزون ويتلامزون عليه ويسخرون منه وهم منطلقون كعادتهم بسرعة فائقة ثم يختفون سريعا ، فيشيعهم بلعناته الصامتة متمنيا أن تحل بهم كارثة ، ويغلق عينيه ليتخيلها حقيقة واقعة فيرى القطيع كله وقد اشتبكت دراجاتهم فسقطوا من فوقها بعضهم فوق البعض كما يحدث أحيانا بسبب تلاصق الدراجات ، ويتصور الألم الذى يصاحب مثل هذه الحوادث ، ألم السقوط والتدحرج مسافة طويلة على الأرض ، واحتكاك اللحم بالأرض وتمزقه على الحصى والصخور الصغيرة .

***

فى الأسبوع التالى لتوقفه سمح لنفسه بزجاجة كاملة من الكوكاكولا جرعها وهو يقف مع هولينجزورث على عتبة متجره . أحس العجوز بالدوار حين رأى حبه الوحيد يقترب ، واستند إلى الجدار حتى لا يسقط . كان صيفا جافا فكثر جلوسهما أمام المتجر وحديثهما عن بازبى . .

قال هولينجزورث : « من الواضح أنه لا يريدنا أن نعثر عليه وقد يقاوم باستماتة أى محاولة للإمساك به » .

نظر جيسى إلى حذائه وتأمله ، وكأنه يحاول أن يكتشف أين صنع .

قال هولينجزورث فى نوبة كرم : « إذا ساعدتنى فى القبض عليه فسوف أعطيك نصيبى أيضا من المكافأة » . لم يجب جيسى وظل يحدق فى حذائه .

نهض هولينجزورث ودلف إلى المتجر مسرعا وعاد يحمل حبلا طويلا سميكا مما يستخدم فى ربط وسحب الماشية . كانت خيوطه ذهبية اللون غليظة ملتفة وطرفه معقودا فى دائرة يمكن أن تضيق وتتسع . قال : « لقد تمرنت على استخدامه » . لم يضف كلمة أخرى بل رفع الحبل ولوحه فى الهواء فوق رأسه فى دوائر تتسع تدريجيا ، ثم قذفه فى اتجاه مسند النشر مما يستخدم فى قطع الأخشاب ، يقف على الناحية الأخرى من الممر المرصوف منتصبا على قائميه كرجل ، وقد وضع هولينجزورث فوقه معطفا وقبعة . انطلق الحبل فى الهواء محدثا أزيزا مزعجا عاليا ينذر بالشر ، واستقرت الدائرة المعقودة فى طرفه حول رأس المسند فابتعد هولينجزورث إلى الخلف سريعا بضع خطوات ، ثم جذب الحبل فضاقت الحلقة حول المسند وهوى إلى الأرض فجذبه هولينجزورث نحوه بأقصى سرعة فوق الحصى .

قال متفاخرا : « أستطيع أن أصطادك بنفس الطريقة ، وأنت تقود دراجتك إذا أردت » .

فكر جيسى فى المكافأة وراقت له الفكرة ، كما فكر أيضا فيما يحدث حين تنقلب الدراجة وهى تجرى بسرعة . تذكر حين انقلبت دراجته ولم

يستطع أن يحرر قدميه من البدالات فظل يتدحرج معها على الطريق وقد التف جسدها المعدنى حوله . لا مفر من هذا أحيانا على أية حال فى تلك الرياضة التى اختارها . قال لهولينجزورث : « يجب أن أنصرف الآن » . كان قد جلس ساكنا دون حركة لفترة طويلة ، لذلك حين وقف لم يندفع الدم من ساقيه إلى أعلى بسرعة فرأى بقعا سوداء أمام عينيه وكاد أن يسقط .

قال هولينجزورث محذرا : « على مهلك » . كان يراقبه بلهفة ، وقد ضاقت حدقتاه ، وتمنى أن يصاب فى حادث حتى يتوقف عن سباق الدراجات .

***

تسلل ضوء القمر من نافذة هولينجزورث وانساب على سريره طوال الليل . كان فى لون الفضة ، وصبغ الأشياء بلونه فبدت شاحبة وكأنها أشباح . رقد هولينجزورث على ظهره وحدق فى السقف حتى نام . أنصت لصفير الجنادب ونعيق البوم ولصوت الصمت أيضا .

كان يفكر فى بازبى . لابد أن يقبض عليه مهما كلفه الأمر . سيجده أينما كان ويجره من ذيله . كان واثقا من هذا ورغم ذلك راوغه النوم ، وكانت دقات قلبه ونبض الدماء فى عروقه تهدر فى أذنيه هدير أمواج المحيط وأحس أن الموقف كله خطأ فى خطأ . إن أباه لا ينتمى إلى تلك الغابات ، بل إنها لا تصلح لسكنى أى إنسان فليس يسكنها سوى الزواحف والأخطار فيما يرى .

افترش القمر بنوره السماء وسطع عاليا فتوارت النجوم . أرهف هولينجزورث أذنيه منصتا إلى أصداء البيت العتيق ، وتحسس الندبة

التى ظهرت على باطن إحدى أصابعه من التمرين على القنص بالحبل ومضى يحدق فى سقف الغرفة .

***

تردد جيسى على المتجر مراراً وتكراراً . كان يشرب الكوكاكولا على مهل دون أن يتصبب منه العرق كعادته فى الماضى .

قال هولينجزورث فور أن سحب جيسى زجاجته من الثلاجة وفتحها : « لنذهب ونصطاد الكلب العجوز » . نطق بهذه الجملة كما لو كان يتحرش به أو يناجيه بأغنية خافتة تدنيه منه دون أن يتحرك . مال نحوه وهو يتأرجح على قدميه وكأنه يميل على زهرة ليستنشق عبيرها ولمعت عيناه بضوء أزرق كعينى مؤمن مثالى حالم . فاجأت جملته جيسى الذى كان يفكر فى الوقت الذى استغرقته الرحلة إلى المتجر بالدراجة وبطء مسيرته ، ويتحسس برودة الزجاجة وبللها ، فلم يدرك للحظة ما يرمى إليه وشعر بالدوار . نظر فى عين هولينجزورث ولاحظ ضوءها الخابى ولونها الأزرق الماحل ، وأدرك أنها اعتادت غيوم الأوهام لا ضوء الواقع الحى الملموس ، ثم ضحك حين حاول أن يتخيل هولينجزورث وهو يجاهد للإمساك ببازبى أو بأى شيء آخر وحده دون معاونة من أحد . إنه لا يصلح إلا لتلقف ما يلقى إليه من فتات الموائد ، والقول بغير هذا ضرب من العبث . تخيل هولينجزورث يحاول أن يقود دراجة وضحك مرة أخرى .

عاود هولينجزورث الحديث فقال : « يمكننا أن نقتسم المكافأة » . جاهد ليبتسم ابتسامة عريضة تكشف كل أسنانه دون أن ينفرج الصفان . تسربت أنفاسه من الشقوق والثغرات بين الأسنان فى صفير يعلو ويهبط

مع نبضات قلبه . لم يكن قد شرب فى حياته سوى الماء القراح ، لذا كانت أسنانه بيضاء ناصعة ، وإن حملت آثار العمر والزمن فبدت ضعيفة متآكلة . أغمض عينيه ، أغلق الجفنين ببطء وإحكام وزرهما ، وكأنه يحاول أن يتذكر شيئا من الأشياء الفطرية البسيطة كالكلام أو كيفية الاحتفاظ بالتوازن أو حتى التنفس . كان يشبه سلحفاة جلست على قطعة من الخشب تستمتع بدفء الشمس .

لم يصدق جيسى أذنيه حين سمع نفسه يقول : « احك لى كل شيء » . قال هولينجزورث مؤمنا على جملته دون أن يفتح عينيه : « أجل . كل شيء » . ثم فتح عينيه ومد يده إلى جيسى بالأموال فى تؤدة بطريقة رسمية ، كما لو كان طفلا يبتاع شيئا لأول مرة فى حياته ويدفع ثمنه نقدا عملة عملة .

فك جيسى رباط حذائه وطوى أوراق البنكنوت نصفين ووضع بعضها فى الفردتين ، ثم حل حزام سرواله ودس بقية الأوراق تحت سطحه الحريرى الأسود الذى ينضح بعرقه . وضعها فى كل مكان – أسفل بطنه وأعلاها وفوق ردفيه ، وكأنه يصنع بها بطانة لسرواله الداخلى الذى انتفخ وغدا أشبه بمشد ضاغط للبطن والأرداف ، وحين انتهى ربط الحزام مرة أخرى بصورة أكثر إحكاماً عن ذى قبل .

بعد ذلك اعتلى دراجته واتجه إلى بيته على مهل . لم تعد تهمه السرعة على الإطلاق . مضى متمهلا ذلك العصر يشق موجات الحرارة التى تراكمت خلال النهار ، ولمح بشائر الخريف على أوراق الأشجار التى تهدلت . كان السكون يلف كل شيء .

حين بلغ البيت حمل دراجته إلى الداخل كعادته ، ثم خلع ملابسه التى بللها العرق فالتصقت بجلده فتهاوت أوراق الدولارات المبتلة إلى

الأرض ، وتناثرت على السجادة كما لو كانت أوراق زهور ذبلت . انفردت طية الأوراق حين هوت وأحس بالدهشة لأول وهلة وهو يراها تتساقط منه على هذا النحو . كان قد نسيها أثناء الرحلة .

***

كان بازبى يشبه قائد الجيش فى ساحة القتال ، أما النساء اللاتى كن يستمتعن بمذاق الحرية لأول مرة فكن أشبه بلاعبى السيرك المفتولى العضلات ، فقد أكسبتهن الحرية من الأوامر والنواهى والضرب والسباب قوة عضلية مفاجئة . كن يمرحن ويثرثرن ويضحكن ويسبغن عطفهن على بازبى . كان يجلس فى سرواله الخاكى القديم فوق شجرته ليحرس المكان ، وحين يتبدى له ما يرهص باقتراب ابنه الأبله الضعيف وصاحبه رياضى الدراجات السابق يقفز من شجرته فينتشر الجمع بين الأشجار الكثيفة ، ويتراجعون إلى معسكر آخر مؤقت أقامه بازبى فى منطقة أبعد .

كانوا حينئذٍ يقفزون جميعا فى النهر وينثرون الرذاذ حولهم وهم يفرون ، وكأنهم حيوانات برية تحررت من الخوف والإحساس الغريزى بالخطر فانطلقت تلعب وتضحك .

كانوا يثقون فى قدرتهم على الفرار ، طالما احتفظوا بقدرتهم على العدو السريع .

كان بازبى يبتسم أيضا وهو يلهث وسط سحب الرذاذ ، وتلمع عيناه وهو يتأمل أثداء النسوة تتأرجح وتطفو فوق الماء وتقفز إلى أعلى حين تندفعن جاريات إلى الشاطىء الآخر ، فيغطى الماء أقدامهن ثم يصل إلى ركبهن ثم إلى خصورهن وهن يتسابقن إلى الهرب من مطاردة ابنه

الوحيد الذى جن جنونه ، وسط صرخات الخوف والفزع من التماسيح ، فقد كن جميعا يخشينها بلا استثناء .

كان بازبى يمسك بسكين فى يد وبعصا مدببة حادة فى اليد الأخرى وتداعبه أحلام البطولة ، فيكاد يتمنى أن يسفر النذير عن هجوم حقيقى .

كان المعسكر الآخر على بعد ميلين داخل منطقة المستنقعات فى مكان وعر لم يرتده أحد من قبل ، كان البعوض هناك أكثر شراسة وعدداً ، كما لم تكن هناك بقعة واحدة من الأرض الجافة ، لكنهم كانوا يجلسون فوق فروع الأشجار ويدلون أقدامهم وينتظرون ، وأحيانا يرون الدبب السوداء تخوض المياه بحثا عن الأسماك ، وأحيانا تمر أمامهم بعض سلحفات الماء . كان هناك أيضا خطر الثعابين التى تكثر فى تلك المنطقة الوعرة لكن النسوة لم يلقين إليها بالاً فقد كانت آثار الضرب القديمة مازالت على أجسادهن ، وكان البعض منهن يتحسسنها حين يرين الثعابين فيتذكرن الماضى ، لذلك فقد بقين جميعا ولم تفكر واحدة منهن فى العودة إلى المدينة .

كن يؤلفن الأغانى ويقنعن أنفسهن بفاعليتها فى طرد الثعابين ودرء شرها ، ويمضين وقتا طيبا رغم المصاعب والأخطار .

كانوا يسهرون الليل بطوله وينصتون لصياح الطيور حتى تزحف بشائر النور على الغابات . كان النور يتسلل شاحبا فى البداية فلا يصدقون أن الليل قد انقضى وأتى النهار . حينئذٍ ينسلتون من الأشجار إلى المياه ويبدأون رحلة العودة إلى معسكرهم فى الأرض الجافة .

وحين يعودون يكتشفون أن هولينجزورث قد رحل هربا من البعوض

ووحشة المكان وخوائه فيشعرون بالرضا ، وكأنهم قد أدوا مهمة ما على خير وجه ، وكأنهم قد حققوا نصراً .

لم يكن لدى أى منهم ساعة يستدل بها على الوقت أو التاريخ فكانوا لا يحفلون بمرور الزمن أو الأيام .

***

قال هولينجزورث : « لقد هرب » .

وصل إلى المستعمرة القديمة وقد تقطعت أنفاسه وبدا فى حالة سيئة ، وقد انحل رباط حذائه وملأت جوربه الأشواك . وجد المعسكر خاويا ليس به سوى الدجاج والزواحف المرعبة المعلقة من فروع الأشجار . قال جيسى : « لعنة الله على هذا » . شعر بعضلات ساقيه تتقلص فانحنى يدلكها إذ لم يكن قد اعتاد المشي . نظر هولينجزورث فى كل الأكواخ المصنوعة من الخشب والأعشاب . كان يرتجف ويردد بالتناوب : « لقد هرب » ، « اللعنة » .

شعر جيسى بآلام فظيعة فى ساقيه فاضطر إلى الجلوس . أقعى كدب فى حديقة الحيوان وقد ضم قدميه وأخذ يهتز بانتظام وهو يحاول أن يفردهما . شعر بالخوف من التماسيح وبالعجز وسط ألم التقلص العضلى ، فقد كان يدرك أن بازبى يمكن أن يتسلل خلفه دون أن يشعر به ويطرق على رأسه بعصاة وكأنه دجاجة ، وفى هذه الحالة لن يستطيع جيسى أن يهب على قدميه ليمنعه أو ليجرى منه .

كان بازبى فى الموقف الأقوى وبيده الأمر والنهى .

صاح هولينجزورث وهو يجرى أصابعه فى شعره الخفيف : « اللعنة . لقد هرب » ، ثم ركل جدران الأكواخ عدة مرات بقدمه دون حماس فقد كان يشعر بالأسى فى تلك اللحظة ولم يشتعل حنقه بعد فلم تصب ركلاته الأكواخ بأى أذى .

اقترح جيسى فى جلسته أن يأكلا الدجاج . قال : « فلنلتهم الدجاجات . لنشويها على النار التى أوقدها بنفسه وننثر عظامها فى أرجاء المعسكر » . كان جيسى لا يزال يحتفظ بنفس الشهية المفتوحة الكبيرة التى تكونت لديه أيام ممارسته لرياضة ركوب الدراجات ، وكان وزنه يزداد بسرعة ، فقد كان يأكل طوال الوقت منذ أن توقف .

استدار إليه هولينجزورث وقال مستنكرا ، وكأن مشاعره قد أهينت بعض الشىء : « إنها دجاجات أبى » .

استمر جيسى فى اهتزازه المنتظم لكنه قال فى نفسه : يا إلهى . إنه مجنون .

اشتد الألم عليه فعاد إلى تدليك ساقيه وهو يهتز .

تحرك النسيم فسمعا صرير الجلود والحبال على الأشجار حين تأرجحت بعض التماسيح الصغيرة فى الهواء . تدلى تمساح ضخم من إحدى أشجار الباتولا على ارتفاع عشرة أقدام من الأرض ، وحين كانا ينظران إليه انقطع الحبل الجلدى الذى يتعلق منه فجأة بفعل الاحتكاك فهوت جثته الهائلة إلى الأرض محدثة ضجة عالية .

قال جيسى وهو ينهض إلى قدميه : « لقد أصبح البعوض لا يحتمل » ، ثم أضاف وهو يعرج فى مشيته وقد انثنى جسده إلى الأمام : « يحسن بنا أن ننصرف » .

لكن هولينجزورث كان قد سبقه وشرع فى تسلق المنحدر الوعر وسط النباتات الكثيفة والأشجار فى اتجاه الحقول المنبسطة بسمائها الساطعة . لمح السماء والفضاء من خلال الأشجار الكثيفة فعرف اتجاه الحقول . كان يشعر برغبة مجنونة فى الخروج من الغابات وأحس بالنار تتقد فى صدره وبحلقه يلتهب وبأنفاسه تضيق .

عاونه جيسى على عبور الحقول وأوصله إلى بيته ، وعرض عليه أن يذهب إلى مدينة « كريستال سبرنجز » التى تبعد ثلاثين ميلا ويستدعى عربة الاسعاف ، لكن هولينجزورث نحى العرض جانبا بإشارة من يده وقال : « ابق معى بعض الوقت . هذا كل ما أريد . سأتحسن بعد قليل » .

أفزعت الفكرة جيسى - فكرة البقاء مع هولينجزورث فى حجرة واحدة ، محاصراً ، يستمع لثرثرته التى لا تنتهى نهاراً كاملا ، وربما أيضا طوال الليل .

قال : « يجب أن أنصرف الآن » . وهرع إلى الباب .

امتطى دراجته . كان وزنه قد زاد فى وقت قصير زيادة مذهلة جعلت ركبتيه تصطدمان ببطنه وهو يحرك البدالات . ورغم ذلك لم يبال ، فقد غمرته موجة جارفة من الارتياح حين تحرر من صحبة هولينجزورث .

كان جزء من نفسه لا يزال ينشد أحيانا ، لفترات قصيرة ، أن يعود إلى سابق عهده حين كان قويا فولاذى العضلات ، سريعا ، يعدو بدراجته فى صحبة أسرع راكبى الدراجات فى العالم - كما كانوا يبدون له . لقد نسى ملامحهم وكل شىء عنهم ، ولم يعد يذكر إلا وهج السرعة

وعنفوان الاندفاع ، وصوت العجلات يقطع الهواء ، وانزلاق قطيع الدراجات حول المنحنيات فى حذق وسلاسة . لكن جزء آخر منه كان قد سأم كل هذا الجهد المتواصل وشعر بالراحة لأنه ابتعد عنه – ولكن لفترة قصيرة فقط .

ليس هناك ما يمنعه من العودة إليه إذا شاء .

ساقاه مازالتا قويتان ، ويمكنه أن يبدأ مرة أخرى فى أى وقت يشاء . وسوف يعود . ستجذبه متعة الرياضة والتجوال والطريق مرة أخرى ، ولن يعارض زملاؤه السابقون فى انضمامه إليهم مرة أخرى ، بل سيرحبون به ويسعدون برؤيته .

دار هذا بذهنه وهو يتدحرج صاعداً هابطاً على التلال الصغيرة والمرتفعات المتدرجة ويتوقف عن تشغيل البدالات ليرتاح حين ينحدر الطريق فتنزلق الدراجة وحدها دون جهد منه .

حين وصل إلى الطريق الجانبى الذى يفضى إلى بيته ، ويغطيه الحصى وتصطف على جانبيه الأشجار ظهر زملاؤه السابقون فجأة بعد لحظات قادمين من جهة الغرب . وحين عبرْوا أمامه على دراجاتهم صرخوا فيه وصاحوا فى وجهه ، وهز كل منهم إبهامه إلى أسفل عدة مرات وكأنه يحاول أن يسلك بالوعة أو أن يصنع ثقبا فى شىء ما . ترددت صيحاتهم لحظة ثم غابوا عن الأنظار .

علت وجهه حمرة الخجل طوال اليوم . أراد أن يختفى عن الأنظار لينسى عاره ، لكنه لم يجد مكانا يختبىء فيه من نفسه التى ظلت تحمل شيئا من ذكرى ماضيه وتأسى لفقده .

رأى فى المنام أنه قد رحل إلى الغابات وانضم إلى بازبى وبدأ حياة جديدة يصارع فيها التماسيح . كان مجرد حلم . وحين استيقظ فى الصباح كان على حاله ، ثقيل الوزن بطىء الحركة مغلولا إلى الأرض .

اتجه إلى المطبخ ونظر فى الثلاجة وبدأ يخرج بعض الأطعمة . دار بخلده أن هولينجزورث قد يرفع المكافأة إذا طلب منه ذلك .

***

كان بازبى يستمتع بطهو الطعام للنساء . سيحل الخريف مبكرا هذا العام وبشائره تعد بأنه سيكون فصلا جافا . اعتادت النسوة بمرور الوقت وجود البعوض حولهن وطنينه الخافت ، كما اعتدن العرى فنبذن الملابس . كان بازبى يجذب فروع الأشجار القريبة من الأرض ويتسلق إلى قممها حيث يجلس القرفصاء مهيمنا على المكان ، يراقب النسوة وهن يثرثرن ويعملن ويمارسن حياتهن فى عرى وسعادة . إزداد عدد النسوة تباعا منذ قدوم أول امرأتين إلى المستعمرة ، فلم تلبث أن لحقت بهما أخريات . اشتركن جميعا فى إصلاح وترميم أطلال المستعمرة القديمة فاقتلعن شجيرات النخيل من التلال المحيطة ، وقطعن أخشابها وجررنها على الأرض إلى المعسكر ، وقمن بترميم أكبر كوخ مهجور فيه وأعددنه ليكون بيتا يأويهن جميعا .

كانت الواحدة منهن بعد وصولها بعشرة أيام ترمقه بنظرات خاصة تعجبه وترضى غروره . لم يشعر أنه فى السابعة والسبعين . انزلق من شجرته إلى الأرض ومشى عبر المعسكر إلى المرأة التى استهوته ، وكانت أضخمهن فالتقط يدها واحتضنها وتحسس ظهرها العريض المكتنز وباطن فخذيها اللذين غطاهما العرق ثم أردافها وهى تتلوى وتضحك فى خجل .

حل الخريف وتغير الجو ، وطوال ذلك الأسبوع تدفقت النساء من المدينة إلى المستعمرة ، يحملن أحيانا مقاعد خشبية من مقاعد الحديقة . كن دائما فى البداية يفزعن لمرأى الأسماك الضخمة والتماسيح المعلقة على الأشجار ، ويحملقن ذاهلات فى سكان المستعمرة وهن يتجولن عاريات وقد اكتست أجسادهن سمرة الأرض ، فيترددن ، ثم تلمح الواحدة منهن امرأة تعرفها بين النسوة فتتقدم فى عجب ودهشة مما ترى وهى لا تصدق أنها قد فرت أخيرا من الشقاء . قد يهب النسيم فى تلك اللحظة فتتساقط الأوراق الجافة التى لونها الخريف بألوان الذهب والبرتقال من أشجار السرو والبلوط والأرز العالية ، وتفرش الأرض حول أقدامهن فتسمع خشخشتها وهى تتكسر تحت خطواتهن وهن يجسن خلالها ويتأملن الأسماك العالية تدور فى الهواء .

وفى المساء كن يجلسن حول النار ويلتهمن الشواء من لحوم التماسيح الطرية السمينة التى يقطر من ذيولها الدهن اللذيذ الساخن فيلمع على وجوههن وأيديهن ، وينساب على أذرعهن فيدهن به صدورهن وظهورهن درءا للبعوض ، ويتنسمن عبير الخشب المحروق الذى يعطر لياليهن ، وينظرن إلى النجوم التى تشرق عليهن فوق قمم الأشجار وظلال الصيد المعلق منها .

حين رأين بازبى لأول مرة يقفز إلى الماء ليطارد أحد التماسيح صرخن فزعا ، وجرين بعيدا وتفرقن فى كل اتجاه بين الأشجار . أما الآن وقد اعتدن المنظر ، فقد أصبحن يتجمعن على الشاطىء قريبا منه كلما صارع تمساحاً ليشجعنه بالتصفيق والتهليل وأغنية صيد التماسيح التى ألفنها من كلمات قصيرة سريعة تكاد تخلو من الحروف المتحركة . فى المرة الأولى خيل لهن أنه قد فقد عقله حين رأينه يقفز فجأة إلى حافة الماء الطينية الرخوة ويتمرغ ويتقلب فى الطين الرمادى

الزلق ، وهو يطعن تمساحا صغيرا طعنات متوالية بمطواته فيثقب جسده بينما يزوم ويزمجر ككلب شرس . التحم الجسدان تماما فلم يعدن يميزن الرجل من التمساح إلا بخيوط الدماء التى تنبثق من بطن التمساح الضخمة بين الحين والحين مع كل طعنة . لكنه بعد أن قتل فريسته واغتسل من الدماء فى المنطقة الضحلة من النهر مشى فى المياه التى بلغت ركبتيه مبتسما وهو يحمل صيده فى ذراعيه . كان أكبر تمساح اصطاده حتى هذه اللحظة فقد بلغ طوله أربعة أقدام . ورغم أنه فقد اثنتين من أسنانه الأمامية فى المعركة تركتا ثغرة كشفت عنها ابتسامته ، فقد كان سعيدا مزهواً برجولته ، منتصبا فى كبرياء الذكر الذى أثبت فحولته وأصبح مهيئاً للقاء أنثاه . لم يكن قد شاهدن منظرا كهذا من قبل .

احتضن إحداهن واتجه إلى الكوخ فتبعته .

دارت الأخريات حول التمساح فى حذر ووخزن جسده بالعصى ، لكنهن أيضا كن ينظرن بين الحين والآخر فى اتجاه الكوخ وقد أرهفن السمع فى انتظار الذروة الأخيرة التى ستختتم لحظات المتعة القصيرة وتنهى المعركة الصغيرة الدائرة بالداخل وتثبت فتوة رجلهن . وبعد قليل وصل الدليل فقد سمعن ثغاء بازبى وهو يصيح كالجدى كما سمعن المرأة أيضا تئن وتصيح كالعنزة . تبادلن النظرات فى عجب ودهشة ، فى اهتمام وترقب .

قالت إحداهن ، وكان اسمها أونيسيمياس ويدللونها أونى : « إن السر يكمن فى ذلك التوت البرى الذى يأكله » .

فردت تاشا : « إن طعمه مر » .

فقالت أونى : « ويصبغ البول باللون الأسود » .

رمقتها الأخريات فى حذر .

***

لم يمتلك جيسى من المال ما يكفى لشراء سيارة أو حتى جرار قديم – لكن الحيلة لم تعوزه فقد ابتاع محرك آلة مستعملة لقطع الحشائش كلفه خمسة عشر دولاراً ، وعثر على بعض ألواح خشب قديمة لم تفسدها الرطوبة فى جرن مهجور ، ثم بحث وفتش حتى عثر على بعض العجلات القديمة ، وتمكن من سرقة « سير مروحة » من سيارة مهجورة وجدها تقف وحيدة فى أحد الحقول وقد تداعت ودب فيها العطن فنبتت الزهور البرية تحت غطاء حقيبتها وسكنت الفئران مقعدها الخلفى . ومن هذه الأشياء المهملة صنع جيسى عربة صغيرة بمحرك للانتقال ، وثبت فى مؤخرتها على عصا من البلاستيك راية برتقالية ترفرف عاليا فى الهواء ليراها سائقو السيارات على الطريق السريع .

لكن الطريق ظل خاويا . انطلق بالعربة عبر التلال فكانت تشهق وتزفر وتسعل صعودا بسرعة ميلين فى الساعة ، ثم تنزلق فى هدوء وهى تهبط فيشعر بريح خفيفة تضرب وجهه . لم يكن يرتدى خوذة ركوب الدراجات وهو يقودها ليستمتع بملامسة الهواء لوجهه .

كانت الرحلة إلى متجر هولينجزورث تستغرق أحيانا ساعة كاملة ، فكان يضع إلى جواره بعض الأطعمة الخفيفة مثل شرائح البطاطس المحمرة ، وبعض ثمار التفاح ويلتهمها فى سعادة وهو يقود عربته .

كان يبدأ رحلته إلى متجر هولينجزورث حين ينتصف الصباح ويحاول أن يعود فى بداية العصر حتى يتجنب لقاء راكبى الدراجات . لكنه فقد اهتمامه بهذا الأمر شيئاً فشيئاً ، ولم يعد يبالى فأصبح يروح

ويجيء على هواه ويلوح لهم فى بشر وسعادة حين يراهم ، لكنهم لم يردوا تحيته أبدا ، بل وأحيانا كان العضو الجديد فى الفريق الذى حل مكانه فى آخر السرب يبصق على رأسه جرعة من ماء زمزميته وهو يعبر سريعا إلى جواره . لكنهم كانوا يختفون سريعا تماما كما يظهرون فينساهم بعد قليل ويغيبون عن ذهنه كما غابوا عن بصره .

غابات من أشجار القطن ، أرانب تجرى ، وحقول . لم ينته الصيف بعد ، وكأنه لن ينتهى أبدا . عطرت رائحة البرسيم الجاف الجو من حوله . كان الصيف فى كل مكان ، والمزارعون يقطعون البرسيم فى الحقول . .

كان يبدو من بعيد وهو يصعد التلال كبقعة متحركة من اللون فى عالم خلا من الحركة ولفه السكون . وقفت الأبقار السوداء ترعى فى الحقول أسفل التلال وخلفها وفوق ظهورها حطت طيور أبى قردان البيضاء فى سكون ، وفى الغابات خلفه ، على فروع الأشجار الميتة جلست الغربان ساكنة تراقبه وتراقب الأبقار فى انتظار مقدم الخريف .

سيصل إلى متجر هولينجزورث ليجد صاحبه العجوز فى انتظاره وكأنه طفل صغير يحتاج والده ويبغى عودته . اتخذت الزيارة طابعا طقسيا لا يتغير . سيلوح هولينجزورث مرحبا فى فتور ويحاول أن يخفى فى قلبه فرحته بمرأى إنسان آخر ، فيرد جيسى بدوره التحية ملوحاً وهو يدلف إلى ممر السيارات الذى يفرشه الحصى ، ثم يزفر بشدة وهو ينتزع نفسه من عربته الصغيرة وبعدها يتجه إلى ثلاجة المياه الغازية .

ويتبع ذلك ضجة انزلاق الزجاجة ثم صوت غطائها وهى تفتح .

ثم يجلسان معا أمام المتجر ويشرع هولينجزورث فى الحديث .

قال وهو يشير إلى الزجاجة التى يشربها جيسى : « لقد شاهدت زجاجة كهذه تنفجر فى يد رجل ، وتغرس شظية من الزجاج المدبب بطول السكين عن آخرها فى بطن ذراعه . والغريب أنه لم يتألم ولم يفعل شيئا سوى أن نظر إليها ، ثم راح يعرضها على كل من يقابله ويشير إلى مكانها ... » .

كان هولينجزورث يتذكر كل الأحداث التى صادفته فى حياته ، وكل التجارب التى مر بها وقد سردها جميعا على مسامع جيسى .

كان جيسى يتململ بعد القصة الثانية أو الثالثة . تحير فى فهم السبب الذى يجعله يضيق بهولينجزورث ولا يطيق أن يمكث قريبا منه ، أو أن ينصت إليه أكثر من عشرين أو ثلاثين دقيقة على أفضل تقدير ، فعند هذا الحد كان يمقت الرجل وصحبته ، لكنه كان دائما يعاود زيارته فى اليوم التالى .

كان أشبه برجل يأكل حتى يمتلىء إلى الغثيان فيتقيأ ثم يعاوده الجوع ، فيعاود الأكل مرة أخرى حتى يتقيأ وهكذا دواليك .

كان يعود كل يوم ليجلس أمام المتجر يشرب الكوكاكولا ويلتهم علب الأغذية المحفوظة المكدسة على الأرفف أيا كانت محتوياتها علبة وراء علبة – أكل علبا من المخللات وعش الغراب ولحم الخنزير والبطاطا ، وكان يدرك بوضوح وكأنه يقرأ عملية حسابية على سبورة أن حياته قد انهارت وتحطمت . كان يقرأ هذا فى حجم معدته التى تضخمت وتهدلت فتدلت واستقرت بين فخذيه المترهلتين . كان يدرك هذا لكنه حار ماذا يفعل .

لقد فقد شيئا ما لا يدرى كنهه كان بداخله يوما ، ولم يعد يعرف أين يبحث عنه .

***

كانت أونى فى الثانية والعشرين ، متزوجة من رجل شرس يضربها ويسىء معاملتها . حين جاءت إلى المعسكر لم يكن الجرح الغائر فى جبهتها قد اندمل أو أزيلت غرز الخياطة منه بعد . كان الزوج قد قذفها بكرسى حين وصفته صدقا لا زورا بأنه « بغل » . كانت الغرز التى توسطت جبينها أشبه بحاجب ثالث بين الحاجبين ولكن دون عين أسفله ، ولم تكن تعلم شيئا عن وباء الحمى الصفراء الذى حصد السكان فى الماضى ، ولا تدرى شيئا عن أعراضه .

فى تلك الليلة انتابتها رعشة عنيفة رغم أنها كانت تنام فى أحضان بازبى ورغم أن الليالى كانت لاتزال دافئة . بعدها بيومين عاودتها الرعشة واستمرت طوال الليل ، ثم عاودتها مرة ثالثة بعد يومين : كانت تزورها كل ثمان وأربعين ساعة تماما ، كما حدث لبازبى ووالده حين هاجمتهما الحمى الصفراء .

كان لون أونيسيمياس شاحبا فى الأصل ، ثم بدأ فى الخريف يصفر مع أوراق الأشجار . كانت الصفرة تزداد يوما بعد يوم أمام أعين النساء ، فأقبلن على أكل توت الكينين بفتور أولا تحول إلى نهم شديد حين رأين أونى تذوى وتذبل .

حين بدأت الدجاجات تضع البيض بانتظام بنت النساء لها عشة من الخوص وسعف النخل . وحين هاجمت الحمى أونى أطلقت النساء الدجاجات لتدلهن على شجيرات الكينين . تفرقت الدجاجات فى اتجاهات

مختلفة بين الأشجار وانطلقت فى شعاب الغابة كسحرة بيض من الأقزام بحثا عن الحبوب والحشرات الصغيرة والتوت البرى الشافى ، وتفرق وراءها بازبى والنساء إلى ثلاثة صفوف يتتبع كل منها دجاجة عن بعد فى انتظار أن تجد المزيد من التوت . فقدت دجاجتان أو هربتا بطريقة ما أثناء الرحلة ، وحين عادوا إلى المستعمرة يحملون الدجاجة البيضاء الوحيدة الباقية وجدوا أن ثعبانا كبيرا من ثعابين القمح قد تسلل إلى قفص الديك وابتلعه ، فلم يعد يرى منه سوى قدميه ، وهما تضربان فى الهواء ، بينما انبعج فم الثعبان انبعاجا واسعا بشعاً واتسعت عيناه الجاحظتان وكأنه يضحك من فرط استمتاعه بالوليمة . قتل بازبى الثعبان وحرر الديك من حلقه لكن الديك لم يلبث أن مات بعد قليل .

حين أخبروا أونى أنهم سيعودون بها إلى المدينة صرخت وبكت وارتجفت حتى سعلت وبصقت دما أسود . التقطت مطواة بازبى ووجهتها نحو صدرها بين ثدييها وأقسمت أن تقتل نفسها إذا حاولوا إرغامها على العودة إلى زوجها « لاشاس » ، لأنه سيقتلها لا محالة عقابا لها على فرارها ، ولهذا فهى تفضل أن تبصق الدم بل وأيضا أجزاء من معدتها وأحشائها على أن تعود . سمحوا لها بالبقاء رغم قلقهم وأطعموها ثمار الكينين المتبقية من المخزون الذى اضمحل وأوشك على النفاد ، وراقبوا النجوم والغروب وهم يأملون فى شتاء قارس جاف وفى صقيع مبكر يجمد الأرض والنهر . لكن الأيام استمرت دافئة رغم ذبول الأوراق وسقوطها فى ميعادها المعهود ، وظلوا كعادتهم دائما يفتشون عن ثمار الكينين ، بل وبدأوا يجربون ثمار شجيرات أخرى ، خاصة تلك التى جربها من قبل بازبى ووالده إبان الوباء القديم منذ سنوات بعيدة . جربوا توت أشجار الأرز ومختلف أنواع عش الغراب ، وجوز أشجار البلوط ، ودهنوا كل جزء من أجسادهم بدهون الأسماك

والتماسيح ولم يتركوا بوصة واحدة منها عارية من الدهون ، وأوقدوا النار الكبيرة مرة أخرى وأبقوها مشتعلة طوال الوقت . ورغم الخطر المحدق بهن رفضت النساء جميعهن العودة إلى المدينة ، خاصة وأن علامات الحمى كالرعشة وبصق الدماء لم تكن قد ظهرت على أى منهن بعد باستثناء أونى . وفى تلك الآونة لاحظت « أوزى » – امرأة بازبى الأولى – أن العادة الشهرية لم تزرها فى ميعادها .

أما بازبى فكان يجلس فى أشجاره ويراقبهن بين الحين والآخر . كان قد توقف عن أكل توت الكينين دون علم منهن حتى يوفر نصيبه لهن . تدلت التماسيح من الأشجار وكأنها خونة شنقوا لأنهم ثاروا على أسلوب حياتهم المألوف . اختفت التماسيح من أحراش النهر فلم يعد يراها ، وقلت الأسماك فى المياه فلم يعد يصطاد الكثير منها ، فالخريف قادم وبعده الشتاء والحيوان يدرك تحول الفصول قبل البشر . ومهما فعل الإنسان فلن يستطيع أن يوقف زحف الخريف ، ومهما حاول فلن يؤخره . ورغم ذلك لم يقلق بازبى فقد كان واثقا إلى حد كبير أن مخزونهم من التماسيح سيكفيهم .

***

كرر هولينجزورث وجيسى المحاولة بعد أسبوع وعادا إلى الأحراش مرة أخرى . حمل هولينجزورث حبله الطويل المعقود فى طرفه كالمشنقة وارتدى حذاء من أحذية رعاة البقر وقبعة من قبعاتهم . سار جيسى إلى جواره يلعق « مصاصة أيس كريم » .

لمحهم بازبى من مكمنه فوق الشجرة فقفز إلى الأرض .

تبرمت النساء وتأففن ورغم ذلك تركن أشغالهن وهربن خلفه إلى أعماق الأحراش بحثاً عن السلامة .

حين بلغا المعسكر قال هولينجزورث : « اللعنة . لقد لمحنا قادمين » .

هز جيسى رأسه مؤمنا على كلامه وقال : « أجل . وحين يرانا يهرب » . لمحا على الضفة الأخرى من النهر الآثار التى تركها بازبى ونساؤه على الطين حين خرجوا من الماء زاحفين على أيديهم وأرجلهم ، وبدا حائط الأشجار الداكن خلف الماء كجدار منيع .

قال هولينجزورث : « عندى فكرة » .

كانا يعرفان أين يحصل بازبى ونساؤه على الأخشاب التى يوقدون بها النار ، فعلى مسافة قريبة من المعسكر كانت الأخشاب الطافية فى مجرى النهر تتجمع على جانبيه فى أكوام عالية تعرقل مساره .

ذهب هولينجزورث وجيسى وعادا بجاروفين وبضع مراتب قطنية قديمة وجداها فى أكوام المهملات ، وحفرا فى الأرض حفرا عميقة واسعة تتسع لدفن عربة أو سيارة من سيارات المدارس .

قال هولينجزورث : « رأيت هذه الحيلة فى فيلم من أفلام طرزان » . اشتعلت النار فى قلبه وتصبب العرق غزيراً من الرجلين . كانت التربة فى ذلك المكان ناعمة غنية كأفضل تربة فى العالم ، كانت سوداء مخلخلة يسهل تحريكها وتقليبها ، ورغم ذلك فقد استغرق الحفر اليوم بطوله بسبب ضعف لياقتهما البدنية . وحتى يبقيا بازبى ونساءه بعيدا محاصرين بين الأشجار رفعا صوتيهما بالغناء .

جلس بازبى ونساؤه على فروع الأشجار فوق المياه يضربون البعوض بأيديهم ، ويستمعون لصوت الرجلين وهم فى حيرة من أمرهم يتساءلون ترى ماذا يفعلان ؟

رفع جيسى عقيرته بأغنية من أغانى الأطفال وهو يحفر وقد ابتلت بطنه الهائلة بالعرق فبدت مثل شمامة كبيرة ، وحين رفع يده ليمسح العرق عن جبينه تلطخ وجهه بالطين والتراب . تذكر قصة عن بعض الرحالة الذين ارتادوا أرضا مجهولة ثم فقدوا عقولهم من فرط عزلتهم فحفروا قبورهم ووقفوا على حافتها ثم قتلوا أنفسهم .

جاوبه هولينجزورث بأغنية مماثلة فى صوت مرتفع كنهيق الحمار .

وجهت النساء نظرات حيرى متسائلة إلى بازبى تطلب شرح وتفسير ما يجرى ، فقد كن يعرفن أن أحد الرجلين ابنه .

قال دون قناعة : « لقد ولد قبل أن يكتمل نموه ، وكان دائما شاذا غريب الأطوار » .

قالت أونى : « إنه يفتقدك ويريدك أن تعود إلى بيتك » .

قطب بازبى جبينه ونظر إلى أصابع قدميه وتشبث فى عناد بالفرع الذى جلس عليه ، وكأن الشجرة قد بدأت تتأرجح وتميل من جانب إلى آخر .

قال : « إنه لا يعرف ماذا يريد » .

حين انتهى هولينجزورث وجيسى من الحفر غطيا الحفر بفروع الأشجار ، ثم نثرا فوقها أوراق الأشجار وبعض الأغصان الجافة وانصرفا .

صاح هولينجزورث فى تلذذ : « سنقتنص القبيلة بأكملها » .

هز جيسى رأسه مؤمنا على كلامه . كان يشعر بالضعف والدوار

ويشك فى قدرته على احتمال رحلة العودة وإتمامها . طاف برأسه المشوش خاطر : ترى ماذا سيأكل بازبى ونساؤه فى وجبة العشاء .

اشتد هجوم البعوض وازداد شراسة وأخذت الشمس تنحدر نحو المغيب وبدأ نعيق البوم يتردد فى جنبات الغابة .

قال هولينجزورث يحثه : « اسرع . هيا . علينا أن نخرج من هنا فورا » .

لكن جيسى لم يرغب فى الرحيل وأراد أن يبقى هناك . شعر بيد هولينجزورث تجذبه من ذراعه فأسلم له قياده .

عاودت الحمى أونى وهم مازالوا فى الغابات الخلفية فوق الأشجار فطفقت ترتجف ، ثم أغلقت عينيها وغابت عن الوعى وسقطت من فوق شجرتها . قفز بازبى من شجرته وحملها بين ذراعيه وضمها إلى صدره بقوة وحاول أن يدفئها بحرارة جسده .

قالت المرأة التى تدعى فيسوفياس : « لقد رحلا » . كان الغناء قد توقف عند حلول الظلام كما توقفت أيضا أصوات الحفر المريبة .

لم تكن الليلة مقمرة فوجدوا مشقة فى العودة إلى المستعمرة رغم ألفتهم بالطريق .

أوقدوا النيران حول أونى فتحسنت حالتها بعد يومين .

لكنهم كانوا يدركون تماما أن الحمى ستعود .

قالت له تاشا فى اليوم التالى : « أرأيت ما فعله ابنك الأحمق هذا ؟ » . كانت قد ذهبت لإحضار بعض الأخشاب فرأت غزالا وقع

فى أحد الحفر . لم يصبه أذى فقد كانت الحفرة مبطنة بمرتبة قديمة ، لكنه كان يقفز عاليا فى فزع وهو يحاول الفكاك من أسره .

سب بازبى ولعن مستخدما كلمة السباب المفضلة لديه والتى علمته إياها أونى حديثا ، وحاولوا إخراج الغزال من الحفرة بالحبال لكنه كان فى حالة من الهياج الشديد ، فلم يستطع أحد الاقتراب منه .

قالت تاشا فى تردد : « يمكننا أن نرجمه » . لكنهم جميعا كانوا يعرفون أنهم لا يستطيعون إيذاء الغزال وهو حبيس فخه هذا ، لا حول له ولا طول .

تألموا لحاله وجلسوا حول الحفرة يفكرون فى طريقة لإخراج الغزال . لكن كل الحلول كانت تتطلب معولا أو جاروفا وتصطدم بهذا العائق ، فلم يكن لديهم أى من أدوات الحفر .

***

ذات مساء مرعب مشئوم لمحوا زوج أونى يتحرك وسط الأشجار قريبا من معسكرهم . كان قريبا إلى درجة الخطر ، يجوس خلال الأشجار الرمادية فى ضوء الغسق الشاحب ، ويدب بقدميه على أرض غاباتهم حاملا بندقية صيد ، وكأنه فى رحلة لصيد السناجب .

اختفوا فى أكواخهم وراقبوه من بعيد ، وهم يتمنون ألا ينظر أسفل التل فيرى معسكرهم والتماسيح المتدلية من الأشجار .

قالت تاشا حين رأته يمضى فى اتجاه واحدة من الحفر : « هيا ، هيا يا صغيرى . حاول أن تعثر على تلك الحفرة » .

راقبوا حركته وقد جمدهم الرعب ، بينما انخرطت أونى فى بكاء خافت . كان شبحه الداكن يتحرك ببطء وحذر ، لكن ضوء الغسق - ذلك الظلام البنفسجى الذى صفى منه النور - كان يخبو سريعا ، وسرعان ما بهت الشبح واختفى فى الظلام . أثناء الليل سمعوا صرخة عالية تبعها صوت ارتطام ثم خيّم الصمت - صمت عميق ساكن لم يعهدوه من قبل .

وبعدها بفترة ترددت فى سمع الليل أصوات نعيق البوم .

كان دفنه أمرا يسيرا فى الصباح . لم تخطر لهم هذه الفكرة من قبل : فكرة إخراج الغزال من حفرته عن طريق إهالة التراب عليها حتى تمتلىء وتستوى بالأرض فلا تعود حفرة .

***

كانوا يقولون لأونى دائما : « ستتحسن صحتك وستشفين » ، وكانت تصدقهم . كانت تصدقهم فى الأيام التى تنقشع فيها الحمى ، وإن ظلت فى الذهن ذكراها .

ليست الحمى قدرا لا يمكن الإفلات من قبضته ، فالبعض قد تغلب عليها وعاش ، والوباء عادة لا يفنى الجميع فالبعض ينجو ، لذلك حين يصيب الوباء البشر فهم لا يرقدون على الأرض ويستسلمون للموت .

كانت تمارس الحب مع بازبى العجوز فى الأيام التى تغيب فيها الحمى . كانت تضحك وتلهو وتضاجعه . كانت تتمرغ على الأرض فى أحضانه وتحاول أن تنسى ما فات وما قد يأتى .

كانت تجز أسنانها بإصرار مستميت وهى تضحك ، وهى تحتضنه

وتتشبث به ، وتغلق عينيها وتحارب ببسالة لتنسى الخطر الذى يتهددها ، لتخلفه وراءها .

***

ذهب جيسى إلى هولينجزورث فى عربته متخذا طريقا خلفيا غير طريقه المعهود . كان الهواء بارداً يبشر بنهاية الصيف بعد طول انتظار ، فأحس برغبة فى الخروج إلى الخلاء والاستمتاع بالريف مرة أخرى . كان يفضل أن يسلك هذا الطريق على دراجته فى الماضى وحده أو مع الفريق حين كان يتدرب على سباق الدراجات ، وكان قد نسى جمال المناظر التى تحف به ومذاقه المنعش . قاد عربته متمهلا عبر نفق من الأشجار تمتد المراعى خلفها فرأى على الجانبين من طرف عينيه مساحات من اللون الأخضر الذهبى تتخللها بقع من الأخضر الداكن ، وتنتثر فى أرجائها الأبقار السوداء الساكنة ، وكأنها رسمت بقلم من الفحم ، وإلى جوارها طيور « أبى قردان » البيضاء . ازداد إحساسه ببرودة الجو حين انحدر أسفل التل ، ومضى ببطء شديد بحذاء الجدول تحت ظلال الأشجار .

ابتسم لنفسه وأطلق صيحة ابتهاج خافتة وهز قبضته فى الهواء . انساب ضوء الشمس إلى الحقول الواسعة خلال الأشجار كدخان بلون الذهب .

كان يحمل سلة مأكولات معه وضعها خلف المحرك فمد ذراعه إلى الخلف وأخذ منها شطيرة ومشروبا معلباً . مضت به العربة فى جلبة عالية تجاهد لاعتلاء التل وتنذر بالتوقف بين الحين والآخر لكنها تتقدم فى طريقها .

***

عادا إلى الأحراش ليفحصا الحفر التى صنعاها والفخاخ التى نصباها فتقهقر بازبى وجيشه من النساء إلى أعماق المستنقعات كعادتهم .

قال هولينجزورث : « كنت أمنى النفس بأننا قبضنا عليهم جميعا » . كانت عيناه شاحبتان ينبعث منهما بريق الجنون ، وأراد أن يصنع حفراً أخرى .

قال لجيسى : « انظر . لقد دفنوا المرتبة » . انحنى على كومة التراب التى ردمت الحفرة وبدأ يحفر بيديه ، لكنه لم يلبث أن توقف بعد برهة قصيرة ونظر حوله ذاهلا وكأنه قد نسى السبب الذى دفعه إلى صنع الحفرة فى البداية .

بدأ بازبى والنساء يشعرون بالغضب لتكرار الهجمات وانتظامها . جلسوا فى الأشجار ينتظرون . لم تقل بعض النساء شيئا لكنهن كن يتمنين فى سرهن أن ينسى هولينجزورث وجيسى مواضع بعض الحفر فيسقطان فى إحداها .

***

جلس جيسى مع هولينجزورث أمام المتجر .

قال هولينجزورث وكأن الأمر قد استرعى انتباهه للمرة الأولى : « إنك قليل الكلام » .

لم يجب جيسى بشىء . كانت الساعة تشير إلى قرب انتهاء العشرين دقيقة التى يقضيها عادة فى صحبة هولينجزورث . كان قد شرب زجاجتين من المياه الغازية والتهم كيسا من البطاطس وسرح ذهنه إلى الماضى ، إلى الأيام التى كان يتمتع فيها باللياقة البدنية ويتدرب على

سباق الدراجات مع الآخرين ، مع القطيع ، وتذكر عناد دراجته وخيانتها فى بعض الأيام وتخاذل ساقيه وخورهما أمام عنادها وانقطاع نفسه ، لكنه تذكر أيضا كيف قاوم وثابر حتى تمكن منها وأسلس قيادها وإن لم يدم هذا إلا لفترة قصيرة .

مر راكبو الدراجات أمامهما . مضوا بسرعة رهيبة يتسلقون التلال بسهولة ويسر فقد كانت دراجاتهم خفيفة من النوع الثمين ، وكان تسلق التلال بالنسبة لهم لا يعدو أن يكون مبررا لاستعراض قوة عضلات أرجلهم . كانت الريح التى تهب فى وجوههم وتصطدم بصدورهم تدفعهم نحو شعور معين ينشدونه : شعور بالانتصار ضد عدو قد يسخرون منه ، وقد يهزمونه وقد يهزمهم ، لكنه يظل دائما عدوا حقيقيا ملموساً إذا قورن بأشياء أخرى كثيرة .

كانوا يطلقون صيحات التشجيع لبعضهم البعض وهم يتسابقون جيئة وذهابا ، ويشتركون معا فى صد الريح ومقاومتها .

***

قال هولينجزورث لجيسى فى زيارته التالية للمتجر بعد عدة أيام : « لقد أعددت العدة » .

كان يتقافز كطفل صغير ويصيح ويغنى : « لقد أعددت العدة ، أعددت العدة لكل شىء » .

لقد تفتق ذهنه عن خطة جديدة . كان لا يفعل شيئا طوال الوقت سوى التفكير فى طريقة لاسترداد ما فقده .

***

اتجه جيسى على دراجته إلى المدينة ليبتاع ما يحتاجانه من عدة ، فابتاع حبلا إضافيا للقنص وحبلا آخر ليتصيدا الفريسة به تحسبا من شراستها وهياجها ، كما اشترى أيضا كمامات من كمامات الكلاب المتوحشة . قاد جيسى دراجته بسرعة ملحوظة لا تتناسب مع سمنته المفرطة .

كان ذلك فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر - بدأت الريح تشتد ووقفت بالات الدريس طويلة مستديرة فى الحقول التى بدت مستأنسة ، متحضرة ، ناعمة منبسطة - أو منسحقة .

وضعا الكمامات على أفواه الكلاب ، وثبتا حول أعناقها أطواقا يتصل كل منها بمقود متين ثم انطلقا بها عبر الحقول عند الغسق حين بدأ نعيق البوم يتردد فى الغابات . حملا معهما مصباحا من مصابيح الكيروسين وبعض الماء والطعام .

عبرا الحقول جريا ، تجرهما الكلاب التى انطلقت عدوا فى لهفتها ، لكنهما حين وصلا إلى حافة الغابات وانحدرا داخلها ، أوقف البعوض زحفهما . ارتفع وحلق فوق رأسيهما فى سحابة داكنة من الطنين ، ثم انقض عليهما هما والكلاب كالأصابع الناعمة . استدارت الكلاب وهى تئن وتنبح خلف كماماتها وقد نبهتها غريزتها إلى خطورة هذا النوع من البعوض ، وظلت تتراجع نحو الحقول وأبت أن تهبط إلى منطقة المستنقعات .

وهكذا اضطر كل من جيسى وهولينجزورث أن ينصبا معسكرهما فى الحقول وسط الرياح على الحشائش الباردة ، وجلسا فى انتظار الصباح .

وصلت إليهما رائحة الدخان المنبعث من معسكر بازبى ، لكنهما عجزا عن رؤية أى شيء بسبب الظلام الكثيف الذى لف الغابات . سطع البدر هلالا فوق قمم الأشجار ، واقترب منهما حتى استطاعا أن يميزا الفجوات وفوهات البراكين على صفحته . شرع هولينجزورث فى الحديث .

تحدث عن برنامج غزو الفضاء وسأل جيسى : أليس هذا أفضل من ركوب الدراجات ؟ تقاسما علبة من النقانق المعلبة ثم استأنف هولينجزورث ثرثرته التى استمرت طوال الليل . ترددت فى الليل حولهما نداءات طائر الخطاف ، وتدافعت الخفافيش حولهما تطير وترتطم بالحشائش قريبا من النار الصغيرة التى أوقداها . كانت تلقى بنفسها إلى الأرض وتتخبط وسط الحشائش ، وقد تهدلت أجنحتها وارتخت وكأنها فى حالة حداد ، ثم تحلق مرة أخرى وتطير مسافة لتعود فتتلوى فى الهواء ثم ترتطم بالأرض فجأة دون أن تصدر عنها صرخة ، وكأن قوة خفية قد شدتها إليها دون إنذار ، وكأن حياتها قد انتهت فجأة . ظلت الخفافيش على هذا الحال طوال الليل ، تحلق حولهما وتطير ثم تتلوى فى الهواء وتهوى إلى الأرض حتى تصور جيسى أنها ، دون شك ، تحاول أن تبلغهما رسالة فحواها : عودا من حيث أتيتما ، عودا من حيث أتيتما .

وبينما كان يحاول جاهدا أن ينصت للغو وثرثرة هولينجزورث طافت بخياله صور زملائه السابقين ، أصحاب الدراجات الفرنسية . ربما كانوا الآن ينعمون بالنوم أو بمضاجعة امرأة ناعمة طرية ، أو بأكل الأيس كريم اللذيذ .

هطل مطر خفيف فى الصباح أيقظ هولينجزورث وجيسى والكلاب ،

فنهضا وتمطيا وحملا عتادهما وتحركا صوب الغابات . كانت الجنادب ترسل صريرها الخافت وسط الرذاذ الرقيق وسحابات البخار التى تصاعدت من الحقول . انطفأت النار وانقشع دخانها . تنسمت الكلاب طوال الليل رائحة بازبى ومعسكره ، فباتت فى حالة من الهياج الشديد . انتفخت صدورها وتقلصت عضلاتها وتشنجت فغدت أشبه ببراميل انتفخت بالتفاح ، أو قلوب انتفخت بالغضب . أخذت تقفز وتتلوى وتقاوم المقاود التى تشدها إلى الوراء وتعوق انطلاقها فجرجرت هولينجزورث وجيسى وراءها ، وهما يلهثان ويتعثران فى الحشائش المبتلة .

كانت الكلاب ترغى وتزبد واندفع الزبد من خلف الكمامات ، من الشفاه المطاطية ، وتبدت عيونها هائجة وحشية . كان من الصعب كبح جماحها فانطلقت من عقالها وتحررت من إسارها ، وانطلقت تعدو فى صمت بسرعة رهيبة لا تضاهيها سرعة أى كائن آخر فى العالم . ازدادت سرعتها واندفعت فى خط مستقيم من الحقول إلى الغابة ، وعمدت إلى المستعمرة القديمة مباشرة دون أن تتوقف لحظة واحدة أو تحيد عن مسارها . لم يحدث من قبل أن وجدت كلاب هدفها بتلك السرعة والبساطة .

***

اشترى جيسى دراجة جديدة بالمكافأة ، دراجة فرنسية سريعة من دراجات السباق لا يكاد سمك إطار عجلاتها يبلغ سمك إصبع من أصابع اليد حين تنظر إليه من الجنب . دراجة لا تجرى سريعا فقط بل تطير . كان لونها أزرق خفيف كزرقة عيون رجل عجوز .

قيد هولينجزورث بازبى بالسلاسل إلى جدار الشرفة الأمامية للمتجر : وضع قيدا حديديا حول كاحليه وأغلقه بقفل يتصل بسلسلة

طولها ثلاثون قدما . أثار المنظر اشمئزاز جيسى ، لكن اشمئزازه من الدور الذى لعبه فى القبض على بازبى كان أكبر ، وكذلك اشمئزازه من حجم معدته الهائل وضمور عضلاته .

عاد إلى ركوب الدراجات مرة أخرى وحده لا بصحبة القطيع .

استرد سرعته كما كان يتوقع بل وازدادت سرعته عن أى وقت سابق وفاقت كل توقعاته وأحلامه . ابتاع لنفسه ساعة توقيت وتسابق مع نفسه وقاس سرعته بنفسه ، وهو يذرع الطرق المألوفة مراراً وتكراراً .

كان أحياناً يرفع عينيه وهو يعبر بدراجته أمام المتجر فيرى بازبى واقفا فى أغلاله ، وقد جلس خلفه هولينجزورث يثرثر كعادته . كان هولينجزورث فى تلك الأحيان يلوح بذراعيه فى هياج شديد .

حدث ذات ليلة حين عاد جيسى من تدريبه أن غيرت الريح اتجاهها وهبت من الشمال البارد بدلا من الغرب الدافىء . كانت ريحا قوية تنذر بالخطر . همست فى أذن جيسى حين دلف إلى الفراش بعد حمامه بما أرقه وأقضَّ مضجعه ، ودفعه إلى النهوض من سريره حيث كان يقرأ ، والخروج إلى الشرفة الأمامية للمنزل ليجلس تحت مصباحها المضىء ويحاول أن يستغرق فى القراءة . لم تكن تلك المرة الأولى التى تهمس فيها الريح إليه هذا العام بما يؤرقه . لكن الهمس هذه المرة كان أكثر إلحاحا .

تساقطت الفراشات من زجاج مصباح الشرفة ولمست كتفيه واستقرت على صفحات كتابه المفتوح ، ودارت ثم طارت تاركة وراءها آثاراً من السحر . اشتدت الريح والتمعت خلف أمواجها النجوم التى

ازدحمت فى السماء فوقه وبرقت . كان بريقها يتحداه ، يسأله إذا كان يجرؤ على مواجهة الحقيقة .

على بعد ميلين من مسكنه ، من كنيسة أعلى التل وسط الأشجار انبعثت ترانيم المصلين . لم ير أضواء شموعهم ، لكنه لأول مرة هذا العام يسمع غناءهم كما يسمعه فى الشتاء حين تسقط أوراق الأشجار ويصبح الجو بارداً هشا تسافر فيه الأصوات بعيداً فى يسر . لم يكن يميز الكلمات . كان يسمع فقط هذا الأنين الحزين الذى يتحول أحيانا فى النهاية إلى تعبير عن المتعة والسعادة .

نهض من جلسته ومشى إلى الفناء الأمامى الذى تفرشه الحشائش الندية ، وقام ببعض التمارين الرياضية لشد عضلات البطن ، وحين انتهى نام على ظهره فوق الحشائش يتصبب منه عرق خفيف ويشد أنفاسا عميقة . نظر إلى النجوم فوجدها أقل بريقا عن ذى قبل ، أو هكذا بدت له فأحس كما لو كان قد خيب آمالها ولم ينفذ ما توقعته منه أو بمعنى أصح ما أمرته به .

حين استيقظ فى الصباح وجد نفسه نائما على جنبه فى الفناء الخارجى على الحشائش كالحيوانات . كانت الريح مازالت تهب وتسرب نور النهار ذهبيا خلال أشجار البلوط التى تحف الجهة الشرقية من حقله .

جلس وقد تصلبت أعضاؤه ، وللحظة لم يدر من هو وأين هو وماذا يفعل . لم يدرك إلا الرياح التى تهب عليه وقد ازدادت برودتها فجأة . ثم تذكر . كان الأمر بسيطا للغاية ، ما عليه إلا أن يركب دراجته ويتدرب على السباق .

***

كان شهر نوفمبر فى أوله ، لم تمض منه سوى أيام معدودة ، لكنه جثم على الكائنات جميعها فأثقل حركتها . كان من المحال أن ينظر الإنسان إلى السماء أو الأشجار ، أو حتى الماشية فى الحقول دون أن يدرك أننا فى نوفمبر . أحس بازبى بالقيد الحديدى بارداً حول كاحليه . أضافت السلاسل التى يجرجرها حين يمشى قوة إلى ساقيه . وقف خارج المتجر فى الشرفة الأمامية المفتوحة ملمحا بارزا يجذب الأنظار ، يستنشق الهواء بعمق فيتخلل أعماق صدره ويشعره بالصحة والرضا . كان يشعر بالفتوة آنذاك ، ويتوق إلى مصارعة التماسيح .

ذات يوم ضرب هولينجزورث وألقاه أرضا وحاول أن ينتزع منه سر المكان الذى خبأ فيه مفتاح القيود ، لكن هولينجزورث ضحك رغم أن ذراعه كانت ملوية خلف ظهره . كان أبوه يجثم على صدره وهو يلهث ولكن فى انتظام بينما يضغط وجه ابنه إلى الأرض . ضحك هولينجزورث وهو يخبر بازبى أنه قد تخلص من المفتاح . ولما كان بازبى يعرف ابنه ووحدته التى سممت نفسه فقد أدرك أنه يقول الصدق .

كانت السلاسل أقوى من أن يكسرها أو أن يحطمها .

كان بازبى أحيانا ينظر إليها ويبكى ويشعر بأنفاسه تختنق فى صدره ، وكأنه يختنق ، وكأن حياته توشك أن تتوقف .

***

كان يراقب الحقول طوال الوقت ويرى جيسى أحيانا يندفع بدراجته على الطريق السريع وينظر إلى ساعة التوقيت التى يحملها فى يده بين الحين والآخر ، وهو يدير البدالات بعنف شديد فيبدو وكأنه يطير .

سمع بازبى هولينجزورث يتحرك وراءه . لقد أتى ليثرثر . أحس بأنه سجين فى زنزانة لا يملك فراراً .

على الجانب الآخر من الحقول كان بازبى يستطيع أن يرى الأشجار يذوب بعضها فى البعض فى هالة ضبابية .

قال هولينجزورث وهو يمهد لحكاية : « أبى » .

قال بازبى لنفسه بمرارة وتهكم : حقا ! وأحس برغبة جامحة فى خنق ابنه .

كم تمنى أن يهرب منه ، أن يفر ويبدأ حياة جديدة حرة !

أرسل عينيه إلى الحقول وتذكر حياته وسط نسائه وتماسيحه ، ومنى نفسه بالفرار قريبا وإلى الأبد .

كان يعلم أنه إذا رحل هذه المرة فلن يعود أبداً .

تموج خيط الأشجار الضبابى الأزرق عند الأفق وانساب أمام عينيه فى بقع كبقع الألوان المائية ، وشعر بالدوار يزحف على رأسه أعلى جبهته . أغلق عينيه وانصت إلى لغو ابنه وهو يخطط ويعد العدة للفرار .

كان الطريق أمامه خاويا حين فتح عينيه . عبر جيسى أمام المتجر كخيط من خيوط البرق واختفى فى لمح البصر ، وكأنه لم يكن .

زر بازبى عينيه حتى ضاقتا وقبض بيديه على جدار الشرفة ، ونظر إلى الأشجار وقطب جبينه ودبر وخطط . كان يبحث عن وسيلة أخرى للفرار .

بيـــت يغـــرق

ت . كوراجِسَّان بويـل

حين انحشر آخر نفس من أنفاس مونتى فى حلقه مصدراً صوتا يشبه صرير باب قديم ، كان أول ما فعلته هو أن فتحت صنابير المياه . انحنت فوقه لحظة لتتأكد من موته ، ثم مسحت يديها على ثوبها وجرجرت قدميها إلى المطبخ . ارتجفت أصابعها وهى تدفع ذراع الصنبور بقوة وتشعر بالماء يندفع ويرتطم بالحوض الخزفى . تصاعد البخار إلى وجهها والتمع الماء وهو يقفز إلى البالوعة محدثاً صوتاً كنقيق الضفادع . أجل .. طالما سمعت هذا الوصف والآن أدركت وجاهته . تركت الصنبور مفتوحا فى المطبخ وعبرت حجرة المعيشة ، وتأرجحت عبر الممر المؤدى إلى حجرة النوم المخصصة للضيوف ، وهناك فتحت الصنبورين فى الحمام الملحق بها ، ثم قررت أن تملأ حوض الاستحمام أيضاً .

جلست لفترة طويلة على المقعد الجلدى الوثير فى حجرة المعيشة تنصت إلى خرير الماء المتساقط . بدا لها نقيا طاهراً كماء المعمودية ، وذكرها خريره الناعم المتصل بجداول فيرمونت الرقراقة وحمامات فندق والدورف الفاخرة ، فأدخل ذلك إلى نفسها السكينة والهدوء . ظلت قطرات الماء تنساب وترسل أنغامها وخريرها فى جنبات المنزل حتى

طردت أشباح الصمت الرهيب الجاثم فى حجرة النوم فوق جثة الزوج الهامدة .

تولى العصر . وحين انحدرت الشمس وأوشكت أن تغوص فى تعريشة أزهار الأوكالبتوس السامقة ، تحاملت على نفسها ونهضت أخيراً من جلستها الطويلة . مشت بخطوات ثقيلة نحو باب البيت الخلفى وقد نكست رأسها وبدت ذراعها متخشبتين تتحركان إلى جانبيها بصعوبة . دلفت من الباب ، وعبرت الساحة الأمامية للمنزل إلى حيث توجد رشاشات الحديقة . انحنت وفتحتها . سعلت الرشاشات وانطلقت منها دفقات حادة متقطعة من الهواء المحمل بالرذاذ . « ضغط المياه ضعيف » – كانت تفهم هذا على الأقل . لكن الرشاشات لم تلبث أن استردت أنفاسها بعض الشيء فأرسلت فى الهواء سحبا من الرذاذ الضعيف . تركت خرطوم المياه مفتوحا فى حديقة الورد وعادت إلى البيت . عبرت غرفة المعيشة والمطبخ وغرفة النوم الرئيسية . لم تلق نظرة واحدة على مونتى . لا . لن تنظر إليه الآن . لم يحن الوقت بعد . دلفت إلى الحمام الرئيسى . كان تدفق المياه ضعيفا .. مجرد خيط رفيع من الماء . لكنها تركت الصنابير مفتوحة على أى حال ، ثم شدت سيفون المرحاض وثبتت عوامته لأسفل بقالب الطوب الذى كان مونتى يسد به الباب . وأخيراً انحنت وقد نال منها التعب حتى كادت لا تقوى على رفع ذراعيها وفتحت صنبور دش الاستحمام .

***

بعد أسبوعين من وصول عربة الإسعاف لتحمل جثة جارها العجوز ، كانت « ميج تيرويليجر » تؤدى تمريناتها السويدية على بساط صغير فى الحجرة المشمسة المجاورة للحديقة ، وبجوارها فى منفضة

على الأرض سيجارة مشتعلة من النوع المعطر برحيق النعناع ، بينما تنبعث من سماعات ضخمة فى أركان الحجرة أحدث تسجيلات فرقة « ساندى آند ذى شاركس » (أى ساندى وأسماك القرش) . كانت « ميج » فى الثالثة والعشرين ، وكانت تشبه أطفال الإعلانات فى دقة تكوينها واتساع عينيها ونظرتها المحملقة الخاوية . كان شعرها الأسود قصيرا من الجانبين طويلا من الأمام ، وكانت تظلل جفنيها بظل جفون أسود لامع لتبرز النظرة الجائعة فى عينيها . كان عليها أن تذهب بعد نصف ساعة إلى الحضانة لإحضار طفلتها « تيفانى » ، وبعد ذلك تصحب الكلب إلى الطبيب البيطرى ، ثم تحمل قمصان زوجها « سونى » إلى المغسلة ، ثم تذهب إلى السوق لتبتاع بعض أوراق الكسبرة الطازجة وبعض العجائن ورطلاً ونصف رطل من لحم سمك القرش ، ثم تعد فطائر محشوة للعشاء . كل هذه المهام تنتظرها . أما الآن فهى تسترخى وتقوم بتمريناتها السويدية .

سحبت نفساً عميقا من سيجارتها ، وانثنت لتمسك بقدمها اليمنى وشدتها حتى التصقت بإحكام بردفيها . أبقتها لحظة هناك ثم أطلقتها لتشد القدم اليسرى . أعادت التمرين مرات وهى تستند إلى الأرض بكف مفرودة وتهز رأسها على إيقاع الموسيقى ، ثم توقفت لتعيد إشعال سيجارتها . لم تنتبه إلى رطوبة البساط إلا حين استدارت على ظهرها لتؤدى تمرين رفع الساقين المفرودتين .

اندهشت . نهضت وركعت على ركبتيها ومدت يدها لتتحسس البقعتين الرطبتين على سروال التمرين عند ردفيها . رفعت طرف البساط وقد ظنت أن الكلب قد تبول تحته ، لكنها لم تشم رائحة بول . دققت النظر فوجدت أن الأرض الأسمنتية العارية تحت البساط قد اكتسبت ظلالا داكنة وكأن مياه الأمطار قد تسللت إليها ، كما يحدث فى

الشتاء أحيانا . لكننا لسنا فى فصل الشتاء . إننا فى ذروة الصيف فى مدينة لوس أنجيليس والسماء لم تمطر منذ شهور طويلة . نهضت وهى تلعن « سونى » الذى وعدها بأن يغطى الأرض بالسيراميك ورغم ذلك لم يكلف نفسه الذهاب حتى الآن لرؤية البلاط الذى اختارته ، بعد أن ذرعت المدينة طولا وعرضا بحثا عن أفضل سعر لهذا التصميم الإيطالى المزين بالزهور . دفعت الباب المنزلق جانبا بعنف وخرجت إلى الفناء لتستطلع الأمر .

ما أن خطت خطوة على حشائش الحديقة التى أتت من جزر برميودا حتى أحست بها تغوص فى الوحل تحت حذائها المطاطى . تقدمت والشمس فى عينيها ، ونباح كلبها كوينى ينبعث متصلا من خلف السياج المحيط بحمام السباحة كأنما أصابته لوثة . قبل أن تكمل الخطوة الثالثة كان الحذاء قد ابتل تماما . ترى هل ترك « سونى » خرطوم المياه مفتوحا ؟ أو ربما « تيفانى » ؟ تقدمت وهى تنتزع خطواتها من الوحل عبر الحشائش والأزهار التى تناثرت عليها قطرات المياه لتفحص الخرطوم . وجدته متكوراً فى مكانه بريئاً من أى ذنب ، ووجدت الصنبور مقفولا بإحكام . علا نباح « كوينى » أوكتافا كاملا (أو ثمانى درجات موسيقية كاملة) وأصابها الحر بالدوار . لابد أن الحرارة قد وصلت إلى خمس وتسعين درجة فهرنهايت ، أو ربما مائة درجة . رفعت عينيها وحدقت فى السماء الصافية ، ثم انحنت ، وأخذت تفحص على التوالى كل رشاشات الحديقة .

تذكرت جارتها المسنة فجأة وهى تنقب وسط الزروع والنباتات الكثيفة لتتأكد من عدم وجود رشاش مفتوح .. اسمها « ميوريل » .. أجل .. تذكرت . تلك المرأة التى كان زوجها يحتضر وكانت ظروفها صعبة عموما .. من المحتمل جدا أنها نسيت خرطوم المياه مفتوحا .

شبت « ميج » على أطراف أصابعها ، ونظرت فوق السياج الخشبى الأحمر الذى يفصل حديقتها عن حديقة جارتها . وجدت أمامها حديقة غمرتها المياه البراقة ، تلتمع فى ضوء الشمس الباهر وقد حفتها صفوف من زهور المجزاعة وعصفور الجنة والدفلى والبشملة فى ألوان زاهية متعددة .

كان الماء يتدفق من الرشاشات وكذلك من الخرطوم . تسمرت « ميج » فى مكانها لحظة طويلة كالمنومة ، وقد استغرقتها تماما حركة الأضواء المتراقصة على المياه وعلى سحابات الرذاذ الدائرية الهائمة . كانت تتأمل معنى الشيخوخة ، وتحاول أن تتصور حالها إذا فقدت زوجها « سونى» بعد أن تكون « تيفاني » قد كبرت ورحلت عن البيت . أدركت أنها حينئذٍ قد تنسى بدورها أن تغلق رشاشات المياه .

ومرت اللحظة . كانت الحرارة قاتلة والكلب فى حالة هياج شديد . أدركت « ميج » أن عليها أن تحل مشكلة الحديقة التى غرقت فى الأوحال والبلل الذى أصاب أرض الحجرة المجاورة لها ، لكنها لم تجرؤ على مواجهة جارتها العجوز . ماذا تقول لها ؟ هل تقول : أعلم أن زوجك قد مات ، والبقية فى حياتك ، ولكن هلا تفضلت بإغلاق الرشاشات ؟ ربما كان من الأفضل أن تتصل تليفونيا ، أو أن تنتظر حتى يعود زوجها وتدعه يعالج الأمر بنفسه . هكذا كانت تفكر وهى تتراجع عن السياج الخشبى وتغوص فى الوحل حتى كاحليها .

***

حين دق جرس الباب كانت « ميوريل » تحملق شاردة فى غلاف عدد قديم من مجلة « ناشيونال جيوجرافيك » (الجغرافية الوطنية) ملقى

على منضدة القهوة تعلوه طبقة سميكة من التراب . كان الغلاف يحمل صورة لصحراء نائية يختلط فى رمالها اللون الأصفر بالبيج ، وتمتد حتى الأفق فى تعرجات وتموجات جعلتها أشبه ببحر قاحل عقيم . مات مونتى ودفن . أما هى فكانت قليلا ما تأكل وقليلا ما تنام . تركت بطاقات التعزية دون أن تفتحها على منضدة فى المطبخ الذى فاض حوضه بماء الصنبور المنهمر ، فطفق الماء يتدفق منه على الأرض بإلحاح وإصرار وكأنه يكفر عن ذنب ما . فى هدأة الفجر أو سكون الليل كانت تستطيع أن تميز أصوات الصنابير المختلفة ، وإيقاعات تدفقها المميزة المتباينة وهى تنساب وتنهمر وتأتيها من أركان البيت البعيدة . فى تلك السويعات المعلقة بين الليل والنهار كانت أذناها تميز قرقرة المياه الهادئة فى مرحاض غرفة الضيوف ، والتموجات الموسيقية لمياه حوض الاستحمام وهى تنهمر فى شلالات فوق حافة سدها الخزفى ، وصوت اندفاع المياه فى ردهة البيت وهى تنطلق مسرعة وتهوى كنسخة مصغرة من شلالات نياجرا فى فوهة فتحة التهوية فى الأرض . كانت تسمع ارتطام قطرات الماء بالحوض فى الحمام الرئيسى ، وتسمع فحيح الدش البعيد ، وتطرب لأزيز الرشاشات العذب الذى لا ينقطع فى الحديقة الخلفية .

نهضت بصعوبة من مقعدها وهى تجز أسنانها من الألم المبرح أسفل ساقيها ، وتحاملت على قدميها المبتلتين المتعبتين وخاضت فى المياه متجهة إلى الباب . لاحظت أن البساط قد ابتل تماما وتشبع بالمياه كقطعة من الأسفنج فغدا لونه أسود . وفى ذلك الجانب من نفسها الذى يهوى النظام والترتيب أحست بالندم . لكن معظم المياه كانت تتسرب إلى فتحات التدفئة ، وإلى الشقوق التى ظهرت فى الأركان لأن مونتى أساء تقدير زاوية أرضية البيت . سمعت قطرات الماء تتساقط فى مكان

ما تحت البيت ، وللحظة تخيلت صورة الماء وقد تحول إلى أمواج ساكنة مظلمة فى بحيرة تلفها الظلال وتتأرجح على سطحها سفينة مثقوبة توشك على الغرق . دق جرس الباب مرة ثانية . غمغمت بصوت خفيض ، « نعم . انتظر . إننى قادمة » .

رأت أمامها على عتبة الباب فتاة تحيط بعينيها هالات سوداء . بدا وجهها مألوفا لها دون أن تعرف أين رأتها من قبل ، ثم تخيلت لوهلة أنها رأتها فى برنامج تليفزيونى يصور فتاة من فتيات الليل تثور على أحد قوادها وتقتله لتحرر كل فتيات الليل فى المنطقة ، اللاتى ظهرن فى البرنامج بنفس ملابسها الجلدية وظلال عينيها السوداء . لكن ميوريل ما لبثت أن تبينت خطأها حين تكلمت الفتاة . « أهلا » ، صاحت الفتاة . لاحظت ميوريل أن حذاء الفتاة ملطخ بالوحل . « إننى جارتك . اسمى ميج تيرويليجر » . نظرت الفتاة إلى حذائها الملطخ بالطين . « أردت فقط أن أبلغك أننا .. أعنى أنا و« سونى » .. سونى هو زوجى .. أردت أن أبلغك أسفنا لما أصابك .. ترى هل تعرفين أنك تركت الرشاشات مفتوحة فى الحديقة الخلفية ؟ »

حاولت ميوريل أن تبتسم . كانت تعلم أن اللحظة تقتضى الابتسام لكنها لم تفلح ، فحين فتحت فمها انحسرت شفتها العليا عن أسنانها فيما يشبه الامتعاض .

لاحظت الفتاة الآن حالة البساط فى الردهة وخف ميوريل المشبع بالمياه . ارتسمت الحيرة على وجهها وربما بعض الخوف أيضا . كم تبدو صغيرة ! كان لميوريل صديقة صغيرة فى يوم من الأيام . كانت طالبة فى الكلية المشتركة ، وكانت تتردد على البيت قبل مرض مونتى وتحمل معها مسجلاً وتسألهما عن طفولتهما ، وعن ذكرياتهما عن وادى

سان فرناندو حين كان مجموعة من الطرق الترابية وأشجار البرتقال . كانت تسمى هذا بالتاريخ الشفاهى . حاولت ميوريل أن تهدأ من روع الفتاة فقالت : « لابأس . لا بأس » .

قالت الفتاة وهى تتراجع مبتعدة عن الباب : « لقد أردت فقط ... هل هناك مشكلة فى مواسير المياه ؟ » ، ثم أضافت « إن سونى ... » ، لم تكمل جملتها بل خفضت رأسها فى وجل وهبطت درجات السلم سريعا ، لكنها حين وصلت إلى ممر الحديقة استدارت وصاحت : « أرجوك أن تغلقى الرشاشات . إننى أعنى هذا . لقد غطى الماء كل شىء .. تسرب إلى الحجرة المجاورة للحديقة فى بيتى .. إلى كل مكان » .

رددت ميوريل مرة أخرى : « لابأس .. لابأس » وحين مضت الفتاة أغلقت الباب .

***

قالت « ميج » : « إنها مجنونة . مجنونة تماما . صدقنى . لقد فقدت عقلها تماما » . كانت تحدث زوجها وهى تقلى شرائح السمك وتخلطها فى المقلاة بالفلفل الأخضر الحار والفلفل الأحمر الحلو المذاق ، وشرائح البصل وأوراق الكسبرة الطازجة . كان سونى فى الثامنة والعشرين من عمره ، وكان مولعا بعمله كسمسار عقارات إلى درجة الانتشاء فكان يترك المنزل مبكرا ويؤجل قراءة صحيفة الصباح حتى عودته فى المساء . كان يجلس الآن مسترخيا فى ركن الإفطار ، يحتسى كأسا من الفودكا والتونيك ويقرأ صفحة الرياضة . كان شعره الأشقر مقصوصا على الطريقة الحديثة التى كان يُطلق عليها يوما طريقة الشعر المفلطح أعلى الرأس . لكنه كان قد بدأ فى التساقط وخفت كثافته . أما وجهه

البشوش الجذاب فقد غزته علامات السن ، رغم مظهره الطفولى ، فظهرت التجاعيد حول عينيه وكأنها ضريبة سنوات السعى اللاهث وراء المال . كانت تيفانى تلعب فى حجرتها فى هدوء بدميتين صغيرتين لا يزيد طول الواحدة منهما على ست بوصات ورغم ذلك فقد بلغ ثمن الواحدة خمسة وستين دولاراً .

قال سونى وهو يجذب دون وعى السلسلة الذهبية المعلقة حول عنقه : « من تعنين ؟ »

ردت ميج فى غضب : « ميوريل . جارتنا المسنة . ألم تسمع شيئا مما قلت ؟ » أطفأت الموقد بحركة غاضبة من رسغها ، وأغلقت وعاء الطهو بعنف وخطت نحوه عبر المطبخ بقدمين عاريتين وهى تقول : « لقد أغرق الماء أرض الحجرة المجاورة للحديقة . ألم تسمع » . وأضافت حين وصلت إليه ووقفت أمامه فى حزم : « لقد تلف البساط . أو كاد . أما الحديقة ... » .

وضع سونى الصحيفة على المنضدة بعنف وقال : « سمعت . ألا يمكنك أن تدعينى استرخى دقيقة واحدة ؟ »

بدلت ميج صورتها من الحزم إلى الرجاء ، فنظرت إليه بعينيها الواسعتين الجذابتين وخصلات شعرها المبعثرة على جبينها ومطت شفتيها . كانت صورتها هذه تنجح دائما فى التأثير على زوجها . غمغمت فى رجاء : « إنها دقيقة واحدة . لن يستغرق الأمر أكثر من ذلك . أريدك فقط أن تنظر إلى الحديقة الخلفية » .

أخذته من يده وقادته عبر غرفة المعيشة إلى الغرفة المجاورة للحديقة . وهناك وقف لحظة يتأمل البقعة المرطوبة فى أرضها

الأسمنتية . أما هى فقد ذهلت لاتساع حجم البقعة الذى تضاعف ثلاث مرات عما كان عليه فى العصر ، كما تغير شكلها أيضا فنبتت لها أجنحة وأرجل عديدة ، وبدت وكأنها نسخة مكبرة من البقع العشوائية التى تستخدم فى الاختبارات النفسية التى ابتدعها عالم النفس هيرمان رورشاخ لقراءة الشخصية . نظرت إلى البقعة ورأت فيها صورة فراشة أو لعله غراب أو خفاش محلق ، وتساءلت : ترى كيف ستراها ميوريل إذا نظرت إليها ؟

حين فتحت الباب انطلقت منها صيحة اشمئزاز ، فقد زحفت كل ديدان الحديقة إلى العتبة لتموت هناك . أما الحديقة فلم تعد مشبعة بالماء فقط كما كانت من قبل بل غمرتها المياه ، وكونت بركاً وسطها فبدت كالمستنقعات . تمتم سونى بعبارات الحسرة وهو يغوص بحذائه الثمين فى الطين . خاض فى الأوحال بصعوبة وقد غطى الطين قدميه بطبقة سميكة حتى وصل إلى السياج الخشبى الذى بدأ ينهار ويغوص فى الطين هو الآخر فمالت قوائمه كالسكارى وتقوست أخشابه . التفت صائحا إلى ميج التى منعها اشمئزازها من الديدان من مصاحبته فبقيت عند الباب : « هل رأيت هذه المصيبة ؟ إن السور اللعين يتداعى ! »

وقف أمام السور برهة ، والماء يتسرب داخل حذائه وقد ارتسم الذهول على وجهه . كانت ميج تعرف تماما هذا التعبير وتدرك معناه فقد رأته يزحف إلى وجهه من قبل عند الصدمات والأزمات . رأته مثلا حين فتح فاتورة الهاتف مرة واكتشف وجود مكالمات غامضة إلى مدن بعيدة ، إلى بيلينجز ومونتانا وجرينليف والمسيسبى تكلفة كل منها عشرون دولاراً ، ورأته مرة أخرى حين اتصل به أحد العملاء فى اليوم المحدد لإتمام صفقة بيع ليخبره أنه قد تشاجر مع صاحب العقار الذى كان ينوى شراءه واعتدى عليه ، ثم طلب منه أن يقرضه خمسمائة دولار

ليدفع الكفالة . كانت مثل هذه الأحداث العادية تبدو له غريبة فى كل مرة ، وتصدمه فى كل مرة . كان يشعر إزاءها وكأن عالمه المنظم المرتب الذى درسه بعناية ورسم حدوده بدقة ، وأحبه بعمق قد ثار عليه وكشف عن وجهه القبيح ، عن الإهمال المتأصل فيه وغياب المنطق العقلانى وسوء التقدير العملى . راقبت ميج ملامح الذهول على وجهه وهى تتحول إلى غضب عارم وإحساس بالظلم الفظيع ، ثم تبعته عبر حجرات البيت إلى الباب الأمامى وعبر الممر الأمامى إلى فناء بيت ميوريل ، ورأته يتقدم بخطوات صارمة إلى الباب وينهال عليه طرقا على طريقة جنود الجستابو .

لم يستجب أحد للطرقات .

ألقى إليها نظرة غاضبة من فوق كتفه وقال : « أولاد الكلب » وكأن لها يدأ فيما حدث . ترامت إلى أسماعهما من الداخل أصوات الدراما المائية المحتدمة – أصوات مختلطة لمياه تجرى وقطرات تتساقط وقرقرة وفحيح وأزيز . التفت سونى إلى الباب مرة أخرى ، وانهال بقبضته عليه حتى خيل لميج أنه يوشك أن يحطمه فقد رأت بعينيها ألواحه الخشبية تقفز من مكانها تحت طرقاته .

فاجأتها ثورة زوجها العنيفة وتملكها الخوف . إنهما أمام مشكلة بلا شك ، وهى سعيدة لأنه يحاول أن يعالجها . ولكن هل يستدعى الأمر كل هذا العنف ؟ كل هذا الغضب المجنون ؟ قالت وقد ركزت بصرها على عضلات كتفه المنتفخة وقبضته التى تعلو وتهبط فى طرقات وحشية : « لا داع لأن تحطم الباب . اهدأ يا سونى أرجوك . إنها مسألة بسيطة . استحلفتك بالله أن تهدأ ! »

استدار سريعا وواجهها صائحا : « مسألة بسيطة ! هل رأيت ما حدث للسور .. بعد قليل ستجدين أساس المنزل يتحرك تحتنا .. ستجدين المنزل بأكمله ... » لم يكمل جملته فقد أدرك من تعبير وجه ميج أن ميوريل قد فتحت الباب .

كانت ميوريل ترتدى نفس الروب المنزلى الأزرق الماحل ، ونفس الخف المبتل . كانت قصيرة عريضة المنكبين ذات صدر ضخم هائل ، فبدت وكأنها توشك أن تفقد توازنها وتندلق إلى الأمام لولا أن تعلقت بإطار الباب . حدقت فى وجه سونى دون أن يعكس وجهها الجامد أى تعبير . استدار سونى بعنف ليواجهها لكنه تجمد فجأة حين رأى حالة البيت فى الداخل . كانت الحوائط قد تشربت المياه ، فظهرت عليها بقع طويلة مدببة ، وكأنها أصابع تمد مخالبها لتمسك بالسقف ، بينما أخذت قطرات من سائل فى لون القهوة تنساب فوق عتبة الباب ، وتتجمع فى بركة بنية تحت قدميه. كان صوت اندفاع الماء فى الداخل واضحا لا تخطئه أذن حتى من حيث كانت تقف ميج . قالت ميوريل فى صوت ذبل تماما : « نعم . هل من خدمة ! »

لم يجب سونى على الفور بل وقف مبهوتا للحظة . قرأت ميج مشاعره فى عينيه . كان يشعر بالذهول والعجز التام حيال الموقف ، حيال هذه المرأة التى تسعى لهدم بيتها عامدة متعمدة ، حيال الصنابير المفتوحة عن آخرها وأخشاب الأرضية التى التوت وتقوست والحوائط التى تلفت . لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وقال : « الماء .. إنك ... إن سور الحديقة .. أعنى .. هذا حرام . يجب أن تكفى عن هذا ... » .

شدت المرأة العجوز قامتها وتشبثت يداها بحزام روبها فى عصبية حتى برزت عظام مفاصل أصابعها من شدة التوتر . نظرت أولا إلى

ميج التى كانت تقف بعيدا فى ركن الحديقة ، ثم حولت عينيها إلى سونى وقالت : « الماء ؟ أى ماء ؟ »

***

ذكَّرها الشاب الواقف على الباب بزوجها مونتى . كان به شىء منه . ربما كانت عيناه أو شكل أذنيه أو أسلافه المقصوصة الدقيقة . لا يهم فمعظم الشباب يذكرونها بمونتى ، بمونتى كما كان فى شبابه منذ خمسين سنة ، بمونتى الذى فتح أمامها أبواب الحياة على مصراعيها وهو ينطلق بها فى سيارته الفورد من طراز « أ » ، لا بذلك الرجل المسن الحاد الطبع الضيق الصدر ، السليط اللسان الذى كان يوجه إليها أقذع السباب ويكيل لها اللطمات . آه من مونتى ! حين أصابته جلطة المخ أحست بشىء من الفرح والشماتة . وحين رأته فى المستشفى مكبلاً بالأنابيب والخراطيم انتابها شعور غريب . حملته إلى البيت ورعته وكأنه الطفل الذى كانت تحلم به ولم تنجبه أبدا . كانت تغير له وعاء التبول والتبرز بانتظام ، وتطعمه من معلبات طعام الأطفال الرضع وتحدق فى أقبية عينيه المظلمتين . أدركت حينذاك أن عذابها قد انتهى . خمسون عاما من العذاب . لن تتحمل بعد الآن ثوراته المخمورة ، لن تراه يقذف بأوعية الطعام إلى الحائط ، ولن يضغط لحمه الممروز جسدها مرة أخرى . لقد أصبحت الطرف الأقوى .

ذكَّرها الشاب الثانى هو الآخر بمونتى . كان مكسيكياً قصيراً ربع القوام له شارب رفيع كأنه خط مرسوم بقلم أسود ، وعينان صغيرتان محمرتان يلتمع فيهما الخبث . لم يكن يشبه مونتى فى تقاطيعه وإنما فى هيئته ومشيته المختالة ، وصدره المنفوخ ، وأيضا - بالطبع - فى زيه الرسمى ، فقد ارتدى مونتى الزى العسكرى أثناء الحرب .

سألها الشاب المكسيكى : « هل أنت مسز برجس ؟ »

وقفت ميوريل أمام الباب المفتوح . كان الوقت بعد الغروب وقد انكسرت حدة الحرارة ، وكأن السماء بها منظم آلى لدرجات الحرارة .

كانت قد جلست فى الظلام فترة بعد انقطاع الكهرباء - غالبا بسبب تسرب المياه إلى الأسلاك . هزت رأسها بالإيجاب رداً على سؤال الشرطى .

قال : « لقد تلقينا شكوى ضدك » .

ذكرتها عيناه الصغيرتان بعيون الخنازير . شكوى . **لقد تلقينا شكوى ضدك** . إنه يحاول أن يخدعها لكنه لن ينجح ولا للحظة واحدة . إنها تعرف جيدا ما يرمون إليه جميعا - الشرطة وجارتها الشابة وزوجها الشاب . إنهم يريدون أن يعيدوا مونتى إليها ، ويجلسوه على الفراش مستنداً إلى ظهر السرير ويثنوا ساقيه تحته ويعيدوا إليه صوته المدوى . أجل إنها تدرك مرماهم ولن يفلحوا فى خداعها .

مشت وراء الشرطى وهو يتجول فى البيت المظلم من صنبور إلى صنبور ، ومن حوض المطبخ إلى حوض الاستحمام إلى الدش ، ويغلق الصنابير بإحكام ويصفى المياه من الأحواض ، ثم تبعته إلى الحديقة حيث أغلق رشاشات الحشائش وصنبور خرطوم المياه .

سألها قبل أن يرحل : « هل أنت بخير ؟ » وأعاد السؤال مراراً .

احتوت ذقنها فى راحتها لتمنع شفتيها من الارتعاش وقالت : « إذا كنت تعنى أننى فى كامل قواى العقلية فالإجابة هى نعم . إننى أشكرك على سؤالك ولكننى بخير » .

كانا قد عادا إلى الباب الأمامى للمنزل . استند الشرطى إلى إطار الباب بصورة عفوية ، وسألها بصوت هامس وكأنهما صديقان يتبادلان الأسرار : « إذن .. ما السر وراء كل هذه المياه ؟ »

رفضت أن تجيب . كانت تعرف حقوقها جيدا . ما شأنه بهذا ؟ أو شأن أى إنسان ؟ إنها حرة أن تفعل بصنابيرها ورشاشاتها كما تريد . ستدفع فاتورة المياه . بل لقد دفعتها بالفعل . أحد عشر ألف دولار كاملة . راقبت عينيه ثم هزت كتفيها .

سألها : « هل لك أقرباء ؟ ابنة أو ابن يمكننا الاتصال به ؟ »

توقفت شفتاها عن الارتعاش . هزت رأسها بالنفى .

انتظر لحظة علّها تقول شيئاً ثم زفر قائلاً : « كما تحبين » . ثم أضاف بصوت متأن ، وهو يؤكد كل كلمة تأكيدا مبالغا فيه وكأنه يتحدث إلى طفل : « سأذهب الآن . لا تعبثى بالماء . اغسلى وجهك وأسنانك والأطباق . لكن لا تكررى ما فعلت » . تراجع بعيدا عنها فى خيلاء وهو يتحسس حزامه وجراب مسدسه وهراوته الثقيلة ، وقال : « إذا تلقينا شكوى أخرى فسوف نضطر إلى القبض عليك لمصلحتك . إنك تعرضين نفسك للخطر ، وتعرضين جيرانك للخطر أيضا . هل فهمت ؟ » .

قالت لنفسها « ابتسمى » . ابتسمت . قالت بصوت رقيق : « أجل . أجل . فهمت »

نظر فى عينيها لحظة طويلة تحمل معنى التحذير والتهديد – تماما كما كان يفعل مونتى – ثم مضى .

وقفت على عتبة الباب فترة طويلة والظلام يشتد حولها تنصت إلى صوت الشحرور ، وأصوات الببغاوات البرية التى تعشش فى قمم النخيل ، وأصوات العربات المنطلقة على الطريق السريع البعيد . بعد برهة جلست على العتبة . كان البيت خلفها غارقا فى الصمت : لا صوت لصنبور تتساقط منه المياه ، أو رشاشة تهس وتئز ، أو مرحاض يقرقر فى هدوء . كان الصمت بشعا لا يحتمل . وفى أعماق بئر هذا الصمت الجاف سمعت خطوات مونتى تقترب على ألواح الأرض التى التوت وتقوست ، وسمعته يصب لنفسه كأسا من الفودكا ويوجه إليها السباب واللعنات فى صوت يشبه احتكاك ورق الصنفرة .

لن تستطيع أن تعود إلى الداخل . لن تستطيع هذه الليلة على الأقل . إنه مكان قاتل ، ملوث ، موبوء كالقبر . إنه فى النهاية ورغم كل شىء ليس نظيفا كما ينبغى . وقد تكون الحياة لغزاً كبيراً يستعصى على فهمها لكنها على الأقل تفهم ما يعنيه التاريخ الشفاهى ، وخمسون عاما من الحياة مع مونتى ، وتفهم الفتاة ذات العينين المظللتين بالسواد .

***

كانت ميج تروى نبات الغاب البلدى فى حجرة المعيشة حين وصلت سيارة الشرطة لتحمل جارتها العجوز . كانت الشرطة هناك فى الليلة الماضية أيضا حين وقف سونى أمام البيت عاقدا ذراعيه على صدره يراقب الموقف ، بينما انشغل الضابط بإغلاق صنابير ميوريل ورشاشاتها . وقال لها سونى وهو يقترب عائداً إلى البيت عبر ممر الحديقة فى قميصه الفضفاض المزركش من طراز جزر هاواى الذى أهدته له بمناسبة عيد الأب : « أعتقد أننا حسمنا الأمر » . ولكن فى الصباح كانت الرشاشات تدور مرة أخرى . اتصل سونى بنقطة الشرطة

القرية ثلاث مرات قبل أن يغادر المنزل إلى عمله . كان يصرخ فى سماعة الهاتف قائلا : إنها مجنونة . مستهترة . لا تعى المسئولية . إنها خطر على نفسها وعلى المجتمع . قال أيضاً إن لديه طفلة صغيرة فى الرابعة عليه أن يحميها إلى جانب كلبه وزوجته ، وأن سور حديقته قد انهار . وسألهم إذا كانوا يدركون حجم التلف الذى يمكن أن تلحقه هذه الكمية الهائلة من المياه بالأرض التى يقوم عليها المنزل ؟

والآن ها قد عادت الشرطة . عبرت سيارة الدورية أمام النافذة ثم انزلقت فى هدوء إلى مدخل السيارات فى البيت المجاور . كانت ميج ترتدى ملابس التمارين الرياضية وحذاء مطاطيا وتضم شعرها إلى الخلف بإيشارب أحمر . كانت قد أوصلت ابنتها إلى دار الحضانة ، وبقى أمامها أن تروى النباتات وتؤدى تمريناتها الرياضية ، ثم تعد وجبة من سلاطة المكرونة قبل أن تذهب إلى الطبيب البيطرى لتحضر كلبها كوينى . ورغم هذا اتجهت ميج فورا إلى الباب الأمامى وخرجت إلى ممر الحديقة .

رأت رجلين من رجال الشرطة يقفان أمام باب منزل ميوريل الأمامى فى الزى الرسمى الذى بدت ثنياته المكوية حادة كشفرة الموس ، وكانت تبدو عليهما الصرامة والتردد فى آن واحد . لم تتنبه ميج ولو للحظة واحدة إلى أن رجل الشرطة القصير كان فى واقع الأمر امرأة . طرق الرجل الباب أولا – مرة ثم مرتين ثم ثلاث مرات . ولكن شيئا لم يحدث . ثم طرقت المرأة الشرطية الباب أيضا دون نتيجة . عقدت ميج ذراعيها على صدرها وانتظرت . بعد لحظة دار الرجل حول المنزل إلى البوابة الجانبية ، ودلف إلى الفناء الخلفى . سمعت ميج صوت الرشاشات يتوقف بعد صرير أخير ، ثم عاد الضابط وقد أثقلت كتل الطين حذاءه .

طرق الباب ثانية وكانت طرقاته أكثر عنفا هذه المرة . تذكرت ميج سونى وطرقاته الوحشية . صاحت المرأة الشرطية بصوت لاهث من طبقة الكونترالتو ، حاولت أن تجعله عميقا دون جدوى : « افتحى الباب . نحن الشرطة » .

ثم لمحتها ميج – لمحت ميوريل فى النافذة البارزة من الجدار على الجانب القريب من الباب . ودون وعى منها صاحت : « انظروا ! إنها هناك فى تلك النافذة » .

انحنى الضابط مسافة كبيرة فوق سور النافذة . لاحظت ميج شاربه وذكرها شعره الأشقر الناعم بسونى . أخذ الضابط يشير بيديه فى لهفة وإلحاح نافد الصبر إلى المرأة القابعة خلف الزجاج وهو يقول : « نحن الشرطة . هيا . افتحى الباب » . لكن ميوريل لم تتحرك . قال بصوت عالٍ وهو يسب ويلعن فى سره « لابأس . لا بأس » ، ثم بدأ يدفع الباب بكتفه . تحطم الباب بسهولة وانساب الماء خارجه ، واندفع الشرطيان إلى داخل البيت .

انتظرت ميج . كان لديها مهام وواجبات .. أجل .. لكنها انتظرت على أى حال . وكانت تنحنى بين الحين والآخر لتقتلع بعض النباتات البرية التى نسيها البستانى وهى تحاول أن تبدو مشغولة . غاب الشرطيان بالداخل وقتا طويلا – عشرين دقيقة أو ربما نصف ساعة – ثم ظهرت المرأة الشرطية من الباب ومعها ميوريل .

بدت ميوريل وقد ازدادت ضخامة عن ذى قبل . كان وجهها متهدلاً متورماً ، وذراعاها منتفختين . كانت ترتدى فى قدميها المفلطحتين صندلاً أبيض ، وعلى جسدها ثوب قطنى مطبوع لا شكل له ، وعلى رأسها قبعة بيضاء من القش تبدو وكأنها خرجت لتوها من صندوق قديم

فى حجرة تخزين المهملات . كانت المرأة تمسك بذراعها ثم ظهر الرجل خلفهما يحمل فى يده حقيبة ملابس . هبطوا الدرجات ثم عبروا الممر إلى السيارة دون أن تنظر ميوريل وراءها ولو مرة واحدة . ولكن فجأة حين كانت المرأة تساعدها فى الدخول إلى المقعد الخلفى للسيارة ، استدارت ميوريل كأنما لتلقى نظرة أخيرة على بيتها . لكنها لم تكن تنظر إلى المنزل . كانت تنظر إلى ميج .

***

ولى الصباح وجاء العصر بحرارته . انتهت ميج من رى النباتات وأعدت سلاطة المكرونة : مكرونة فيونكات مع سمك السلمون الطازج والزيتون الأسود والصنوبر ، وفرغت من مهامها وأحضرت تيفانى من الحضانة ووضعتها فى فراشها لتنام بعض الوقت . لكنها رغم مشاغلها الكثيرة لم تستطع أن تنسى ميوريل . لقد حدقت المرأة العجوز فى وجهها ربما خمس ثوان قبل أن تبدأ الشرطية فى إقناعها بالدخول فى السيارة . لأول وهلة أحست ميج بأنها تريد أن تنشق الأرض وتبتلعها . لكنها سرعان ما أدركت أن نظرة ميوريل تخلو تماما من الحقد أو الكراهية . لم تكن سوى نظرة حزينة . كانت نظرة تقول : هذه هى المحصلة النهائية . خمسون عاما ، وهذه هى المحصلة النهائية .

كانت الحديقة الخلفية أشبه بجهنم إذ كانت الشمس فوقها مباشرة . كان الكلب كوينى يتمدد نائما فى الظل إلى جوار حوض السباحة بعد أن تخلص من البراغيث ، وغُسل فروه بالشامبو وقصت أظافره عند الطبيب البيطرى . كان كل شىء ساكنا . حتى الطيور كانت ساكنة . خلعت ميج حذاءها المطاطى ومشت حافية على الحشائش المبتلة إلى السياج الخشبى أو ما بقى منه ، فقد تقوست قوائمه أثناء الليل فانهار

على الجانب الآخر واستقر فى حديقة ميوريل . لم تتردد ميج لحظة . قفزت فوق الألواح الخشبية المكومة ثم هبطت فوق الحشائش على الجانب الآخر .

غاصت أقدامها فى الطين . كانت الأرض تحت أقدامها كالحلوى المطبوخة .. كالشيكولاتة المطبوخة . وحين رفعت قدميها لتتحرك نحو البيت المهجور امتلأت آثار أقدامها العميقة حثيثا بالمياه . كان الفناء المبلط أمام الباب أشبه بالجزيرة . عبرتها وهى تتجنب الاصطدام بأصص الزرع وقطع الأثاث المصنوعة من الخيزران ، وجربت الباب الخلفى لكنها وجدته موصدا . اتجهت إلى النافذة وظللت وجهها بكفيها ونظرت إلى الداخل . شهقت حين رأت المنظر . كان غطاء الجدران يتفتت وينهار وورق الحائط يتهاوى ، أما الأرض والبساط فقد تلفا تماما . كانت تعلم أن ميوريل فى حالة سيئة لكنها لم تتوقع هذا الجنون .. هذا الانتحار .

الحزن . أجل . دفعها الحزن على زوجها إلى هذا . لكن .. هل كان الحزن على زوجها حقا هو السبب ؟ وجدت نفسها تفكر فى سونى مرة أخرى . تخيلت أنها فى سن ميوريل وأن زوجها قد مات . لن تكون فى ضخامة ميوريل بالطبع بل ستكون مثل هؤلاء السيدات المسنات الأنيقات اللاتى تراهن فى منطقة بالم سبرينجز ، واللاتى احتفظن بنحافتهن ورشاقتهن لأنهن واظبن على التمرينات الرياضية طوال حياتهن . ولكن ماذا لو فقدت زوجها قبل أن تغدو عجوزاً ؟ انقضت الفكرة عليها فجأة وكأنها طائر حط من السماء على حين غرة . ماذا لو مات سونى فى حادث سيارة أو أى حادث آخر ؟ إنه أمر محتمل .

وقفت أمام النافذة تحملق فى فوضى الحجرة من خلال سحب أفكارها

القلقة . فى لحظة كانت ترى حطام حياة العجوز المسكينة ، وفى اللحظة التالية ترى الفم الجميل والعينين المعبرتين التى تثير دائما تعليقات الإعجاب . بعد فترة أدارت ظهرها للنافذة وتأملت الحديقة من موقع ميوريل وبعينيها . رأت الورود وقد امتلأت أحواضها بالماء وتفتحت وأزهرت براعم جديدة . ورأت زهورا تنتصب على أعوادها المتصلبة كالعصى ، وزهورا أخرى تغرق فى بحر من أوراقها الصفراء . وهناك ، بين الشجيرات فى الركن البعيد من الساحة ، رأت الذراع المصنوعة من الصلب التى تتحكم فى رشاشات الزرع . كانت صورة طبق الأصل من تلك التى فى حديقتها . لها مقبض ، ورقبة ، وماسورتان .

هنا خطرت لها الفكرة . ستفتح الرشاشات . ستفتحها دقيقة واحدة فقط لتعرف شعور ميوريل . لن تتركها لفترة طويلة ، فالماء يمكن أن يهدد أساس بيتها .

كانت تفهم هذا على الأقل .

بطاقة الأميريكان اكسبريس

جيمس سـالتر

من العسير تذكر كل الأماكن والأمسيات : بار نيكولا المتلألىء العميق الذى يشبه عربة القطار ، الازدحام فى حانة « آن دو تروا » أو بار بيلى ، وكل هذه الوجوه المتألقة لغرباء يحتشدون متلاصقين حول البار ، وتلك العيون السوداء المثيرة التى تتوهج لحظة ثم تختفى .

كانا فى تلك الأيام يعيشان فى شقة مفروشة أثاثها عجيب ، وكانا فى أيام الآحاد ينامان حتى الظهر . كانا فى أدنى مراتب جيوش القانون ، يعلوهما صغار المحامين المشاركين فى مكاتب المحاماة ، ثم المحامون الكبار وأصحاب المكاتب والشركاء الذين يرتدون أفخر الثياب ويتناولون غداءهم فى مطعم « فور سيزونز » الفاخر . كان والد فرانك أحد هؤلاء وكان يتردد على هذا المطعم ثلاث أو أربع مرات فى الأسبوع ، أو يذهب إلى نادى « سنشارى » من باب التغيير ، أو إلى نادى النقابة الذى كان به أعضاء يكبرونه سنا . كان يصف الأعضاء قائلا : إن نصفهم قد فقد القدرة على التبول والنصف الآخر فقد القدرة على إمساك البول .

هذا عن والد فرانك ، أما آلان فكان من مدينة كليفلاند حيث كان أبوه يتمتع بشهرة عريضة وإن لم يكن دائماً محبوبا . كان يبالغ فى تقدير جرم المتهمين وغموض القضايا . حدث ذات مرة حين ذهب ليدافع عن متهم فى جزء آخر من الولاية ، وكان زنجيا متهما بالقتل ، أن تنبه إلى ما يدور فى ذهن هيئة المحلفين ، وأدرك الصورة التى رسموها فى أذهانهم عنه ، فنهض من مقعده متباطئاً وبدأ حديثه قائلا إنهم ربما قد سمعوا عنه بعض الأقاويل ، أنه محام كبير مشهور من المدينة مثلا ، وأنه يرتدى حللا لا يقل ثمنها عن ثلاثمائة دولار ، وأنه يقود سيارة كاديلاك ، ويدخن السيجار الفاخر الثمين . كان يتكلم وهو يمشى محدقا فى الأرض وكأنه يبحث عن شيء سقط منه . ربما سمعوا أيضا أنه يهودى .

ثم توقف ونظر إليهم وقال ، أجل إنه من المدينة ، ويرتدى حللا لا يقل ثمنها عن ثلاثمائة دولار ، ويقود سيارة كاديلاك ، ويدخن السيجار الضخم ، وهو يهودى .. وأضاف : « الآن وقد سوينا هذا الأمر نستطيع أن نتحدث عن القضية » .

***

كانا محاميين من صلب محاميين ، وكانت تلك أيام الشباب . فى الصباح كانت القطارات تعوى فى ظلام الأنفاق المعبق بالروائح القديمة .

ـــ « هل لاحظت موظفة الاستقبال الجديدة ؟ »

سأل فرانك : « ماذا عنها ؟ »

لفتهما ضوضاء كأنها ضوضاء إطلاق صاروخ .

قال آلان مسراً بمشاعره : « إنها فتاة ملتهبة » .

ـــ « وكيف عرفت ؟ »

ـــ « إننى واثق من هذا . »

ـــ « ماذا تعنى ؟ كيف ؟ »

ـــ « بالحــدس » .

قال فرانك ساخراً : « الحــدس !؟ »

ـــ « وما عيبــه ؟ » .

ـــ « لا يؤخــذ به » .

كان هذا ما جعلهما لا يفترقان – ساعات العمل المشتركة ، أنشودة الحياة المشتركة وأحلامهما المشتركة . ورغم الحديث عن موظفة الاستقبال الجديدة ذات النظر القصير والشعر الكثيف المبعثر فإنهما لم يتعرفا عليها أو يصادقاها . لكنهما صادقا الكثيرات مثل جولى وكاثرين وإيميز . لكن برندا كانت أفضل صديقة فقد دامت صداقتهما لها ما يقرب من العامين . كانت برندا التى تمكنت بصورة ما من إكمال تعليمها فى جامعة مارى ماونت تعيش فى شقة أشبه بالطريق العام ، أو بالاستراحة العامة في شارع وست فورث . وكانت تتصدر الشقة صورة لها مع والدها وأختها وضعتها فى إطار فضى رفيع ناعم . كانت برندا فى الصورة طفلة فى الثالثة عشرة ذات ابتسامة خفيفة غريبة .

قال لها فرانك : « كنت أتمنى أن أعرفك حينذاك » .

قالت برندا : « لا أشك فى هذا بتاتا » .

كان صوتها هو ما يستهويه ، كان الصوت النموذجى لفتاة المدينة ، يمتزج فيه الدفء بالاستهانة . كان يروق لها أن تردد دائما أنهما من صنف واحد ، وكان هذا صحيحا بدرجة ما . ورغم أنهما كانا يترددان عادة على حاناتها المفضلة التى يعزف فيها صاحب الحانة البيانو وحيث كان يعرفها الجميع ، إلا أنها لم تكن فى غنى عن صحبته . إن حياة المدينة لها لحظاتها النادرة التى لا تعدل متعتها أى متعة أخرى ، مثل التدحرج على أرض الشقة بجوار الحائط وسط القبلات والأحضان ، وارتطام الأجساد وكأنها أحجار فى الساعة الخامسة بعد الظهر إذ يوشك نور النهار أن يختفى .

قالت بلهجة آمرة : « لا . كفى . كفى . كفى » .

غمغم وهو يقبل رقبتها : « ماذا ستفعلين بهذه الغدة الدرقية الساحرة ؟ »

قالت : « ألن تدعونى للعشاء ؟ »

ــــ « طبعا . بكل تأكيد » .

ــــ « ماذا تعنى الغدة الدرقية ؟ »

انفلتت من ذراعيه قافزة وكأنها كلب ضخم .

قال ملاطفا : « تعالى هنا » .

لكنها ذهبت إلى الحمام ، وبدأت تمشط شعرها وسألت : « إلى أى المطاعم سنذهب ؟ »

كانت تهب نفسها لكن بمزاجها الذى يصعب التكهن به . وكانت متحررة تفعل ما لم تفعله أمها فى حياتها ، لكنها أيضا تقليدية تعيش بنفس

أسلوب أمها فى شقة كشقتها بها نفس المقاعد الوثيرة الناعمة ، وتحرص على منح البوابين هبة عيد الميلاد فى أظرف مغلقة ، وعلى كنس الجليد المتراكم أمام الباب بنفسها إلى ما بعد المظلة الواقية التى تعلوه ، وعلى استقبال أطفالها عند عودتهم من المدرسة . كانت تحب والدها إلى درجة العبادة ، وحين ذهبت معه لقضاء أجازة فى جزر هاواى أرسلت بطاقات مصورة تحمل بضعة سطور قليلة حارقة بخطها الكبير الأشعث .

كان ذلك فى الصيف .

صاح فرانك مناديا : « هل يوجد أحد بالداخل ؟ »

قرع الباب الموارب بلطف وقد خلع معطفه وحمله على ذراعه فقد كان الجو حاراً .

قال رافعا صوته : « حسن . ارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم واخرجوا . آلان . احرس الباب الخلفى » .

كانت الحفلة قد انتهت فيما يبدو . دفع الباب فانفتح على مصراعيه . كانت الغرفة معتمة ليس بها إلا مصباح واحد مضىء .

نادى : « برندا . هل جئنا متأخرين ؟ » تجسدت فجأة بصورة غامضة فى فتحة الباب عارية الساقين فى حذاء عالى الكعب . « كنا سنحضر مبكرين لكن أخرنا العمل . لم نستطع أن نغادر المكتب . أين ذهب الجميع ؟ أين المأكولات ؟ لقد تأخرنا يا آلان . لا توجد مأكولات أو أى شىء » .

كانت تستند إلى الباب .

قال آلان : « أنفقنا وقتا طويلا فى الطريق . لم نعثر على تاكسى » .

كان فرانك قد ألقى بنفسه على الكنبة . قال : « أرجوك لا تغضبى يا برين . لقد أخرنا العمل . هذه هى الحقيقة . كان يجب أن اتصل بالتليفون . فلنسمع بعض الموسيقى . هل تبقى شىء نشربه ؟ »

قالت أخيرا : « يوجد قليل من الفودكا » .

— « والثلج ؟ »

— « لم يتبق سوى قطعتين أو ثلاث » . دفعت الحائط دون حماس وراقبها وهى تمضى إلى المطبخ وسمعها تفتح باب الثلاجة .

قال : « ما رأيك فى الموقف يا آلان ؟ ماذا ستفعل ؟ »

— « أنا ؟ »

صاح فرانك : « أين لويز ؟ »

قالت برندا : « إنها نائمة » .

— « هل عادت إلى بيتها حقا ؟ »

— « إنها تعمل فى الصباح » .

— « وكذلك آلان » .

عادت برندا من المطبخ تحمل كأسين .

قال وهو ينظر فى كأسه : « إننى آسف على التأخير . هل كانت حفلة طيبة ؟ » ثم أدار محتويات الكأس بإصبعه وأضاف : « هل هذا كل الثلج ؟ »

قالت برندا : « لقد فصلت جين هارا من وظيفتها » .

ـــ « شيء مؤسف . من هى ؟ »

ـــ « كانت تدير حملات الدعاية الكبيرة . عرض علىّ « روس » أن أحل محلها » .

ـــ « عظــيم » .

قالت فى كسل : « لا أدرى إن كنت أرغب فى هذا حقا » .

ـــ « ولم لا ؟ »

ـــ « لقد كانت عشيقته » .

ـــ « وفصلها ؟ »

ـــ « أرأيت ؟ سلوك لا يشهد بالشهامة » .

ـــ « ولا يشهد لها بالأنوثة » .

ـــ « يا إلهى . هكذا الرجال دائما » .

ـــ « ما شكلها ؟ هل تشبه لويز ؟ »

رفت على وجه برندا ابتسامة الفتاة ذات الثلاثة عشر ربيعا وقالت : « لا أحد يشبه لويز » . اعتصر صوتها الاسم الذى كان « آلان » يحلم بساقى صاحبته . قالت : « إن شفتى جين رفيعتان » .

ـــ « أهذا كل ما فى الأمر ؟ »

ـــ « إن الشفاه الرفيعة فى المرأة دليل على البرودة » .

قال : « دعينى أفحص شفتيك » .

ـــ « اذهب إلى الجحيم » .

ـــ « ليستا رفيعتين . ما رأيك يا آلان ؟ هل توافقنى أنهما ليستا رفيعتين ؟ لا . لا تغطيهما يا برندا » .

ـــ « أين كنتما ؟ لا أصدق أنكما كنتما فى العمل » .

قال وهو يزيح يدها عن فمها : « هيا . دعى شفتيك تبدوان على طبيعتهما . ليستا رفيعتين . إنهما جميلتان . كل ما فى الأمر أننى لم ألاحظهما من قبل » . قال وهو يضطجع : « كيف حالك يا آلان ؟ هل غلبك النعاس ؟ »

ـــ « كنت أفكر . كم تغيرت المدينة ! »

ـــ « فى خمس سنوات ؟ »

ـــ « لقد قضيت هنا ما يقرب من السنوات الست » .

ـــ « أجل . إنها تتغير بكل تأكيد . إنهم فى هبوط ونحن فى صعود » .

كان آلان يفكر فى لويز القاسية التى لم تترك أمامه سوى عناء رحلة العودة إلى البيت والرجّة عبر شوارع لا نهاية لها . لكنه قال : « فعلا » .

فى ذلك العام ذهبا إلى حمام البخار وجلسا معا على المناشف المتهدلة الرخوة يتنفسان عطر الكافور ، ويناقشان قضية « هاردمان رو » ثم مشيا إلى الدش البارد كالأبطال . لم يكن جسداهما قد ترهلا بعد ، وكانت أردافهما متماسكة تحمل نضرة الشباب .

***

كانت شركة « هاردمان رو » شركة أدوية صغيرة فى ولاية

كينيتيكات خرجت عن دائرة تخصصها بعض الشيء ، فوجدت نفسها تقاضى شركة صناعية كبيرة لأنها تعدت على براءة أحد منتجاتها المجهولة . كانت القضية تحفل بالتفاصيل الفنية الدقيقة المعقدة ولا يرجح كسبها . ولما كان محامو الخصم قد أقاموا سداً منيعا من إجراءات التعطيل والتأخير ، فقد انتقل ملفها من يد إلى يد حتى استقر فى القاع عند فرانك وآلان فى مكتبهما المتواضع بجوار آلات النسخ والتصوير ، فقد كان لديهما متسع من الوقت لمثل هذه التفاصيل الفنية التى شغلتهما فانغمسا فى مناقشتها وسط فحيح البخار . ومما زاد من جاذبية القضية أيضا أن أحدا لم يكن يرغب فى التصدى لها .

وهكذا انغمسا فى العمل كما لو كانا قد عادا إلى سنوات الدراسة ، فكانا يجلسان ساعات طويلة فى فانلات خفيفة مستديرة الرقبة وقد مدا أرجلهما على المكتب يقذفان الأفكار فى الهواء دون جدوى ، ويدونان الأفكار ثم يكوران الأوراق ويقذفان بها حتى يأتيا على دفاتر كاملة ، ويمكثان فى المكتبة إلى وقت متأخر حتى تغيم الكلمات المطبوعة أمام أعينهما .

استمرا فى العمل خلال الأجازات وعطلات نهاية الأسبوع ، وكانا أحيانا يبيتان فى المكتب حتى الصباح ويعدان القهوة قبل أن يصل أى من الآخرين . كانا أحيانا يتناولان العشاء فى ساعة متأخرة ورغم ذلك يستأنفان الحديث عن القضية ، ونقاطها المعقدة وأجزائها المتسقة وتواريخ الخطابات المتبادلة بين الطرفين ، والمقالات المنشورة فى الدوريات القانونية التى تتصل بها ، والمقابلات التى تمت بشأنها وحدود تفسير معانى الألفاظ . وفى تلك الأثناء قابلت برندا رجلا هولنديا وسيما يعمل فى بنك وصادقته ، وصادق آلان فتاة تدعى هوبى . ورغم ذلك فقد ظلا حبيسين فى تلك الغابة الكثيفة المترامية الأطراف ، تسد جذوع

الأشجار وفروعها المتسلقة منافذ النور أمامهما وتتراءى لهما من بعيد جذور أشياء متشابكة ، وكلما مر شهر ازداد توغلهما فى مسالكها ودروبها المتشعبة وازدادت حيرتهما فلم يعودا على يقين أين كانا وإذا ما كانا سيصلان إلى نهايتها . وتدريجيا أصبحا كشريكين قديمين فقدا الاتصال بالعالم ، فقلت الزيارات والاستشارات حتى انحصر اتصالهما بالعالم فى وقت تناول الغداء . كان يشاع عنهما أن القضية قد ابتلعتهما تماما حتى أنستهما كل شىء عداها ، وكان العكس هو الصحيح - فقد كانا الوحيدين اللذين استطاعا سبر أغوارها وفهم تفاصيلها . استغرق الأمر ثلاث سنوات وأصبحت القضية لهذا السبب وحده مثار اهتمام وتندر ، إذ كان البعض يسخر منهما قائلا إن سمعة المكتب أصبحت تتعلق بنجاحهما .

وقبل شهرين من موعد نظر القضية أمام المحكمة ترك الاثنان عملهما فى مكتب « ويلاند وبراون » . جلس فرانك إلى مائدة الغداء المصقولة فى منزل العائلة يوم الأحد . كان والده من خيرة المحامين فى المدينة ، فقد كان من ذلك النوع من المحامين الذين يبعثون على الثقة ويتحولون إلى أصدقاء لموكليهم . سأل ابنه مستفهما : « ماذا حدث ؟ »

قال فرانك : « سننشىء مكتبا مستقلا أنا وآلان » .

— « وماذا عن القضية التى فى أيديكما ؟ لا يصح أن تتركا للمكتب قضية أنفقتما سنوات فى إعدادها » .

— « لن نتركها . سنأخذها معنا » .

مرت لحظة صمت رهيبة .

ـــ « ستأخذانها معكما ؟ مستحيل . لقد درست فى أفضل كليات القانون يا فرانك ، وأنت تعلم أنهم سيقاضونك . ستحطم مستقبلك » .

ـــ « لقد تدبرنا هذا الأمر » .

قال الأب : « اسمع كلامى » .

كان هذا رأى الجميع ، رأى أمه وعمه « كوك » وأصدقائه . إن هذه الخطوة لن تحطم مستقبله فقط بل ستجلب عليه العار . هكذا قال أبوه .

شاءت الأقدار ألا تنظر قضية « هاردمان رو » أمام المحكمة . فقد اتفق الطرفان على التسوية بعيدا عن القضاء ، وكان حجم التعويض المدفوع ٣٨ مليون دولار أخذا منها الثلث كأتعاب محاماة .

***

وأثبت الزمن أيضا خطأ والده ، وهو ما لم يكن يحلم به فلم يقاضيهما مكتب « ويلاند وبراون »فقد سوى هذا الأمر سلميا أيضا ، وبدلا من الخراب المنتظر أصبح لهما مكتب كبير مستقل يطل على منتزه « برايانت » الذى كان يبدو من أعلى كحديقة خلف قلعة فرنسية قديمة تلفها الظلال ، وأصبح لهما عملاء من الشباب وانهمرت عليهما تذاكر الأوبرا ودعوات العشاء فى بيوت المطلقات الحسناوات ، وابتاع كل منهما شقة بمكتبتها وكتبها ومطبخها الواسع المغطى بالسيراميك .

كانت المدينة كما قال تنقسم إلى قسمين : قسم الصاعدين وقسم الهابطين ، قسم يؤم المطاعم المزدحمة وقسم يؤم الأرصفة والشوارع ، قسم ينتظر فى طوابير طويلة وقسم لا ينتظر ، قسم يغلق بابه بثلاثة أقفال وقسم يصعد فى مصاعد تنطلق من ردهات فاخرة تزينها المرايا الفضية والجدران المبطنة بخشب الجوز .

وكان يوجد أيضا قسم ثالث من البشر مثل مسز كريستى التى كانت تتأرجح بين الصاعدين والهابطين رغم مظهرها الواثق . أتت إليهما تطلب إعادة التفاوض حول التسوية المالية للطلاق مع زوجها السابق . سألت فرانك صراحة بعد أن تصفح الأوراق : « ما رأيك ؟ »

— « رأيى أن تتزوجى مرة أخرى . هذا أسهل » .

كانت ترتدى معطفا من الفراء تظهر بطانته الداكنة . زفرت زفرة خافتة تنم عن عدم التصديق ، ثم قالت: « ليس الأمر بهذه البساطة » .

قالت له إنه لا يدرك صعوبة البحث عن زوج مناسب ، فمنذ فترة قصيرة تعرفت على رجل من خلال زوجين تعرفهما معرفة جيدة . قالا لها : « سنذهب للعشاء فى بيته . ستحبينه . إنك أنسب امرأة له ، فهو يهوى الحديث عن الكتب » .

وحين وصلوا إلى شقته انسحبت المرأتان على الفور إلى المطبخ وشرعتا فى الطهو . ما رأيها فيه ؟ إنها لم تلق عليه سوى نظرة خاطفة كما قالت لكنه أعجبها جدا خاصة صلعته الجميلة وروبه المنزلى ، وبدأت تخطط لتغيير ديكور الشقة الذى كان يسوده اللون الأزرق . ظل الرجل وكان اسمه « وارن » صامتا طوال المساء . قالت لها صديقتها فى المطبخ تبرر صمته إنه فقد وظيفته ، ورغم أنه لا يعانى من مشاكل مادية إلا أنه يعانى من الاكتئاب . قالت : « لقد كانت صدمة » . وأضافت : « إنه معجب بك » والحق أنه طلب أن يراها مرة أخرى .

قال : « لماذا لا تتناولين الشاى معى غدا ؟ »

قالت : « لا مانع . خاصة وأننى سأكون فى هذه المنطقة غدا على أية حال » .

وفى اليوم التالى حضرت إلى منزله تحمل هدية من الكتب كلفها شراؤها مئة دولار على الأقل . وجدته بملابس النوم ولم تجد أثراً للشاى . بدا وكأنه لا يكاد يعرفها ولا يعرف لماذا أتت . قالت له إنها تذكرت موعدا هاما وتركت له الكتب وانصرفت . وحين كانت تهبط فى المصعد شعرت فجأة بنوبة من الغثيان تغشاها حتى الأعماق .

قال فرانك : « حسن . قد نتمكن من تغيير تسوية الطلاق يا مسز كريستى ، ولكن سيكلفك الأمر مالاً كثيراً » .

تضاءل صوتها وهى تقول : « ألا يمكنكِ أن تستبدل الأتعاب بنسبة من التسوية كما يحدث أحيانا ؟ »

قال : « ليس فى قضية كهذه » .

كان الظلام قد أوشك على الحلول . قدم لها كأسا من الشراب . كانت تحرك شفتيها وتضغط واحدة بالأخرى وهى تفكر . قالت : « ماذا أفعل إذن ؟ ما الحل ؟ »

قالت له وهى تنظر فى مرآتها الصغيرة إن حياتها كانت سلسلة من الآمال الخائبة والإحباطات التى سببها اندفاعها فى علاقات غرامية طائشة ، فقد خرجت مع رجل أكبر منها فى السن بكثير لمجرد أنه كان الوحيد الذى يرتدى حلة بيضاء فى مدينة ناشفيل مسقط رأسها ، وقبلت الزواج من جورج كريستى حين كانا يبحران معا بالقرب من ساحل « مين » . قالت : « لا أعرف من أين أحصل على المال أو كيف » .

رفعت عينيها فوجدته يتأملها مليا فى تؤدة وتمهل . أضيئت الأنوار فى المبانى المحيطة بالمنتزه ، وفى الشوارع ، وكذلك أضاءت العربات

أنوارها فى طريق عودتها بأصحابها إلى بيوتهم . استمرا فى الحديث حتى عم المساء فخرجا لتناول العشاء .

فى عيد الميلاد ذلك العام انفصل آلان عن زوجته . قال له فرانك : « لابد أنك تمزح » . كان آلان قد انتقل ليعيش فى مكان جديد يزهو بمناشفه السميكة وسجاده الثمين . كان بالردهة مكتب فاخر من طراز ألمانى قديم يعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويجمع بين اللون الأسود والبنى الفاتح والذهبى . كان البيت يقع فى مواجهة مدرسة خاصة على الجانب الآخر من الشارع .

كان آلان يحملق خارج النافذة التى كان جدارها فى برودة جدار السفينة . قال فى نبرة يائسة : « لا أدرى ماذا أفعل . إننى لا أرغب فى الطلاق . لا أريد أن أفقد ابنتى » . كان اسمها كاميل وكانت فى الثانية من عمرها .

قال فرانك : « إننى أقدر شعورك » .

— « لو كان لك طفل لقدرت شعورى حقا » .

قال فرانك وهو يريه مجلة الخريجين : « هل رأيت هذا ؟ » كانت الذكرى الخامسة عشرة لتخرجهما من الجامعة . سأله : « هل تعرف أحداً من هؤلاء ؟ » .

ذكرت المجلة خمسة أسماء من دفعتهما منحتهم الجامعة شهادات تقدير لإنجازاتهم المشرفة . تعرف آلان على بعضهم . قال : « كامينجز ! لقد كان صفرا على الشمال ، وانتخب عضوا فى الكونجرس . يا إلهى ! لا أعرف ماذا أفعل » .

قال فرانك : « لا تدعها تستولى على الشقة . هذا كل ما فى الأمر » .

كان يعرف بالطبع أن الأمر ليس بهذه البساطة . كان بسيطا فقط حين يتعلق بالآخرين ، مثل نان كريستى التى قررت أن تتزوج وفاتحته فى الأمر ذات مساء .

قال لها فى النهاية : « لا أظن أننى أريد الزواج . هذا كل ما فى الأمر » .

— « ألست تحبنى ؟ »

— « لقد اخترت وقتا غير مناسب لطرح هذا السؤال » .

رقدا صامتين . كانت تحدق فى شىء ما عبر الحجرة . شعر إزاءها بالضيق والحرج . قال : « لن ينجح زواجنا . إننا نقيضان ، ولهذا ينجذب أحدنا إلى الآخر » .

— « لسنا نقيضين » .

— « إننى لا أتكلم عنى وعنك فقط بل عن النساء والرجال عموما . إن المرأة تحب الرجل حين تعرفه وتعتاده . أما الرجل ، فعلى العكس ، حين يعرف المرأة تماما يكون على استعداد للرحيل » .

نهضت دون أن تنطق بشىء ، وبدأت تلملم ملابسها . راقبها فى صمت بينما ارتدتها ، ولم يجد فى هذا ما يثيره . الغريب حقا أنه كان ينوى الاستمرار معها .

قال : « سأطلب لك سيارة أجرة » .

قالت وكأنها تخاطب نفسها جزئيا : « كنت أعتقد أنك ذكى » . أرهقه الموقف فأخذ يفتش عن نمرة التليفون .

قالت : « لا أريد سيارة أجرة . سأمشى » .

ـــ « عبر المنتزه ؟! »

ـــ « أجل » . للحظة رأت نفسها خبرا فى صفحة حوادث صحف اليوم التالى . وقفت بالباب لحظة وقالت بفتور : « وداعا » .

أرسلت له خطابا قرأه مرات عديدة . قالت فيه : « لقد أحببت من قبل لكننى لم أشعر أبدا بحب مثل حبك ، ولم يعطنى أى رجل أكثر مما أعطيتنى أنت » . أَطْلَعَ آلان على الخطاب لكنه لم يعلق بشىء .

قال فرانك حين أوشك اليوم على النهاية : « لنذهب ونشرب كأسا » .

مشيا فى شارع « لكسينجتون » ، وكان فرانك يبدو بالإيشارب المعقود حول رقبته ومعطفه المفتوح والصلع الخفيف الذى بدأ يدب فى رأسه مرحا خالى البال . « هذه الأشياء تحدث ... » كان هذا هو كل ما تمكن من قوله للتخفيف عن صاحبه .

ذهبَا إلى حانة تدعى « جاكس » تلتمع أضواؤها على خشب المناضد الداكن المصقول وعلى الكئوس البللورية المصطفة على الأرفف الضيقة خلف البار . وقف الساقى الشاب خلف البار وقد أسند يديه على حافته ، وقال مبتسما : « وكيف الحال هذا المساء ؟ جميل أن نراكما مرة أخرى » .

سأله فرانك : « هل تعرفنى ؟ »

قال الساقى مبتسما : « يبدو وجهك مألوفا » .

ـــ « هكذا ؟! ما اسم هذا المكان بالمناسبة ؟ أرجو أن تذكرنى ألاّ أزوره مرة أخرى ! »

كان عدد من الزبائن يقفون عند البار وأشاح أقربهم إلى فرانك بوجهه بعيدا فى حذر . بعد برهة ظهر المدير من الخلفية التى تغطيها ستارة بنية اللون واقترب منهما وسأل فى أدب : « هل ضايقك شىء يا سيدى ؟ »

نظر إليه فرانك وقال : « لا . كل شىء على ما يرام » .

قال آلان يشرح الأمر : « لقد أمضينا يوما مرهقا صعبا ، وأتينا إلى هنا لنهدىء أعصابنا » .

قال المدير : « لدينا مطعم فى الدور الأول » . كان خلفه سلم ملتو حلزونى من الحديد يقود إلى أعلى ماراً برسوم عديدة فى براويز على الحائط لكلاب طويلة السيقان والشعر ، وكأنها من فصيلة كلاب الوولف الروسية . « المطعم يعمل من السادسة حتى الحادية عشرة كل ليلة » .

قال فرانك : « إننى واثق من هذا . اسمع . إن ساقيك لا يعرفنى » .

قال المدير : « لقد أخطأ » .

ـــ « إنه لا يعرفنى ولن يعرفنى أبداً » .

قال آلان ملوحا بيديه : « لا تلق بالا إليه . لم يحدث أى شىء » .

جلسا إلى مائدة بجوار النافذة . قال فرانك معلقا على انفعاله : « إننى لا أطيق هؤلاء الممثلين العاطلين الذين يعملون بالبارات ، ويتصورون أنهم أصدقاء الجميع » .

تحدثا عن نان كريستى أثناء العشاء . فكر آلان فى أثوابها الحريرية

وفى حبها المتفانى ، وقال بعد برهة إن مشكلته هى أنه لا يلتقى بهذا النوع من النساء أبداً ، النوع الذى تراه أحيانا خارج حانة جاكس ، وأضاف شاكيا إن النساء اللاتى يلقاهن عادة يتمتعن بقدر من عيوب البشرية لا يطاق ، وإنه مازال يحاول منذ انفصاله عن زوجته أن يجد المرأة المناسبة .

قال فرانك : « لن تجد صعوبة فى هذا فالنساء جميعاً يبحثن عن رجل مثلك » .

— « بل عن رجل مثلك أنت » .

— « هذا ما يتوهمنه » .

دفع فرانك الحساب دون أن ينظر فى الفاتورة . قال آلان يشرح شعوره : « إذا تزوجت مرة لا تستطيع أن تعيش دون زواج فترغب فى الزواج مرة أخرى » .

قال فرانك : « إننى لا أثق فى أى امرأة بما يكفى لأن أتزوجها » .

— « ماذا تريد إذن ؟ »

قال فرانك : « ترضينى حياتى كما هى » .

كان يفتقر إلى شىء ما يدفع النساء دائما للبحث عنه وتحديد كنهه ، ويبذلن فى ذلك كل شىء دون طائل . وسيظل هذا الشىء المفقود يجتذب النساء دوما ويتحداهن . ربما كان الأمر أبسط من ذلك ، قال آلان لنفسه . ربما ليس هناك شىء مفقود .

***

أبطأت السيارة وكانت من ماركة الرينو الكبيرة المجهزة للسفر

الطويل ، ثم توقفت على جانب الطريق السريع في إيطاليا . كانت برندا تنام على المقعد الخلفى ، وقد فغرت فاها قليلا والتمع نور الصباح على عظام خديها . كانوا على مقربة من كومو التى عبروها منذ قليل . عند الحدود بين سويسرا وإيطاليا ألقت شرطة الحدود نظرة عليها داخل السيارة .

قالا : « هيا يا برين . استيقظى . سنتوقف هنا لنتناول بعض القهوة » .

عادت من حجرة السيدات ، وقد مشطت شعرها ووضعت طبقة جديدة من الطلاء على شفتيها . انشغل صبى يرتدى معطفاً أبيض فى غسل الملاعق خلف حاجز تقديم الأطعمة والمشروبات .

سألها فرانك : « برندا . لقد نسيت . هل نقول قهوة إكسبرسو أم إسبرسو ؟ »

قالت : « إسبرسو » .

ــــ « وما أدراك بهذا ؟ »

ــــ « إننى من مدينة نيويورك » .

قال وقد تذكر : « لقد أصبت . إن اللغة الإيطالية ليس بها حرف « الإكس » الإنجليزى . أليس كذلك ؟ »

قال آلان : « وليس بها حرف الـ « جيه » أيضاً » .

ــــ « وما السبب فى ذلك ؟ »

قالت برندا فى لهجة كسولة : « إهمال . فقدها الإيطاليون من شدة الإهمال » .

كانوا كسابق عهدهم وكأنما عاد الماضى . كانت برندا قد طلقت من زوجها « دوب » أو « بوس » ، أو أياً كان اسمه وتركت طفلتيها الصغيرتين مع أمها ، وكانت لا تزال تحتفظ بابتسامتها الغريبة .

فى باريس اصطحبهم فرانك إلى ملهى « كريزى هورس » . وفى ظلامه المخملى الناعم صدحت الموسيقى وسطعت الأضواء الباهرة على ست فتيات يطوحن سيقانهن فى الهواء فى نفس الوقت على أنغامها . كن يرتدين أحذية ذات كعوب عالية وبعض الأحزمة والأشرطة فيجسدن صورة العرى التقليدية التى لا تموت أبداً . كان يستند على كوعه فى الظلام . نظر إلى برندا فقالت : « مازلت منهمكا فى الدراسة ، أليس كذلك ؟ » قضوا ثلاثة أسابيع فى فرنسا أو نحو ذلك . لم يكن فرانك واثقا بالضبط ، وكان يفكر فى قضاء مدة أطول ، وربما فى استئجار منزل فى جنوب فرنسا أو شىء من هذا القبيل . فليصارع العملاء أقدارهم وحدهم لفترة ، ففى لحظة ما يجد المرء نفسه – كما قال – مضطرا إلى الفرار بنفسه بعيدا فترة من الزمن .

تناولوا الإفطار معا فى فنادق صغيرة متنوعة وهم يستمعون إلى أصوات معاول العمال تنقر فى أحجار نافورة أمام الفندق أحيانا ، أو إلى صياح امرأة ثائرة ينبعث من المطبخ ، وزاروا العديد من المدن الصغيرة ، وكانوا يحتسون الشراب كل ليلة . كانوا ينامون فى غرف صغيرة منفصلة تشبه مقصورات عربات النوم أو الكبائن ، وكأنهم مسافرون فى سفينة أوشكت على التلاشى وسط الضباب .

عند الظهيرة تحرك ضوء الشمس عبر قوس المبانى المواجهة وتبدى بعض المارة من بعيد . ارتفع سرب من الحمام طائرا فى موجة واحدة حين أزعجه كلب يتقافز . كان الرجل على المائدة المواجهة لهم ينظر

هنا وهناك خلال منظار مقرب . تهادت فتاتان من السويد أمام المقهى .

قال الرجل : « لقد بدأ السمار يغشى البياض » .

قالت زوجته : « بياض من ؟ »

ـــ « الحمـام » .

همس فرانك : « آلان » .

ـــ « مـاذا ؟ »

ـــ « لقد اسمرت الحمامتان » .

ـــ « خسـارة » .

ران الصمت لحظة .

قالت المرأة : « لماذا لا تلتقط صورة وتريح نفسك ؟ »

ـــ « صورة لمن ؟ »

ـــ « لهاتين المرأتين . إنك لم تكف عن النظر إليهما » .

أزاح الرجل المنظار المقرب عن عينيه .

قالت المرأة : « ما أجمل هذه الاستدارة . إنها تضفى على الميدان طابعا ساحراً » .

قال فرانك مقلداً نبرة صوتها : « ما أروع الطقس اليوم » .

وقال آلان : « والزغاليل أيضاً » .

بعد برهة نهض الزوجان وانصرفا . اندفع طفل يجرى فقفز الحمام طائراً وحلق فوق الميدان وهو يصدر أزيزاً غاضباً . قالت برندا : « يبدو أنكما لم تفقدا روح الدعابة واللعب بعد » . ابتسم فرانك .

قالت ذلك المساء : « ينبغى أن نعيش معا حين نعود إلى نيويورك » . كانا فى انتظار آلان الذى كان لا يزال فى غرفته . مدت ذراعها عبر المنضدة والتقطت إحدى المجلات . قالت : « إنك لم تلتق بطفلتى من قبل أليس كذلك ؟ »

— « لا » .

— « إنهما طفلتان رائعتان » . تصفحت المجلة دون اهتمام . لاحظ أن الشمس قد صبغت ذراعيها من الكوع إلى الرسغ ، وأنها خلعت دبلة الزواج . انتهى الفصل الأول من المسرحية ، أو على وجه أدق الدقائق الخمس الأولى منها وهاهى الحبكة توشك أن تبدأ . قالت : « هل تذكر ليالينا فى حانة جولديز ؟ »

— « كان الوضع مختلفا » .

— « لا يختلف الوضع الآن كثيراً عما كان » .

— « ماذا تقصدين ؟ »

هزت إصبعها العارى من دبلة الزواج ونظرت إليه . فى تلك اللحظة ظهر آلان . جلس إلى المائدة ونقل بصره بينهما وسأل : « ماذا حدث ؟ هل قطعت حديثا خاصا ؟ »

***

حين حان موعد رحيلها طلبت منهما أن يوصلاها بالسيارة إلى روما لقضاء يومين هناك قبل أن تستقل طائرتها . قال فرانك إن روما ليست فى طريقهما .

— « لن تستغرق الرحلة أكثر من ثلاث ساعات » .

قال : « أعرف . لكنها فى الاتجاه العكسى لمقصدنا » .

ــــ « بحق السماء ! لماذا ترفض أن تصحبنى ؟ »

قال آلان راجيا : « دعنا نصحبها » .

ــــ « اصحبها أنت . أما أنا فسأبقى هنا » .

قالت برندا : « كان يجب أن تعمل بالسياسة . إن لديك موهبة حقيقية تؤهلك لها » .

بعد رحيلها تغير مذاق الأشياء والمزاج العام للرحلة . كانا وحدهما دون شريك . قادا السيارة عبر الريف الإيطالى الناعس إلى الشمال . حين بلغا مدينة البندقية ، كانت الأمواج الخضراء تتلاطم برفق فى قنواتها بينما يسدل الظلام أستاره عليها . أضاءت بعض القصور أنوارها بينما حجبت الستائر نوافذ الأدوار العليا حيث تتمدد الكونتيسات ويفردن سيقانهن ، وتنزلق أجسادهن على الملاءات فى نعومة الثعابين .

فى بار فندق « هاريز » رفع فرانك كأسا مثلجة مغبشة ببخار الماء وغمغم ببيت الشعر المفضل لأبيه قائلا : « تصبحين على خير يا مربيتى العزيزة » . تبادل الحديث مع جيرانه على المائدة المجاورة : رجل ألمانى يعمل مديراً لفندق فى دوسلدورف وصديقته . كان قد لاحظ أن الفتاة تطيل النظر إليه فسألها : « هل تريدين أن تتذوقيه ؟ » كانت كأسه الثانية . شربت من الكأس وهى تنظر فى عينيه . قال : « يبدو أنك قد قضيت عليه » .

ــــ « أجل . أحب أن أفعل هذا » .

ابتسم . كان يشعر بهدوء غريب حين يشرب . تذكر أن طائراً قد

حط على حذائه واستقر حين كان فى المنتزهات المحيطة ببحيرة لوجانو فى سويسرا خلال هذه الرحلة .

فى الصباح بدت القناة واسعة كالنهر وعبرها كانت مبانى مجمع المحاكم بألوانها الهادئة ترقد ساكنة على الضفة الأخرى ، وكأنها سفينة غارقة ذات أسقف متعددة تنتثر بينها هنا وهناك قمم بعض الأشجار التى اختبأت جذوعها . كانت أول رياح الخريف تهب وتعكر صفو المياه ، وتحرك سطحها الساكن .

حين غادرا البندقية كان فرانك يقود السيارة . لم يكن يطيق أن يركب سيارة دون أن يكون فى مقعد القيادة . أما آلان فقد استرخى فى المقعد المجاور ونظر من النافذة . كانت أشعة الشمس تسقط على جوانب التلال الأثرية حول المدينة . أيام من التجوال فى ربوع أوروبا ، وهذا الصمت ، ومؤشر السرعة يرتفع ويطفو إلى علامة المئة ميل .

فى مدينة بادوا استيقظ آلان مبكرا . كانوا ينصبون الشوادر فى السوق . لم يكن نور الصباح قد أشرق بعد وكان الجو بارداً . انهمك رجل فى رص مجموعة من الألواح الخشبية على الرصيف صنع منها ثمانى مناضد لعرض أجولة الحبوب والغلال . كان يرتدى سترة بدلة فوق ملابسه . فتش فى سيارة نقل البضائع حتى عثر على بعض قطع الخشب الصغيرة التى استخدمها فى تثبيت الألواح الخشبية ثم ركلها بقدمه حتى يختبر ثباتها .

ارتدت السماء لونا إرجوانيا . تحت البواكى علق الجزارون الدجاج والديوك المذبوحة من أرجلها المربوطة معا ، وانهمك رجلان فى نزع أوراق الخرشوف الخارجية وتشذيبه . مرت عربة الشرطة الزرقاء متهادية كسولة . استقرت أجولة الأرز والبقول الجافة الآن على مناضد

العرض وقد فتحت وانثنت فوهاتها فى ثنية دائرية إلى الخلف كثنية كم القميص . نادته فتاة فى معطف أنيق محكم ترتدى منديلا حول رأسها . « سيدى » . ثم أضافت فى تبجح : « لماذا لا ترد ؟ »

أحس وكأنه يرى العالم لأول مرة . نظر إلى الأرصفة والعمائر والأسماء القديمة التى عمرت أكثر من ألف عام بعيون جديدة . بدا له وكأن سحابة تنقشع عن حياته فتتضح معالمها وتصفى من شوائبها . فى دكان صائغ عبر الشارع رأى فتاة ترتب بعض المصوغات فى فترينة العرض . كانت ترتدى قفازاً أبيض وتؤدى عملها فى حرص شديد . رفعت عينيها بينما وقف يراقبها والتقت العيون لحظة عبر الحاجز الزجاجى المضاء . كانت تمسك بسوار مطعم بحجر اللازورد الأزرق بلون عربة الشرطة . شعر بالجرأة بعد جولته الصباحية فتشجع ورسم بشفتيه كلمتين صامتتين : « كم يساوى ؟ » ردت شفتاها دون صوت : « ٣٧٠ ألف ليرة » . فى الثامنة صباحا عاد إلى الفندق . توقفت سيارة أجرة أمام الفندق ورجت الشارع الضيق رجا . خرجت منها امرأة ترتدى ثياب المساء ودلفت إلى الفندق .

مرت الأيام . فى فيرونا طفت قمم أبراج الكنائس فوق أمواج الضباب وتلتها القباب . جرسونات فى معاطف بيضاء يمرقون من المطبخ . الطبق الأول والثانى وبعده الحلو . توقفا فى مدينة أرتسو . عاد فرانك إلى المائدة يحمل عدداً من البطاقات المصورة . كان الآن يحاول أن يكتب لابنته أسبوعيا لكنه لا يعرف ماذا يقول . هل يصف لها الأماكن التى يزورها والأعمال الفنية والآثار التى يراها . هل يصف لها أعمال الفنان جيوتو . هل ستفهم هذا ؟

جلسا فى السيارة . كان فرانك يرتدى سترة من التويد الناعم نسيجها

مثل الكشمير . اشترى أشياء كثيرة فى مدينة ميسونى ، وكان يتسوق فى كل مكان يحلاّن به – أحذية وسترات لصد الريح . خلال قوس عبر الشارع ظهرت مجموعة من فتيات المدارس يرتدين جونلات داكنة . بعد برهة خرجت فتاة وحيدة . وقفت وكأنها تنتظر شخصا ما . كان آلان يتأمل الخريطة حين أحس بمحرك السيارة يدور . تحركت السيارة إلى الأمام ببطء شديد وانزلق زجاج النافذة إلى أسفل .

سمع فرانك يقول : « بعد إذنك يا آنسة » .

استدارت إليهما . كانت ملامحها صافية ووجهها خال من التعبير وكأنها طائر استدار لينظر إليهما وقد يطير فجأة فى أى لحظة .

سألها فرانك عن الطريق إلى وسط المدينة . نظرت يمينا ويساراً ثم قالت : « هناك » .

قال لها : « هل أنت متأكدة ؟ » وأدار رأسه دون عجلة لينظر فى الاتجاه الذى أشارت إليه دون اهتمام حقيقى .

قالت : « أجل » .

قال لها فرانك إنهما فى طريقهما إلى مدينة سيينا . تلى ذلك فترة صمت . هل تعرف أى طريق يقود إلى سيينا ؟

أشارت إلى الجهة الأخرى .

سأل آلان : « آلان هل تريد أن تأخذها لفة ؟ »

ــــ « ما هذا الكلام الفارغ ! »

انهمك عاملان فى معاطف بيضاء كمعاطف الأطباء فى إصلاح باب

الكنيسة الخشبى من فوق سقالات عالية . مد فرانك ذراعه وفتح باب السيارة الخلفى .

سألها : « هل ترغبين فى نزهة بالسيارة ؟ » وصنع دائرة صغيرة فى الهواء بإصبعه .

تجولوا فى صمت بالسيارة فى شوارع المدينة . كان الراديو مفتوحاً . لم يقل أحدهم شيئاً . نظر إليها فرانك مرة أو مرتين فى مرآة السيارة الأمامية . كان ذلك وقت جريمة القتل الشهيرة التى حدثت فى بولندا ، وذهب ضحيتها أحد القساوسة . غربت الشمس وبدأ الظلام يسدل أستاره ، وأضاءت الحوانيت أنوارها وظهرت الصحف المسائية فى أكشاك بيع الجرائد . تصدرت قمة الصفحة الأولى من صحيفة « كوريير ديللا سيرا » فى الركن الأيمن صورة لجثة الرجل المقتول فى تابوت طويل . كانت فى ملابس نظيفة وبدت كجثة عامل تعرض لحادث مروع .

سألها فرانك من فوق كتفه : « هل ترغبين فى شراب فاتح للشهية ؟ »

قالت : « لا » .

عادوا بالسيارة إلى الكنيسة . خرج فرانك من السيارة واختلى بها بضع دقائق . لاحظ آلان أن شعره قد خف بصورة ملحوظة ، ومن الغريب أن هذا جعله يبدو أصغر من سنه . وقفا يتحدثان برهة ثم استدارت ومضت فى طريقها .

سأله آلان : « ماذا قلت لها ؟ » كان متوتراً .

ــــ « سألتها إن كانت تريد سيارة أجرة » .

— « إننا نمضى فى طريق محفوف بالمخاطر » .

قال فرانك : « لن تكون هناك مخاطر » .

كانت حجرته فى ركن الفندق تطل على شارعين . كانت حجرة فسيحة بها منطقة للجلوس قريبا من النوافذ ، وتفرش أرضها الخشبية سجادتان صغيرتان على الطراز الشرقى . فى الحمام وضع فرشاة أسنانه وعطوره ودهاناته وأدوات الحلاقة والتزين على دولاب صغير تزينه المرايا . كانت المناشف ذات لون أخضر باهت تحمل اسم الفندق بأحرف بيضاء . لم تنظر إلى شىء من هذا . نفح بواب الفندق أربعين ألف ليرة كاملة ، فقد كانت القوانين فى إيطاليا صارمة . جاءت فى نفس الموعد تقريبا الذى التقيا فيه لأول مرة عصر اليوم السابق . انحنى على ركبتيه ليخلع حذاءها عن قدميها .

كان قد أغلق الستائر لكن الضوء نفذ خلالها وأحاط بهما . فى لحظة معينة ارتجفت وانتفض جسدها . قال : « هل أنت بخير ؟ »

لكنها كانت قد أغلقت عينيها .

حين نهض بعد ذلك رأى نفسه فى المرآة . بدا أكثر امتلاءً حول الخصر عن ذى قبل . استدار حتى يخفى العيب بعض الشىء ، واعتلى الفراش مرة أخرى لكنه عجل بالأمر هذه المرة أكثر مما ينبغى . أخيرا قالت : « هذا يكفى » .

بعد فترة خرجا للقاء آلان فى أحد المقاهى . كان من العسير عليه أن ينظر إليهما فاندفع فى حديث أبله . سألها ماذا تدرس فى المدرسة . صاح فرانك : بحق السماء ! أهذا سؤال يليق ؟ حسن . ماذا يعمل والدها إذن ؟ لم تفهم السؤال .

— « ما هو عمله ؟ »

قالت : « الأثاث » .

— « هل يبيعه ؟ »

قالت بالإيطالية : « يصلحه » .

قال آلان شارحا : « فى بلدنا لا نصلح ما انكسر » . ثم أضاف بإشارة من يده : « إننا نتخلص منه .. نرميه » .

قال فرانك بحسم : « يجب أن أعود إلى الجرى مرة أخرى » .

كان اليوم التالى هو عطلة السبت . جعل البواب يطلبها ويعطيه سماعة التليفون .

— « هاللو إدا . أنا فرانك » .

— « أعـرف » .

— « ماذا تفعلين ؟ »

لم يفهم إجابتها .

قال : « سنذهب إلى فلورانسا . هل ترغبين فى الذهاب معنا إلى فلورانسا ؟ » لم يجبه سوى الصمت على الطرف الآخر . « ما رأيك فى أن تصحبينا وتقضى معنا بضعة أيام هناك ؟ »

قالت : « لا » .

— « ولم لا ؟ »

قالت فى نبرة أكثر هدوءًا : « وكيف أبرر غيابى ؟ »

— « فكرى فى عذر » .

حول منضدة على الطرف الآخر من الحجرة التف عدد من الأطفال يتسلون بلعب الورق بينما جلست ثلاث سيدات فى ملابس أنيقة يتبادلن أطراف الحديث هن أمهات الأطفال . عند القاء أوراق اللعب كانت ترتفع صيحات الحماس والانفعال .

— « إدا ؟ »

كانت لا تزال على الخط . قالت : « سأفعل » .

فى التلال كانوا يحرقون أوراق الأشجار الذابلة . لم يروا أى دخان لكنهم شموا الرائحة وهم يعبرونها - رائحة كتلك التى تنبعث من المطاعم أو من مصانع الورق ذكرت فرانك فجأة بطفولته وبالبيوت الريفية ، وجمع الأوراق الجافة من الحديقة مع والده فى الزمن البعيد . بدأت لافتات الطريق الخضراء تعلن « فيرنتسا » ، وهى الاسم الإيطالى لفلورانسا ، وبدأ المطر يتساقط . أنزلقت المساحات دون صوت على زجاج السيارة وبدا كل شىء جميلا خابيا .

تناولوا العشاء فى مطعم تشبه قاعاته البسيطة ذات الجدران المطلية بالجير الأبيض سراديب الأقبية القديمة . بدت كطفلة صغيرة أو ككلب صغير ، فقد كان بياض عينيها شديد الصفاء . لم تقل إلا كلمات معدودة وأنشغلت بشريط من الورق الوردى انفصل عن قائمة الطعام فأخذت تلعب به .

فى الصباح تجولوا فى المدينة لا يلوون على شىء . كانت البضائع المعروضة فى نوافذ المحلات لا تصلح لسنها بل تناسب نساءً أكبر سنا ، فى الثلاثين على الأقل - أثواب حريرية وسوارات وإيشاربات .

فى متجر « فندى » شاهدوا معطفا جميلا وضع ثمنه أسفله بأرقام معدنية .

سألها : « هل يعجبك ؟ تعالى . سأشتريه لك » .

داخل المتجر قال لهم إنه يريد أن يرى المعطف المعروض فى النافذة .

ـــ « من أجل الآنسة ؟ »

ـــ « أجـل » .

بدت وكأنها لا تفهم شيئا مما يدور حولها . ضاع وجهها وسط الفراء . مد أصابعه خلاله ولمس خدها .

قال آلان : « هل تعرف كم سيكلفك هذا ؟ أربعة ملايين وخمسمائة ألف ليرة » .

سألها فرانك : « هل يعجبك ؟ »

ظلت مرتدية له ، بل وجلست تشاهد مباريات كرة القدم على شاشة التليفزيون وهى بداخله وقد ثنت أرجلها تحتها . كانت الحجرة فى حالة من الفوضى الضاربة إذ لم يبرحاها طوال اليوم .

قال آلان فجأة دون تمهيد : « ما رأيك أن نرحل من هنا ؟ » ضجت الحجرة بصيحات المعلقين على المباراة بالإيطالية . أضاف : « خطر لى أن نذهب إلى « سبوليتو » . أريد أن أراها » .

قال فرانك : « طبعا . أين هى ؟ » كانت يده تستقر على ركبتها وتدلكها برفق شديد ، كما يدلك المرء فراء قطة ناعسة .

***

كان الريف منبسطا يلفه الضباب . تركوا الماضى وراءهم بأكوابه القذرة ومناشفه الملقاة على أرضية الحمام . لاحظ فرانك بقعة على طية

سترته وهو فى قاعة الطعام . حاول أن يزيلها بينما انهمك رئيس الجرسونات فى بشر الجبن « البارميزان » فوق طبقه . بلل طرف فوطته بالماء ودعك البقعة . كانت مائدتهم قريبة من باب القاعة يراها الجالس على مكتب الاستقبال . انشغلت إدا بتثبيت حلق فى أذنها .

قال له آلان : « غطها بفوطتك » .

قال لإدا : « هل يمكنك إزالة هذه البقعة ؟ »

أخذت تخدشها سريعا بظفر إصبعها .

قال فرانك : « ماذا سأفعل دونها ؟ »

ــــ « ماذا تعنى « دونها » ؟ »

قال : « هذه هى سبوليتو إذن ! » كانت البقعة قد اختفت .

ــــ « فلنشرب كأساً أخرى من النبيذ » . نادى الجرسون ثم قال لإدا : « نادى عليه واطلبى النبيذ » .

اندمجا فى حديث ضاحك عن الأيام الخوالى حين كانا يتقاضيان ثمانمائة دولار فى الأسبوع لقاء العمل عشر ساعات ، أو ربما لاثنتى عشرة ساعة يومياً . تذكرا « ويلاند » والعروق النافرة فى أنفه وكلمة « واضح » التى كان يصف بها كل شىء ، كأن يقول مثلا : إن شهادة هذا الشاهد واضحة أكثر مما ينبغى ، أو تحوى مبالغات واضحة ، أو أن هذا الديكور واضح ... الخ .

تركا المطعم وهما يتحدثان بصوت عال ومشت إدا بينهما فى معطفها الضخم الباهر . غمغم موظف الاستقبال بالإيطالية حين خرجوا إلى الشارع : « فى داهية . قمامة » . نظرت إليه عاملة التليفون من مكانها

أمام لوحة الخطوط ، وأضافت : « إلى التراب والوحل » . شيعتهم خارج المطعم هذه العبارات التى تتناول القمامة والوحل والتراب .

صارت الأيام باردة حتى بالنهار وتكومت أوراق الأشجار الذابلة حول أرجل موائد الحديقة . جلس آلان وحده فى بار الفندق . دخلت عاملة البار التى تحمل شامة فوق فمها وبدأت فى تشغيل آلة صنع القهوة . نزل فرانك من حجرته ، وقد ألقى على كتفيه معطفا وانضم إليه . بدا فى قميصه المفتوح دون ربطة عنق وكأنه أحد المرضى الأثرياء فى أحد المستشفيات ، أو كرجل أعمال يمتلك شركة للإنتاج الزراعى قضى الليل كله فى لعب القمار .

قال آلان : « هيه ؟ ما رأيك ؟ »

جلس فرانك وعلق قائلا : « يوم بديع . ربما كان من الأفضل أن نقضيه فى نزهة ما » .

كان صوتاهما الصوتين الوحيدين فى الحجرة ، بل ربما فى الفندق كله . كانا يتحدثان فى نبرات خافتة متقطعة كأنها ضربات مكنسة خفيفة على الأرض . صوت مكتوم يتبعه آخر .

ــــ « أين إذا ؟ »

ــــ « تأخذ حماما » .

ــــ « لا أريد أن أرحل دون أن أودعها » .

قال فرانك : « ماذا حدث ؟ »

رأى آلان وجهه منعكسا فى المرآة خلف البار يحيط به شعره الأصفر بلون الرمل . بدا شاحبا بعض الشىء ، باهتا لا وجود له . قال : « لم

يحدث شيء » . كانت إدا قد نزلت إلى البار وجلست فى الطرف الاخر من الحجرة . أحس بضيق فى صدره . قال : « أوروبا تصيبنى بالكآبة » .

كان فرانك يحدق فيه : « هل إدا هى السبب ؟ »

ـــ « لا . لا أعرف » . لف المكان سكون عميق . وضع آلان يديه فى حجره ليخفى ارتجافهما » .

قال فرانك : « هل هذا كل شيء ؟ لنتقاسمها إذن » .

ـــ « ماذا تعنى ؟ » لم يكن هذا ما يود قوله لكن التوتر منعه من قول ما يريد . استرق النظر إلى إدا . كانت تتأمل شيئا فى الحديقة خارج الفندق .

صاح فرانك إليها : « إدا . هل تريدين شراباً ؟ ماذا أحضر لك ؟ » أتى إشارة بيده بأن رفع الكأس إلى فمه . فى الجامعة كان محبوبا من الجميع ، وكانت له شعبية واسعة فاختزل الزملاء لقبه العائلى من « شوفورد » إلى « شوف » ثم إلى « شوز » ، كما أنه اشترك فى مسابقات الجرى التى تقيمها الجامعة ، وكانت أمه من عائلة عريقة تمتد شجرتها إلى ستة أجيال كاملة .

قالت : « عصير البرتقال » .

ها هما يجلسان ويتحدثان بصوت خافت كالعادة . قالت إدا لنفسها : لابد أنهما يتحدثان عن أعمال وأمور تتعلق بنيويورك .

حين عادا إلى الفندق ذلك المساء شرح لها فرانك الموضوع . فهمت ما يرمى إليه على الفور وقالت لا وهزت رأسها بالرفض . كان آلان ينتظر وحيدا فى البار ويحتسى مشروبا كحوليا مسكراً . لن يتحقق

الأمر . إنه يعرف هذا . لا يهم على أية حال . لكنه رغم ذلك شعر بالخجل من نفسه . لكن الفندق نفسه بممراته الساكنة وغرفه الهادئة كان يوحى بذلك وإلا فما الهدف من كل هذا الهدوء ؟

دخل فرانك إلى البار ومعه إدا . استدار وواجههما بصعوبة . كانت تبدو وكأن إحساسها قد مات . لم يستطع أن يستشف إحساسها . سألها أخيرا أن تخمن اسم المشروب الذى يحتسيه . لم تفهم السؤال . رأى فرانك يومىء برأسه إيماءة خفيفة وكأنه يشير إليه بالموافقة . كانا أشبه بلصين .

سطعت أول خيوط النور زرقاء على زجاج النافذة . سمع صوتا كصوت المطر فى الخارج . كان صوت أوراق الأشجار الجافة تذروها الرياح فى الحديقة . انزلق آلان من الفراش ليحكم إغلاق النافذة . نظر إلى أسفل ورأى تمثالا أبيض يلتمع بين الشجيرات التى كادت تخفيه ، وبضع عربات فى ساحة الانتظار ترسل بريقا خافتا . كانت نائمة وتحت رأسها وسادة كبيرة ناعمة . كان يخشى إيقاظها . همس : « إدا . إدا » .

فتحت عينيها فتحة صغيرة ثم أغلقتهما . إنها صغيرة على أية حال وتستطيع أن تستمر فى النوم أكثر منه . خاف أن يلمسها . إنها تعسة . كان يعرف هذا من رقبتها العارية ، من شعرها ، من أشياء أخرى لا يراها . سيستغرق الأمر وقتا حتى يعتادا هذا الوضع . احتار ماذا يفعل ؟ لكن الوضع باستثناء هذه الحيرة كان مثاليا . كان وضعا طبيعيا ومنطقيا بل وبديهيا . سيشترى لها هدية هو الآخر ، هدية جميلة .

دخل الحمام وتوقف طويلا أمام النافذة . كان يفكر فى أول يوم التحقا فيه بالعمل هو وفرانك فى مكتب « ويلاند وبراون » . لم يفترقا منذ ذلك اليوم . تأمل الخريف فى حدائق « فينيتو » . لم يشرق نور الفجر بعد .

سيذكر دائما لقاءه الأول بفرانك . بدونه لم يكن ليقدم على هذه المغامرات . فجأة خرج من أحد أبواب الفندق شاب يرتدى قبعة وعبر ممر دخول السيارات وامتطى دراجة بخارية . انبعث صوت خافت من محركها حين أداره . أضاء مصابيحها الأمامية وانطلق بسلة حمل المشتريات خلفه . سيذهب ليحضر الخبز الساخن لوجبة الإفطار . إن حياته بسيطة تخلو من التعقيدات . كان الهواء نقيا منعشا . إنه جزء من هذا النظام الكبير الثابت المستقر الذى يضم كل العاملين من أجل لقمة العيش ، الذين يحيون فى عالم يخلو من النور ولا يدركون النعم القابعة فى الأدوار العليا فوق رؤوسهم .

« كـــان . . يــكـون »

باربرا جريزوتى هاريسون

قال جويل : « الحياة بشعة » . بدا عليه شعور واضح بالسعادة وهو ينطق بهذه الجملة . ردت لورا : « لا . إنها ليست بشعة » . قالت لنفسها : إنه بذىء ، وأضافت بصوت عال : « الحياة مليئة بالبهجة والسعادة وكل مشاكلنا من صنع أيدينا » . لم تكن تؤمن بهذا تماما بالطبع . وهل يصدق هذا عاقل . لكن أغاظها أن ترى جويل يجلس فى مطبخه الذى تغمره الشمس يلف سجائره (طبعا . دخله الكبير يسمح له بالتدخين) ويتحدث بمتعة شديدة عن بشاعة الحياة بينما تمضى حياته هانئة ناعمة خالية من المشاكل . ألا يكفيه أنه يجلس إلى منضدة طعام مستديرة من خشب البلوط ، وينام على سرير مزدوج بأعمدة نحاسية ؟ كيف يصف الحياة بأنها بشعة ؟ قالت لورا لنفسها : حتى لو ذهب إلى معبد البانثيون فى روما سيظل ينكر السعادة ! كانت لورا فى الماضى تقيّم البشر وفق استجابتهم لهذا المعبد الذى كانت تشعر فيه بالسعادة الكاملة والأمان الكامل ، بل وتعتبره دليلا دامغا على أن العالم خيِّر . كانت تود لو أنها انزلقت على أرضه الرخامية فوق طبقة رقيقة من الجليد تحت السحب الطافية فوق قبته المفتوحة . لقد قال جويل إن « تذوقها الجمالى » للبانثيون – هكذا وصف إحساسها به – هو مسألة تكيف اجتماعى ، نتيجة لنشأتها وتربيتها فى الطبقة الراقية ، وحاول أن

يقنعها بأنها تحب هذا المعبد لأنه يذكرها بقباب البنوك فى شارع وول ستريت .

قالت لورا وهى تضحك من الفكرة – كيف يشبه البانثيون ببنك فى شارع وول ستريت ؟! – قالت : « لماذا لا تقرأ السيرة الذاتية للمثال الإيطالى بنفونوتو تشلليني ؟ قد تلهمك شعورا بالفرح والسعادة . كانت قد انتهت لتوها من قراءتها للمرة الثانية وقد ألهمتها إحساسا عارما بالسعادة . نظرت ميريام زوجة جويل بإشفاق إلى لورا . كانت تقطع بضع حبات من البصل الصغير على اللوح الرخامى المجاور للحوض . قالت لورا لنفسها : إن ما يفصل بين الإشفاق والتكبر هو خيط رفيع . كان آخر شيء يريده جويل وميريام هو أن يلفت أحد انتباههما إلى وجود السعادة فى معظم الأحوال . لقد كانا يرثيان لحال لورا لأنها كانت تعلن إيمانها بوجود السعادة أمامهما ، وهو إيمان لا يتسق مع عقيدتهما الغريبة . ورغم إيمانها بوجود السعادة لم تكن لورا نفسها سعيدة .

قالت : « ماذا ؟ »

كانت تتأمل تعاستها حين شرع جويل فى الحديث عن مظهر جديد من مظاهر القهر الطبقى . كان جديداً فعلا هذه المرة : وهو « القبلية » . رفضت لورا أن تخوض فى الحديث عن « القبلية » أياً كان معناها . « إن العالم ليس عبارة عن مجموعة من المؤامرات » . قالت هذا على أمل أن تصد النقاش المحتوم حول من يتآمر مع من لتدمير العالم الثالث الذى كان جويل وميريام يدعيان الانتماء إليه ، ويبرران ذلك بأسباب غريبة سمعتها لورا مراراً وتكراراً لكنها رفضت أن تعمل خيالها فى فك مغاليقها . تنهد كل من جويل وميريام فى نفس واحد . قالت لورا : « إن العالم لا يتكون من بشر لا هم لهم إلا حياكة المؤامرات » . لم تكن لورا متأكدة إذا كانت حقا تريد أن تتجنب هذا الحديث المعتاد عن المؤامرات

والمتآمرين ، فرغم أنها كانت تشك أحياناً أنها مختلة عقليا بعض الشيء إلا أنها كانت تحب من آن لآخر أن تتلقى أدلة جديدة تثبت لها أن جويل وميريام مجانين رسميين . قالت لنفسها : إننى على الأقل لا يتملكنى الغرور بنفسى أو بآرائى .

قالت ميريام : « كلهم سواء » .

قالت لورا : « من هم ؟ من تقصدين بـ « كلهم » ؟ هل بنفونوتو تشلليني واحد منهم ؟ هل هو أيضاً أحد المتآمرين ؟ »

تبادل جويل وميريام النظرات . كانت ميريام تَبْشُرُ بعض الجنزبيل لتتبل به شرائح اللحم الفاخرة .

قال جويل : « سأضرب لك مثلا : هل يمكنك أن تدعى أن السيدة المسنة التى تعيش فى الطابق الأرضى هى المسئولة عن مشاكلها ؟ » أخرس السؤال لورا . كانت هذه المرأة المسنة على وشك أن تُطرد من شقتها بعد أن تخلى عنها أبناؤها . وقد فسر جويل هذا الموقف الحزين تفسيراً معقداً وأرجعه إلى المؤامرات التى تحيكها الشركات متعددة الجنسيات وفروعها الضاربة فى كل مكان ، واختص باللوم رجال الأعمال والبنوك فى الجنوب .

صاحت لورا : « إننى أمقت فرويد بقدر ما أمقت ماركس . أليس من الأفضل أن نعطى هذه السيدة المسنة التى تعيش فى الدور الأرضى شريحة من هذا اللحم الفاخر ؟ ألن يساعد هذا فى تخفيف وطأة القهر الواقع عليها إلى حد كبير ؟

قال جويل : « إن المافيا الإسرائيلية تتواطىء مع السوفيت ، وسيتضح لك الدور الذى تلعبه الشركات متعددة الجنسيات إذا تأملت ... » .

قالت لورا : « لماذا لا ندعو هذه الجارة المسكينة لتشاركنا العشاء ؟ »

قالت ميريام وهى تضع ثلاثة أطباق على المائدة : « شرائح اللحم جاهزة » .

قال جويل : « إن ما ينقصك هو رؤية شاملة للعالم » . قالت لورا لنفسها : إنه على حق . وألقت بها الفكرة فى هوة الاكتئاب .

* * *

كانت لورا قد تشاجرت مع جويل منذ عدة شهور حين حاول أن يعين نفسه وصياً عليها فى الكلية الأهلية التى كانت تدرّس فيها مادة اللغة الإيطالية لطلبة الصف الأول ، وكان هو يجاهد ليحتفظ بوظيفته فى قسم الاجتماع . لم يكن ينقص لورا فقط – فى رأيه – رؤية شاملة للعالم ، بل كانت تحتاج أيضاً إلى الوصاية الفكرية . ولما كانت لورا فى ذلك الوقت أيضاً ينقصها الأصدقاء ، فقد قررت أن تسلى نفسها بصحبة جويل وميريام والاستماع إلى آرائهما الغريبة التى حاولت جاهدة أن تأخذها مأخذ الجد ، وإلى حديثهما الذى لا ينقطع عن استحالة تحقيق السعادة فى مجتمع يعانى من التفرقة الطبقية . وذات يوم قالت : « إنك عجيب حقا . إنك لا تعرف شيئا عن حياة البشر الحقيقيين فى العالم الحقيقى . إن العالم الحقيقى لا يتشكل من قاهرين ومقهورين ، إنه يتشكل من بشر من لحم ودم يتأرجحون بين السعادة والشقاء ، بين الخير والشر وفق درجة علمهم أو جهلهم . وأنا واحدة من هؤلاء . إننى لا أستطيع أن أتخيل لماذا أجلس هنا إليك لأستمع لهذا الهراء » .

قال جويل حينذاك : « لقد علموك أن تفكرى هكذا » .

ردت لورا بصفاقة : « أجل . فى صالون التجميل » . بعدها كانت القطيعة .

هذا المساء قابلت جويل عند الجزار ودعاها للعشاء ، ولما كانت تعاستها قد اتخذت شكل اللامبالاة والكسل ، فقد قبلت دعوته . كلفها القبول صعود ستة طوابق حتى تصل إلى شقة جويل وميريام المتواضعة « عن قصد » وقد مهد هذا لحالة الغضب والحنق التى انتابتها فيما بعد . كانت تعرف جيداً أن جويل وميريام يستطيعان أن يشتريا العمارة بأكملها لو أرادا ، وأن كل هذا العناء فى صعود السلالم كان إدعاءً محضاً لصالح هدف غامض فوق إدراك لورا .

قال لها جويل : « إن إقامتك الطويلة فى إيطاليا قد أفقدتك القدرة على فهم الواقع » .

كانت لورا قد أقامت فى إيطاليا عشر سنوات سعيدة حتى حدث أن تعرضت للاغتصاب والسرقة فى منطقة « التراستيفيرا » . كانت تعيش هناك فى شقة فى الطابق السادس ، وكان عليها أن تصعد كل هذه الدرجات – ويالها من درجات ! – ولكن الجائزة التى تعوض هذا الجهد كانت منظر كاتدرائية سانت بيتر وشرفة واسعة تترعرع فى أرجائها الزهور والياسمين . قالت : « لكن روما – رغم كل شىء – تمثل العالم الحقيقى . ما الذى يجعلك تصف مكانا بأنه أقل واقعية من مكان آخر ؟ »

قالت ميريام : « كنت أظن أنك تحبين الفول المنبت . ألا تريدين المزيد ؟ »

قال جويل : « إنه يتشدق بالعدل الاجتماعى لكنه يناصر مبدأ النظام الإلهى » . كان البابا هو المقصود بالكلام .

أثناء إقامتها فى روما فكرت لورا كثيرا فى الواجبات الدينية التى تفرضها الكنيسة الكاثوليكية على أتباعها ووجدتها مجحفة ، فوق طاقة البشر . فلو أنها كانت تنتمى إلى العقيدة الكاثوليكية الآن – قالت لنفسها – لكان من واجبها أن تحب ميريام وجويل وهذا أمر مستحيل . ثم تذكرت كلمات الشاعر بليك التى تقول : « إن حب الأعداء خيانة للأصدقاء ، وبالتأكيد كان المسيح يقصد شيئا آخر » . فهمت مغزى الكلمات . لكن المعنى الذى يرمى إليه الشاعر يتعارض مع أى رؤية شاملة للعالم ، وخاصة تلك التى تنادى بها روما وعقيدتها الكاثوليكية . وإذا كان هذا هو الحال ، وإذا كانت تعنى حقا ما قالته حين أعلنت أنها تكره فرويد بقدر ما تكره ماركس ، ما هى عقيدتها إذن ؟

قالت ميريام : « خذى شريحة أخرى . أرجوك . إن الكلب لا يحب طعم الجنزبيل » .

***

حين عادت لورا إلى المنزل وجدت ابنتها تقرأ رواية للكاتبة إيديث وارتون . قالت لورا : « كيف الأحوال ؟ هل تعجبك إيديث وارتون ؟ » رفعت الابنة عينيها من صفحات الكتاب ثم اصطنعت الحول . قالت لورا : « حين كنتِ فى الشهر الخامس عشر من عمرك كنت تتحدثين الإنجليزية والإيطالية . فما الذى حدث حتى أنك الآن نادراً ما تنطقين بأيهما ؟ ما السبب ؟ » . لم ترد الابنة . قالت لورا لنفسها ربما كانت مشغولة بتكوين رؤية شاملة للعالم . فليساعدنا الله .

***

فى الثانية بعد منتصف الليل قررت لورا أن تدون بصورة عشوائية قائمة بعشرة أشياء تحبها :

ـــ الكنائس المبنية على طراز الباروك - مثل كنيسة جيزو ، وكنيسة القديس أوغسطين ، وكنيسة القديس اجناتزيو . وضعت كل هذه الكنائس تحت بند واحد .

ـــ الجرانيته بطعم القهوة .

ـــ الخط العربى .

ـــ ركوب الحنطور .

ـــ أغانى فرانك سيناترا .

ـــ فيلم « إننى أعرف طريقى » الذى عرض عام ١٩٤٥ تقريبا ، والذى تتزوج فيه البطلة وندى هيللر البطل روجر لايفزى ويعيشان فى تبات ونبات . كانت وندى تلعب دور ابنة كاتب فى أحد البنوك ، تتمتع بشخصية مستقلة صعبة المراس ، وتحلم بالثروة . وكان روجر يلعب دور نبيل اسكتلندى رقيق الحال ، مهذب وأنيق فى سلوكه ، يؤمن بمبادىء الفروسية وواجب القوى فى الدفاع عن الضعيف (قال لها جويل حين عرضت الفيلم على جهاز الفيديو الخاص به : « إنه فيلم من أيام الحرب ، هدفه الدعاية فهو يبث رسائل ماكرة مقنعة تتعلق بالتفرقة الطبقية ، إنه وسيلة من الوسائل التى استخدموها لتخدير الطبقة العاملة فى بريطانيا حتى يقنعوهم بأن الحرب توحد كل الطبقات » . ردت عليه لورا آنذاك : « إننى للأسف لا ألتقط الرسائل الماكرة . إنها تمر فوق رأسى .. تضيع علىَّ . ما وصلنى هو قصة الغرام الذى جمع بين قلبيهما . وهذا يكفينى ») .

ـــ منظر الأفق فى مدينة نيويورك .

ـــ ملمس جسد ابنتها .

ـــ أبوها الذى مات .

ـــ الياسمين الأبيض .

ـــ فطيرة البيتزا التى يصنعها مطعم بيشينولا . تذكرت الرجال الثلاثة الملثمين الذين اغتصبوها وسرقوها فى حارة من حوارى منطقة « التراستيفيرا » فشطبت البيتزا على طريقة بيشينولا ، ثم أعادت النظر فى الأمر ودونتها مرة أخرى .

وصلت القائمة إلى أحد عشر بنداً . حذفت بند الخط العربى ، ثم أضافت :

ـــ الشوكلاته ذات المذاق الحلو المائل للحموضة ومعبد البانثيون .

تأملت القائمة . لا . إنها لا تشكل فى رأيها رؤية شاملة متكاملة للعالم بأى حال من الأحوال . رأت لورا أنه قد يكون من المفيد فى علاج حالتها أن تدون قائمة بعشرة أسئلة هامة .. هامة بالنسبة لها : ألاّ يؤذينا الغباء فى كل الأحوال ؟ أيهما أهم : الإحساس أم العقل ؟ وهل يعتمد كل منهما على الآخر ؟ لم تكن متحمسة لمشروع قائمة الأسئلة هذا . أصابها الفتور من فرط سذاجة ما تفعل وما تكتب فاتجهت إلى حجرة ابنتها . كانت الطفلة لا تزال منغمسة فى رواية إيديث وارتون . سألتها لورا : « ما رأيك أن نعود إلى روما ؟ » تركت الابنة الكتاب يسقط من يديها وتظاهرت بالاستسلام للنوم بمبالغة واضحة .

***

فى الليلة التالية تلقت لورا مكالمة تليفونية من أحد أصدقاء جويل ومريام – رجل يدعى ستيف – كانت تشعر نحوه بنفور شديد رغم حقيقة أنه قضى وقتا طويلا فى مصحة يُعالج من انفصام فى الشخصية ، وكان هذا جديرا بأن يثير تعاطفها معه – قالت لورا لنفسها – ولكنه لم يحدث . كان ستيف يثرثر فى السماعة فسألت نفسها هل يمكن أن تظل مشاعر التعاطف حبيسة الصدور دون أن تخرج إلى النور أبداً ؟ . صدر فى إيطاليا قانون يعلن أن جميع الناس عقلاء وليس هناك ما يسمى بالجنون .

ونتيجة لهذا القانون انطلق المجانين والمصابون بالشيزوفرنيا فى الشوارع يجوبونها فى حرية كاملة . كان هذا سببا إضافيا لعودتها إلى بيتها فى مدينة نيويورك التى تغص شوارعها هى الأخرى بالمجانين . كان ستيف يطلب منها أن تنضم إلى مسيرة احتجاج . كان الأمر يتعلق برجل أعمى ، يريدون طرده من مسكنه ومعه كلبه المدرب . ردت لورا : « آسفة . إننى مشغولة الليلة » .

قال ستيف : « إننى لم أخبرك بعد بالميعاد ، وهو بالنهار لا بالليل » .

قالت لورا : « إننى لا أطيق الزحام » .

قال ستيف : « لا أعتقد أن العدد سيزيد عن أربعة أو خمسة أشخاص » .

قالت لورا : « إذن لن تأتى المسيرة بنتيجة » . ثم أضافت كذباً : « اسمع .. إننى جد آسفة ولكننى مشغولة جداً بتصحيح أوراق الامتحانات » .

اتصلت لورا تليفونيا بشركة الخطوط الجوية « بانام » وشركة « تى . دبليو . ايه » لتستفسر عن أسعار التذاكر إلى روما ، ثم اتصلت ست مرات بست شركات سياحية وحجزت ست تذاكر : اثنتين فى الدرجة الأولى ، واثنتين فى درجة رجال الأعمال ، واثنتين فى الدرجة السياحية (التى كانت ترفض أن تسميها « العربة » وفق العرف الشائع) .

تجنبت جويل فى اليوم التالى حين ذهبت إلى الكلية . سهل من الأمر عليها أن جويل نفسه بدا مصراً على تجنبها . فى محاضرة بعد الظهر كان الدرس هو تصريف فعل « يكون » بالإيطالية : « أريد أن أكون فى أحضان جويل » . مرقت هذه الفكرة فى رأسها كالسهم . أحست بالدهشة

لكنها لم تنزعج . قلبت الفكرة فى رأسها باهتمام . لم تكن لورا قد شاركت رجلا الفراش منذ الليلة التى اغتصبها فيها الرجال الثلاثة الملثمون ، أى منذ سنتين . فى بداية صداقتها مع جويل حكت له الحادثة ، وفسرها لها بأنها نتيجة للقهر الطبقى . قال لها إنها لم تكن أكثر من رمز بالنسبة لهؤلاء الرجال ، رمز لكل العوامل التى كانت تجعلهم يحيون حياة وضيعة ، وأن عنفهم إزاءها لم يكن موجها لها هى « شخصيا » . قالت لنفسها : بل كانت الحادثة نتيجة لأننى مشيت وحدى فى حارة مظلمة ، لأننى كنت فى المكان غير المناسب فى الوقت غير المناسب . فى تلك الليلة المشئومة لم تشعر بأنها مجرد رمز . لكنها تركت نفسها تنساق وراء تفسير جويل وتجد فيه بعض العزاء . هدهدت الكلمات مشاعرها وجعلتها تعتقد تدريجيا أن مغتصبيها لم يختاروها هى بالذات عن عمد ، ولا هى اختارتهم أو كان لها خيار فى الأمر كله . أشرقت تلك الفكرة الأخيرة داخل عقلها المشوش بالطبيعة الذى كان أحياناً يجمع شتاته فى بؤرة من التركيز المتوهج ، وإن أصابته البلادة ليلة الحادثة . كانت هذه صورتها عن نشاطها الذهنى ، فقد كانت لورا ترى عقلها ، وكأنه سلسلة من الدروب الضيقة المظلمة المتعرجة التى تعشش فيها الرغبات والذكريات والتى كانت أحيانا تقود إلى ساحة دائرية يغمرها الضوء الباهر . كثيراً ما كانت ترى نفسها تقطع هذه الدروب المظلمة ولكنها لم تعرف أبداً متى يجىء النور . قالت لنفسها : ياللغباء ! ثم تأملت هذه العبارة التى نطقت بها فى صمت وتساءلت : غباء من ؟ غبائى ؟ أم غباء جويل ؟ من المقصود فى هذه العبارة ؟

***

دعت لورا جويل وميريام للعشاء فى بيتها دون أن تدرى سببا لذلك . بدا لها الأمر وكأنه يتعلق بابنتها بطريقة ما ، لكنها فشلت فى تحديد طبيعة العلاقة . ليت الحياة كانت تنحصر فى تصريف الأفعال . سيتوقع

كل من جويل وميريام أطباقاً إيطالية . كانت لورا طاهية ممتازة . وقررت أن تعد وجبة إيطالية . لكنها في النهاية اختارت « الكارى » على الطريقة الهندية الذى يمثل لغزاً محيراً بالنسبة لها ، كانت تريد أن ترى جويل يأكل بأصابعه من الطبق لأسباب قد تتضح لها إن عاجلاً أو آجلا .

تساقطت قطرات من صلصة الكارى المنفرة لونا ورائحة وقواما على لحية جويل . علّق على الكارى قائلا إنها لم تضف قدراً كافيا من الشطة ، متجاهلا عيوبه الأخرى الواضحة . راقبت لورا فى انبهار القطرات الصفراء الرمادية الغليظة ، وهى تختلط بشعر لحيته الأسود والرمادى . حافظت ميريام على آداب المائدة بقدر ما استطاعت . أما ابنة لورا فكانت تأكل وهى منغمسة فى رواية **صورة امرأة** لهنرى جيمس وقد أسندت الكتاب إلى كوب الماء أمامها . غرف جويل لنفسه المزيد من هذا الخليط الغامض ، وبدأ يشرح أسباب الجوع فى العالم الثالث . كانت لورا تتوقع هذا التحول فى مجرى الحديث وتخشاه بقدر ما تتمناه ، فقد كانت تعلم أن حديثه سيثير حنقها ، لكنها منذ ليلة شرائح اللحم بالجنزبيل تشتاق إلى معايشة هذا الإحساس فى حضور جويل .

قالت لورا : « لقد قررت العودة إلى روما » . أجهضت جملتها الحديث عن الجوع الذى فشل فى إثارة حنقها بالدرجة الكافية .

سألت ميريام ابنة لورا : « ما رأيك فى هذا القرار ؟ »

قالت لورا : « لا تسأليها عن رأيها بل بالأحرى عن إحساسها ، ففى مثل هذه الظروف يسترشد الإنسان بإحساسه لا بعقله » .

قلبت ابنة لورا صفحة من الكتاب بيدها اليسرى .

شرع جويل فى الحديث عن نشأة وأصول القبلية فى الهند والباكستان .

قالت لورا : « ألن يناقشنى أحد فى قرارى هذا مناقشة جادة ؟ لقد قلت إننى سأعود إلى روما . إننى أتحدث عن حقيقة ، عن شىء واقع . إننى أخاطبكم . ألو .. ألو .. هل من مجيب ؟ »

سألت ميريام ابنة لورا : « ما رأيك فى هنرى جيمس ؟ »

صاحت لورا : « يا إلهى ! اطلبى منها أن تصرف فعل « كان .. يكون » أو « أحس .. يحس » فى الإيطالية . هل تعلمين أن الإيطالية ليس بها فعل مناظر للفعل الإنجليزى « يحس » ؟ إن هذه الحقيقة تثير اهتمامى وفضولى أكثر من الباكستان ولورد ماونتباتن إذا أردتم الحق » .

حين كان كل من جويل وميريام يغرفان الطبق الثالث من الكارى ، رن جرس التليفون وكان المتحدث ستيف . غيرت لورا صوتها بسهولة وقالت : « آسفة . لقد أخطأت الرقم » .

قالت ابنة لورا بصوتها العالى الواضح النبرات : « إن أمى تكذب » .

قالت لورا : « أجل . هذا حقيقى . وإنى لأجدك قد عثرت على صوتك أخيراً » .

أخذت الابنة تردد بالإيطالية : « أكون ، يكون ، تكون ، نكون ، يكونوا ، يكن ، أحس ، يحس ، تحس ، نحس ، يحسون ، يحسسن » .

اجتاح لورا شعور مفاجىء بالسعادة الغامرة ، وبدأت فى التو واللحظة تسأل نفسها عن سر سعادتها .

سألت : « ما الفرق بين السعادة والبهجة ؟ »

قالت ابنتها : « إنها تروح وتجىء » .

قالت لورا : « أيهما ؟ »

اصطنعت الابنة الحول .

طلبت لورا من ميريام أن تذكر لها عشرة أشياء تحبها ، أو أحد عشر . فكرت ميريام فى السؤال طويلا بجدية شديدة وباستغراق كامل دون أن تصدر منها التفاتة واحدة إلى جويل . أشاع تصرف ميريام المرح فى نفس لورا لكنها ظلت صامتة . تضاعف شعورها بالسعادة فمدت يدها وقرصت ابنتها فى فخذها . كانت ميريام لا تزال مستغرقة فى التفكير حين قال جويل : « لورا ، هل يمكننا أن ننفرد دقائق ؟ إنه بخصوص تلك المسألة فى الكلية » .

كانت لورا على وشك أن تسأله : « أية مسألة ؟ » ولكنها لم تفعل وتركته يقودها إلى حجرة المعيشة . وهناك قبّلها جويل على شفتيها قبلة عميقة معطرة برائحة الثوم القوية . تلقت لورا القبلة دون رفض أو استجابة .

قال جويل : « لا ترحلى » .

قالت لورا : « لا نستطيع أن نبقى هنا إلى الأبد .. يجب أن نعود فالوجبة لم تنته بعد . مازال أمامنا السلاطة والحلو » .

قال جويل : « لا تذهبى إلى روما » .

ردت بالإيطالية : « قد أذهب وقد لا أذهب » . ثم أضافت بالإنجليزية : نظف لحيتك من الصلصة » .

حين عادا إلى المطبخ كانت ابنة لورا تغنى بالإيطالية نشيد شباب الحزب الفاشى . وكانت ميريام – التى تجهل هوية النشيد – ترمقها بابتسامة راضية .

صاحت لورا : « ما هذا ؟ أين تعلمت هذا النشيد ؟ »

أجابت الطفلة : « جدى علمنى إياه » .

قالت لورا : « لم يكن من المفروض أن يفعل هذا . عيب عليه » .

سألت ميريام فى توجس وهى تعيد كلمات لورا بحذر شديد ، وكأن الكلمات نفسها تثير الريبة إذ لم تكن جزءا من قاموسها المعتاد : « لماذا لم يكن من المفروض أن يفعل هذا ؟ لماذا قلت عيب عليه ؟ »

قالت الابنة : « إننى أفضل أكاذيب أمى » . فسرت لورا هذه العبارة بأنها تعنى أن ابنتها لا تحب ميريام وجويل ، وأصابت التفسير .

قالت لورا لابنتها : « أريد أن أسألك سؤالا هاما : هل لديك رؤية شاملة للعالم ؟ هذا ما أود حقا أن أعرفه » . اصطنعت الابنة الحول . غمس جويل طرف فوطته فى كوب الماء ونظف لحيته ، أما ميريام فطلبت وعاء الماء الخاص بتنظيف الأيدى .

صاحت الابنة : « وعاء تنظيف الأيدى ! » وشدت خصلة من شعر أمها ، وتركت يدها تستقر لحظة على رقبة لورا من الخلف قبل أن تسحبها .

اختلطت المشاعر وتضاربت فى نفس لورا . كانت تشعر بالشفقة نحو ميريام وجويل وترثى لهما ، وتشعر بحب قوى موجع للقلب تجاه جسد ابنتها ، وإلى جانب هذا وذاك كان هناك أيضاً شعور واضح وصادق ابتهلت لله أن يدوم وألا يعبر سريعا - شعور ممتلىء وكثيف بالفرح والسعادة .

مـــوت الـــدوق

بانينج ك . لارى

كان الوجه غريبا لكن الصوت بدا مألوفا بعض الشىء .

ـــ « اسمع يا فوكس .. يا فوكس .. اقترب يا رجل » .

كنت فى طريقى إلى ساحة الألعاب الرياضية لأقوم ببعض التمارين حين استوقفنى نداء هذا الرجل الأسود النحيل من خلف سور ملعب منطقة الحبس الانفرادى . كنت فى الممر الضيق الذى يخترق أرض الفناء الأسمنتية ويقسمها إلى قسمين متساويين يحدهما على جانبيه سور من الشباك الحديدية الغليظة . وبينما كان أحد الملعبين يغص بالمساجين الذين انهمكوا فى لعب كرة السلة وكرة اليد ورفع الأثقال كان الملعب الآخر خاليا إلا من هذا الشخص النحيل ورجل آخر .

توقفت لحظة ثم مضيت فى طريقى .

ـــ « انتظر يا فوكس .. ألا تعرفنى يا رجل ؟! »

كان مصراً على لفت انتباهى ، وأمام إلحاحه المستمر رأيت من الحكمة أن أستطلع الأمر فاتجهت صوبه . كان وجهه نحيلا بارز العظام تزينه عينان بنيتان لامعتان تسبحان فوق جفنين منتفخين ، وكان العرق

يتصبب من شعره الكثيف الملتف كلوفة من السلك ويسيل على وجهه ليتجمع فى منديلين منعقدين فى خفة حول رقبته . كان أحدهما أحمر ، والآخر أزرق ، وهذا ما لفت انتباهى إليهما ، فهذا النوع من المناديل لم يكن متاحا فى متجر السجن ، كما كان ارتداء المناديل محظوراً فى هذا السجن بصورة عامة ، ولو رآك مدير السجن ترتديها وكان مزاجه منحرفاً لأحالك إلى التحقيق .

قال : « إننى إيرل يا رجل ! كنا معا فى سجن دكستر » .

— « إيرل ؟ » لم أصدق الرجل . إن إيرل الذى أتذكره من أيام سجن دكستر كان أضخم منه ، كان كتلا من اللحم والشحم ، وكان وجهه ممتلئاً ومرحاً .

قلت : « كنت أعرف شخصا يدعى إيرل بيترسون ، وكنا نداعبه وندعوه إيرلى لولى نسبة إلى أسنانه اللؤلؤية ، ثم غيرنا لقبه إلى ... » .

قاطعنى مكملاً : « الدوق إيرل . كما فى الأغنية ، لأننى كنت ملك الشيطنة وأخطر سجين . كنت فى الزنزانة رقم واحد وعشرين فى قسم « هـ - ٢ » وكنت أشغل السرير الأسفل . كنت جارى فى الزنزانة رقم اثنين وعشرين ، وكنت تشغل فيها السرير العلوى . كان زميلك فى الزنزانة يدعى « إبى » ، نسيت اسمه الثانى . كان ضخما أشقر الشعر وكان يعمل فى قسم الغسيل » .

أجل . إنه إيرل دون شك . بدأت صورته تتشكل فى ذهنى : نفس الصوت ونفس الوجه ونفس الملامح المميزة فى الحركة والإيماء . ورغم ذلك فقد بدا مختلفا تماما .

قلت : « لقد تغير شكلك . فقدت الكثير من وزنك .. بل لقد غدوت

نحيفا ، مفتول العضلات . كنت مترهلاً فى الماضى وكنت تتوكأ على عصا حين تمشى » .

ــــ « أجل . قمت بتمرينات شاقة لأربى عضلاتى . انظر » .

بدأ يحرك عضلات ذراعيه بفخر وقد ارتسم على وجهه تعبير سينمائى . كان واضحا أن عضلاته قد نمت بصورة ملحوظة . انتفخت عضلات ذراعيه فى عقد كبيرة واضحة تفصلها خطوط تحدد معالم كل عضلة بدقة . لاحظت أيضاً أن جلده قد تمدد فى بعض المناطق من جراء الوزن الذى تخلص منه .

ــــ « لقد فقدت الكثير من وزنك » .

ــــ « سبعون رطلا كاملة » .

ــــ « إنها كمية هائلة . لكنى لم أرك منذ عام على أى حال » .

ــــ « أجل . وفى عام تغيرت أمور كثيرة يا رجل » .

انفرجت شفتاه فى ابتسامة باردة بطيئة تبعث القشعريرة وتنم عن ازدراء وسخرية وزهو ، ابتسامة تنسجم تماما مع هذا الوجه الذى امتلأت عيناه بالحقد والكراهية . لقد كان مقامراً محتالاً فى الماضى ، وكان مولعاً بتدبير المكائد ، لكنه كان أيضاً مولعاً بالمرح والفكاهة والاستمتاع بالحياة . اختفى كل هذا الآن وحلت مكانه طاقة عنف خفية كامنة يستشعرها الإنسان فى الهواء من حوله .

سألته : « وما الذى ألقى بك فى الحبس الانفرادى ؟ »

ــــ « تعاركت مع زميل ، ونحن فى طريقنا إلى المستشفى » .

تذكرت ولع إيرل بركوب سيارة المستشفى الكبيرة . كان ماهراً فى إدعاء المرض ، وخبيراً فى التأثير على طبيب السجن الذى كان يرسله إلى المستشفى فى الأيام المخصصة لذلك ، ويطلب فحصه طبياً على أيدى كل الاخصائيين الذين تستطيع الولاية أن توفرهم .

ـــ « وماذا كانت نتيجة المعركة ؟ »

ابتسم إيرل تلك الابتسامة التى جعلتنا فى الماضى ندعوه « إيرلى لولى » ، فتمددت عضلات وجهه وضغطت خديه إلى الداخل بشدة فوق العظام . كانت شفتاه تبتسمان لكن عينيه كانتا باردتان خاليتان من المرح .

ـــ « أمر الأطباء بإبقائه فى المستشفى . تحدثوا عن اشتباه فى كسور بالعظام . أعتقد أن العلاج سيستغرق بعض الوقت . أعادونى إلى هنا مقيداً بالسلاسل وألقوا بى فى قسم الحبس الانفرادى . أخذوا كل أمتعتى .. حتى المروحة . إن المكان يعج بالمخابيل الذين يصرخون طوال الليل ويقذفون الطعام ويتبولون أمام الجميع ، ويحطمون النوافذ ويندفعون فى كل مكان كالمجانين فى وقت الاستحمام . فى الليلة الماضية مزقوا الملاءات وحشروها فى المراحيض ففاضت وأغرقت المكان كله . حين استيقظت فى الصباح وجدتنى أخطو فى بركة من المياه » .

كان إيرل الآن فى حالة هياج وأخذ فمه يرغى ويزبد . كانت نظرته ثابتة لكنها عاصفة متوحشة . أدخل أصابعه فى فجوات أسلاك الحاجز وقبض عليها بعنف حتى أبيضت مفاصلها .

ـــ « يجب أن تهدىء نفسك يا إيرل . امسك أعصابك واهدأ . لقد

وضعوك فى الحبس المشدد الآن لكنهم يستطيعون أيضاً أن يضيقوا الخناق عليك بوسائلهم المعروفة » .

ـــ « فليفعلوا ما بدا لهم وليضيقوا الخناق ما شاءوا . لقد فاض بى الكيل ولن أستسلم بعد الآن . لقد فكرت طويلا وقررت ألا يستسلم الدوق أو ينحنى أمام أى إنسان ، مهما كان » .

حين أسمع كلمات كهذه أشعر بالخوف والتوتر فأنا أدرك جيداً أن الإنسان حين يصل إلى هذا الحد من اليأس لا يتورع عن أى شىء ، لا يهتم بضبط النفس أو التحكم فى المشاعر ، إذ يشعر أنه محاصر وأن ظهره للحائط وليس لديه ما يبقى عليه . عند هذا الحد يغدو الإنسان خطراً على الآخرين ، خطراً ضاريا شرسا ينقض فجأة دون توقع . كان إيرل على وشك أن يصل إلى هذا الحد إن لم يكن قد وصله بعد . أحسست أن غضبه إذا انفجر سيكتسح كل شىء أمامه حتى زملاءه القدامى مثلى ، وفجأة أدركت الحكمة من وجود هذا الحاجز الحديدى الذى يفصلنا .

ـــ « إننى أختلف معك يا إيرل . إننى أشعر أن هذا المكان يشبه الرمال المتحركة ، أو آلة شد الأصابع الصينية . كلما ازدادت مقاومتك ازداد غوصك فى الرمال أو ضغط العقد على أصابعك . لكنك إذا هدأت واسترخيت فقد تنجح فى الخروج من الرمال أو فى تحرير يديك » .

ـــ « أجل ، لكن الرجل القوى يستطيع أن ينزع آلة شد الأصابع هذه عن يديه ، أن يحطمها بضربة واحدة ، أن يمزق عقدها وينزعها عن أصابعه ويحرر يديه » .

ـــ « لكنها ليست من القش هنا يا إيرل . إن السلاسل فى هذا المكان من الصلب المقوى وأنت لست رجلاً خارقاً

ـــ « هكذا ؟! وما أدراك أننى لست حقا رجلاً خارقا ؟ » .

كان لكل شيء عند إيرل رد جاهز . أدركت أن كلماتى لم ولن تؤثر فيه فقد كان حقده متجذراً فى أعماق نفسه ، وكان ينمو ويتضخم داخله كورم سرطانى . نهض الرجل المرافق لإيرل فى القفص والذى ظل صامتا طوال الوقت ، وكان مهجنا من الجنسين الأبيض والأسود ، وانخرط فى تمرينات الملاكمة فانهال بقبضتيه على الأكياس الثقيلة ، كأنما ليصفى الهواء من بعض التوتر الذى عبأه . انهالت اللكمات كهدير الرعد المتلاحق وارتسم الرضا على وجه إيرل لهذه المؤازرة العملية لوابل كلماته الغاضبة ، فكأن ثورة الرجل الواحد قد اتسعت لتصبح ثورة رجلين .

***

أعلن عن وظيفة خالية فى مكتب مدير السجن فتقدمت بطلب رسمى لحضور الاختبار الشخصى . خلت الوظيفة حين قُبل التماس جونسى الثالث بالعفو المبكر لحسن السير والسلوك على أن يظل تحت المراقبة ، وذلك بعد أن أمضى ست سنوات متصلة من مدة العقوبة التى بلغت عشرين عاما . أرسل الرائد فى طلبى فى الساعة السادسة والنصف صباح اليوم التالى . انتظرت فى الممر خارج مكتبه نصف ساعة ثم سمعت صوته يهدر من خلف الباب المغلق صائحا : « ادخل » . دلفت إلى الحجرة سريعاً ووقفت فى خشوع أمام مكتبه . كان منهمكا فى تدبيس أوراق تقرير مطبوع على الآلة الكاتبة فى ملف كبير مقسم إلى أجزاء تميز كلاً منها بطاقة ملونة . كان مساعده الشاب – الملازم

جرين – يجلس على الجانب بعيدا يكحت الطين المتجمد على فردة حذائه العالى الرقبة بمطواة رخيصة فوق سلة المهملات المعدنية .

سألنى الرائد بترفع : « ما هو العمل الذى ترغب فيه يا فوكس ؟ » .

ـــ « مسك الدفاتر والحسابات يا سيدى . إننى أجيد التعامل مع الدفاتر والأرقام وأتقن الحساب والآلة الكاتبة . سرعتى ستون كلمة فى الدقيقة ، وأحمل شهادة جامعية . كنت أدير شركة إنشاءات قبل أن أدخل السجن » .

بدا وكأن هذا الملخص القصير لمؤهلاتى قد ضايقه ، فإذا بكومة الأوراق تنفلت من يديه وتتناثر على أرض الغرفة .

صاح : « اللعنة ! » ورمقنى غاضبا ، وكأننى المسئول عن بعثرة الأوراق . أحسست أن الفرصة قد واتتنى لإثبات كفاءتى .

قلت : « اسمح لى أن أساعدك يا سيدى » ، وانحنيت لأجمع الأوراق المتناثرة . انهمكت فى العمل بسرعة وإتقان ، وفى لحظة كنت قد جمعت الأوراق الهاربة ونظمتها وثبتها فى الملف ، ثم وضعت الملف أمامه ، وأنا أصطنع التزلف والخنوع بصورة متقنة .

ـــ « ها هى الأوراق يا سيدى . انتهت المشكلة » .

رفع الملازم جرين عينيه إلىَّ من فوق مطواته . لاحظت الإصبع الكبيرة فى القدم العارية من حذائها الملطخ بالطين تطل برأسها من ثقب فى الجورب . قرر هو الآخر أن يختبرنى فقال آمراً بلهجة متكلفة وصوت أخنف :

ـــ« هذه الكومة من الدفاتر هناك تحتاج إلى تنظيم » .

تلقيت الأمر كما يتلقى الممثل إشارة البدء فى التمثيل .

أجبت على الفور بلهجة عسكرية : « تمام يا أفندم . حالاً يا أفندم » .

جلست إلى منضدة صغيرة أمام الحائط وبدأت فى تفنيط وترتيب الملفات فى صمت ، بينما شرع الضابطان فى تقييم شخصى فى كلمات مسموعة بشفرتهما اللغوية الخاصة .

سأل الرائد الملازم : « هل تعرفه ؟ »

ــ « كلا . لكننى رأيته من قبل » .

تلى ذلك صمت لم يقطعه سوى صوت احتكاك السكين بالحذاء ، وسقوط الطين فى وعاء المهملات وصرير كرسى المكتب الهزاز .

ــ « يبدو ذا همة ونشاط » .

ــ « أجل . يبدو ذلك » .

ــ « يجيد التعامل مع الأوراق فيما يبدو » .

ــ « أجــل » .

ــ « سيكون من الصعب أن نجد بديلاً لجونسى » .

ــ « كان جونسى مساعداً ممتازاً » .

ران الصمت مرة أخرى ثم قطعه صوت طى شفرة المطواة ، وصوت قدم تنزلق بصعوبة داخل الحذاء ذى الرقبة العالية .

ــ « كان جونسى لا يدس أنفه فيما لا يعنيه . لم يكن ثرثاراً » .

— « أجل كان جونسى مريحا للغاية » .

— « هذا الرجل يبدو مناسبا أيضاً » .

— « قد يفى بالغرض . إنه يبشر بهذا يا سيادة الرائد » .

— « هل نجربه يا حضرة الملازم ؟ »

— « ليس عندى اعتراض يا سيدى » .

غيرت الكلمات مسارها واتجهت إلَّى .

— « أين تعمل الآن يا فوكس ؟ »

أجبت : « فى مصنع الملابس يا سيدى » .

— « وماذا يصنع سجين مثلك فى مصنع الملابس ؟ »

— « هكذا جاء التوزيع يا سيدى » .

— « معقول . اختيار مناسب تماما . أليس كذلك يا فوكس ؟ »

أحسست أنه يضعنى فى اختبار بهذا السؤال . بدا الهدف منه استطلاع رأيى الحقيقى فى نظام السجن . وجدت أن أفضل سياسة هى المراوغة المغلفة بالاحترام .

— « إن قسم الفرز والتوزيع يؤدى مهمة صعبة يا سيدى فهم يرسلون إليهم حوالى ألف سجين كل أسبوعين ، وتخضع العملية لعوامل كثيرة يجب مراعاتها ، ولهذا من الصعب أن يجدوا المكان المناسب تماما لكل رجل . أعتقد أنهم يحاولون وضع كل رجل فى أنسب مكان متاح ، ويتوقعون منه حين يستقر فى وحدته أن يأخذ بيده زمام المبادرة ويبحث بنفسه عن مكانه الصحيح . إن هذا ما أتى بى إليك هذا الصباح يا سيادة

الرائد . إننى أرغب فى عمل أستغل فيه مهاراتى وأفيد به المؤسسة بأقصى ما فى وسعى » .

حين استدرت لأضع رزمة الدفاتر المجلدة على مكتب الرائد كان يحملق أمامه فى ذهول ، وقد خلت عيناه من أى تعبير ، وكأنه يحاول أن يسبر أغوار سر عظيم .

قلت بهدوء : « ها هى الملفات يا سيدى » . ثم سألت فى لهفة : « أية أوامر أخرى ؟ »

نظر الرائد إلى الملفات المرتبة والتقارير المصنفة التى حيرته من قبل ثم رفع عينيه إلىّ وكأنه يرانى فى ضوء جديد .

قال بلهجة آمرة : « اذهب إلى المغسلة يا فوكس واحضر بعض الملابس المكوية . إذا كنت تنوى العمل فى هذا المكتب فلا يمكن أن تظل على هذه الصورة . إنك تبدو وكأنك تدحرجت لتوك من عربة فجل . ما رقمك ؟ »

ـــ « هـ - ١٧ - ٢٢٣ - ٨٣ » .

مد الرائد يده إلى سماعة التليفون .

ـــ « انصرف الآن يا فوكس . احضر الملابس وعد فوراً . لقد ترك جونسى كل شىء فى فوضى بالغة ، وأعتقد أنك أصلح من يعيد تنظيمها . سأتصل بقسم صناعة الملابس على الفور وأطلب نقلك إلى مكتبى .

هتفت قبل أن أخرج بصوت يعبر عن العرفان المتوقع منى :

ـــ « أمرك يا سيدى . شكراً يا سيدى » .

قفزت فى سعادة خارج الباب الحديدى الثقيل ، وأخذت طريقى إلى المغسلة . لم أتوقع أن يتم الأمر بهذه البساطة . سيكون العمل معه أمراً سهلا فهو يحتاجنى .

***

مرت أسابيع وتآلفت مع الوسط المتحضر نوعا الذى وجدت نفسى فيه . كان أهم تغيير هو الابتعاد عن آلات قطع الكتان والتراب المنبعث منها الذى كان يستقر على سطح قدح القهوة فى طبقة سمكها نصف بوصة . كان الرائد على حق حين وصف حالة المكتب بالفوضى . وسواء كان جونسى مسئولا عنها أم لا فقد ألقيت تبعتها عليه . هكذا الحال دائماً حين يترك أحدنا السجن . حينئذٍ يوصف بأنه كان أغبى عبيط شهده السجن فى الحقبة الأخيرة .

استغرقت وقتا لأحوز ثقة الرائد ، وهى ثقة كانت فى أفضل حالاتها تخضع لتقلبات مزاجه الحادة . لكننى رغم ذلك تمكنت بسرعة من تحقيق بعض التغييرات . لم أجد صعوبة فى إقناع الرائد بالتغييرات البسيطة مثل نقل المساجين ذوى الساق الواحدة من الأسرّة العاليا إلى الأسرّة السفلى . لكننى وجدت مشقة بالغة فى إقناعه بنقل سجين يعانى من نوبات التهاب الكبد المتكررة من قسم إعداد الطعام . لكننى استعنت بالتقارير الطبية ، وسابقة قانونية لأبين له المشاكل التى قد تتعرض لها الوحدة من قبل هيئة الرقابة الفيدرالية . وأخيراً وافق الرائد على مضض .

تعلمت أن القاعدة فى السجن هى الإبقاء على الوضع الراهن إلا فى حالات الطوارىء . ولهذا كانت حالات الطوارىء تثير الاهتمام وتحمل إمكانية التغيير . كانت مقابلة الرائد أمراً عسيراً أو صعباً فى أفضل

الظروف . كان هذا مقصوداً . كان على صاحب الشكوى الصادقة الملحة أن ينتظر ملطوعا على الحائط ساعات طوالا ، أو أن يتردد على المكتب أربع أو خمس مرات حتى يقابله ، فلقد اكتسب الرائد بعد اثنى عشر عاما من العمل فى السجون نوعا من الحذر تجاه الشكاوى الزائفة . كنت بحكم عملى فى مكتبه أحضر العديد من مقابلاته مع المساجين ، وبعد فترة بدأت أشعر باحترام خاص لثقب نظره ولماحيته . ورغم ذلك فبين الحين والآخر كان أحد المساجين ينجح فى خداعه . كان الدوق إيرل أحد هؤلاء .

لم أكن قد رأيت إيرل منذ لقائنا الأخير فى ساحة الألعاب الرياضية ، لكننى كنت أتتبع أخباره عن طريق تقارير تنقلات المساجين التى تمر بمكتبى . بعد حوالى ثلاثة أسابيع من التحاقى بمكتب الرائد علمت أن إيرل قد نقل من قسم الحبس الانفرادى إلى المبنى رقم « د » الذى يمثل حضيض السجن ويضم أخطر وأعتى المجرمين . لم يكن سجننا مدرجا فى قوائم السجون الخطرة التى تحتاج إلى إجراءات أمنية مكثفة ، ولولا مشاكله الصحية المزمنة لما أودع سجين خطر مثل إيرل هنا بل لأرسل إلى سجن مثل دكستر يخضع للحراسة المشددة . لكن سجننا كان يضم وحدة العلاج الطبى فكانوا يرسلون إليه المرضى من السجون الأخرى ، وكان الخطرون منهم يعزلون فى مبنى « د » .

كانت المشكلة التى تواجه إيرل حينذاك تتعلق بالفتى جونى مليح الصورة ، فحين انتقل هذا المهجن الوسيم من قسم الحبس الانفرادى إلى المبنى رقم « أ » توقفت العلاقة الساخنة بينهما .

صمد إيرل أمام إغراء العلاقات غير السوية طوال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من سجنه ، ممنيا النفس بقبول طلب الاستئناف الذى

تقدم به . وحين رفض الاستئناف استسلم تحت ضغط الإحباط ، وتحت تأثير القلق النفسى والتوتر العارم الذى يصاحب الإجراءات الطويلة البطيئة التى يتطلبها رفع طلب الاستئناف إلى المحكمة العليا والتى لا تسفر عادة عن شىء . كانت حاجة إيرل إلى الجنس كوسيلة للتنفيس عن نفسه أقوى من رغبته فى الانتظار حتى يتأتى له الجنس الطبيعى مع امرأة . كان الحكم الصادر ضده يقضى بالحبس خمسا وسبعين سنة ، وكان هذا يعنى أنه لن يستطيع أن يتقدم بالتماس للعفو والإفراج المبكر قبل أن يقضى اثنى عشر عاما متصلة فى السجن . وكان يعلم أن التماسه سيرفض مرات عديدة بسبب تاريخه الإجرامى مما قد يترتب عليه أن يظل ما يقرب من خمسة عشر عاما دون تنفيس ، وسرعان ما أدرك إيرل أن علاقته مع شاب وسيم أفضل من اجترار ذكريات الجنس الطبيعى الخابية .

لم يكن جونى هو أول شاب فى حياته لكنه كان فى ذلك الوقت الأثير لديه . كان إيرل يحبه حبا جما ولا يرغب فى سواه . ورغم أننى لم أمارس هذا النوع من العلاقات – فقد كانت عقوبتى قصيرة وكان موعد الإفراج عنى قد اقترب ، فآثرت أن أصبر حتى استمتع بملمس الأنثى – رغم هذا كان من السهل علىّ أن أدرك سبب انبهار إيرل بهذا الشاب . كان جونى رشيقا مفتول العضلات على نحافته ، ذا بشرة سمراء فى لون القهوة باللبن ، وعينين خضراوين وابتسامة تستثير وتتحدى . وكان هو الآخر معجبا بإيرل ، ولما كان الحكم الصادر ضده يقضى بحبسه عشرين عاما بتهمة القتل فقد بدا لإيرل رفيقا مناسبا . كانا متوافقين متآلفين من البداية كما أدركت حين رأيتهما لأول مرة فى الملعب الرياضى .

وهكذا أتى إيرل إلى مكتب الرائد يوما يطلب نقل جوني إلى زنزانته .

ـــ « ماذا تريد يا بيترسون ؟ »

ـــ « أريد أن ينتقل إلى زنزانتى سجين أبيض وفقا لسياسة التآلف العنصرى واحتاج لموافقتك » .

كان من المستحيل الحصول على موافقة الرائد على نقل سجين من زنزانة إلى أخرى بدعوى الصداقة ، إذ لو كان هذا متاحا لازدحم المكتب بطوابير الطالبين . أما طلب النقل بدعوى التآلف العنصرى فكان أمراً مختلفا ، فقد كانت رغبات التآلف طوعا تحسن من صورة السجن ، وتثير إعجاب واستحسان الرقابة الفيدرالية التى كانت تعتبرها دليلا على نجاح سياسة إعادة الإدماج فى المجتمع التى تتبناها .

رفعت عينى من الملفات حين سمعت إيرل يصوغ مطلبه بهذا الأسلوب . كانت حيلة بارعة من جانبه .

سأله الرائد بمكر : « ومن هو السجين الآخر يا بيترسون ؟ »

ـــ « جون راندال يا سيدى . إنه يقيم فى قسم « أ » ، الطابق الرابع زنزانة رقم واحد وعشرين » .

ـــ « راندال ؟ راندال ؟ لا أتذكر هذا الاسم . احضر بطاقته يا فوكس » .

اتجهت إلى المكتبة الرئيسية التى كانت رفوفها تشغل حائطاً كاملاً من حوائط الغرفة ، واستخرجت بطاقة جونى من القسم المعنون برقم زنزانته .

قرأ الرائد البطاقة بصوت عال : « راندال . الاسم الأول جون . الجنس قوقازى ، يعمل فى قسم الخدمات . أين هذا المدعو راندال الآن يا بيترسون ؟ »

ـــ « فى الوحدة العلاجية يا سيدى الرائد . إنه يعانى من متاعب صحية وهذا ما يجعلنى أريده معى . إنه يحتاج لمن يرعاه ، فهو يصاب بنوبات من الإغماء كما أنه يتعاطى علاجاً خاصا .

بدا الرائد متردداً .

ـــ « من يشاركك الزنزانة الآن يا بيترسون ؟ »

ـــ « لا أحد يا سيدى . لقد خرج زميلى البارحة » .

لقد دبر إيرل خطته بدقة ، فطرح مطلبه فى صورة جذابة ترضى المؤسسة ومعها الرائد بالطبع ، كما دبر تزييف وصف الجنس المدون على بطاقة جونى . اكتشفت فيما بعد أنه تمكن من إقناع موظف الوردية الليلية بإجراء التغيير مستغلا ضعفه أمام إغراء الصنف الممتاز من الحشيش الذى قدمه إليه .

ـــ « جهز الطلب يا فوكس » .

وضعت الطلب فى الآلة الكاتبة وطبعت الاسمين ، ورقم كل سجين ، وموقع الزنزانة .

ـــ « حسن . وقع الطلب يا بيترسون » .

وضع بيترسون التوقيع المطلوب .

ـــ « اطلب من المدعو جون راندال أن يأتى إلى المكتب ليوقع هو الآخر حتى أصدر الأمر بالنقل » .

أسرع إيرل قائلا : « ولكن أجازتك تبدأ غدا يا سيدى الرائد . ألا يمكنك يا سيدى أن تتفضل بالتوقيع الآن بالموافقة ، وأعدك أن أرسل جون راندال ليوقع بمجرد أن تتحسن صحته . سيوقع فى حضور الملازم جرين » .

كانت هذه الحيلة الأخيرة بمثابة الضربة الحاسمة . لقد ضمن إيرل ألا تقع عينا الرائد على جونى فيكتشف أنه نصف زنجى وليس قوقازياً . جذب الرائد الطلب إليه ووضع عليه توقيعه المعتاد الذى لا يقرأ .

— « لا مانع والآن انصرف فورا يا بيترسون ، فليس لدىّ دقيقة أخرى أضيعها فى الاستماع إلى مأمأتك وضراتك » .

رد إيرل بتزلف واضح : « شكراً لك يا سيدى الرائد » ، لم يلمح أحد غيرى الابتسامة الخبيثة المزهوة التى علت وجهه وهو يغادر الحجرة مسرعا فى خفة . لقد كان فى هذه اللحظة جديراً حقا بلقبه : الدوق إيرل .

أتى جونى إلى المكتب فى اليوم التالى وفق الخطة ، ووقع على طلب النقل أمام الملازم جرين معلنا موافقته على مبدأ التآلف العنصرى . كان الملازم جرين فى حيص بيص وهو يحاول أن يملأ مكان الرائد ويؤدى مهامه . وما أن شاهد توقيع رئيسه على الطلب حتى أجازه على الفور . وبعد أن أعددت البطاقات الجديدة وفقا للوضع الجديد للسجينين انصرفت إلى عملى .

بعد ساعة واحدة من إجازة الطلب كان إيرل وصديقه جونى يمارسان علاقتهما . وكانت هذه اللحظة هى بداية النهاية لكل منهما ، لكن أحدا لم يكن ليفطن إلى هذا وقتها .

بعد فترة بدأ إيرل يمر بسلسلة من العمليات الجراحية المتوالية لإزالة أظافر قدميه واحدا تلو الآخر ، وكان بعد كل عملية يحصل على إجازة مرضية تعفيه من العمل لمدة شهر . وكان جونى فى تلك الأثناء يعمل فى قسم الأغذية والخدمات ، ويحصل على سلع وبضائع متنوعة كان الاثنان يتاجران فيها سراً . كان إيرل يقضى الصباح فى الحجرة النهارية يقامر بلعب الدومينو حتى يفرغ جونى من عمله . وحين يعود جونى فى العصر كانا يتجهان إلى الملعب الرياضى وينفقان ساعتين فى رفع الأثقال ، ثم يعودان إلى الزنزانة بعد حمام منعش ويتفرغان لتجارتهما السرية فى المساء . كانت الزنزانة رقم « د - ١ - ٢٥ » تقع فى نهاية الدور الأول بعيدا عن الأنظار ، فكانت فى موقع مثالى يؤهلها لأن تكون مركزاً لإدارة العديد من الأنشطة والممارسات السرية .

كان الدوق يدير أعماله الواسعة بعدل وإنصاف ، لكنه كان يهوى بقبضة من حديد على العميل الذى لا يفى بوعده أو يحاول خداعه . كان نجاح التجارة يعتمد على سمعته وصورته فى أذهان العملاء ، وكان الدوق يتقن فن إثارة الاحترام والرهبة فى النفوس . كان قد فقد الأمل فى الاستئناف وأعد نفسه لقضاء عقوبته الطويلة ولم يعد هناك ما يخشاه ، فإذا كان من المحتم عليه أن يبقى فى السجن خمسة عشر عاما فسوف يقضيها وفقا لشروطه الخاصة . كان إيرل كيساً وحذراً وحصيفا فى معاملاته ولهذا لم يضايقه رئيس الحرس أو يتعرض له ، وساهم فى ذلك أن إيرل كان جديداً فى الوحدة ولم يسبب أى شغب منذ أن ترك الحبس الانفرادى ، أضف إلى ذلك أن المبنى رقم « د » كان يعد منطقة وعرة ، وكان الحرس يتجنبون التوغل فى أعماقه إذا لم تكن لديهم مهمة رسمية ، وفى هذه الحالة كانوا يأتون جماعة لا فرادى .

كان إيرل قائداً بالفطرة ومديراً بالسليقة ، وكان يتمتع بطاقة هائلة من

النشاط والحيوية تمكنه من تحقيق مشروعاته الطموحة ومراوغة الحراس . ولهذا سرعان ما ذاعت شهرة « الدوق » فى السجن وأنشأ علاقات مع كل الشخصيات التى تتمتع بدرجة من الأهمية والنفوذ . كان يتجنب التعامل مع المبتدئين والهواة ، أصحاب العقوبات القصيرة ، وكذلك الحمقى . وفيما عدا هؤلاء كان كل سجين عتى مخضرم يعرفه ويوليه الاحترام . كان الدوق يضمن كلمته بحياته ويفى بوعوده دوما ، وكان هذا النوع من الرجال نادراً فى السجن ، ولهذا تكاثر العملاء والمقامرون حوله كالذباب فسطع نجمه بسرعة وعظم شأنه ، وأصبح مصدر خطر على منافسيه وكانت هذه هى المشكلة .

كانت المشكلة تتلخص فى المنافسة ، فقد كانت الأمور تسير فى السجن وفق نظام محسوب ومحدد قبل أن يصل إيرل ويخلخل هذا النظام ، وكان من الطبيعى أن يثير نجاحه السريع وصعود نجمه حفيظة قيادات ورؤساء النظام القديم . كان إيرل يتفوق على منافسيه دائما ، ففى مجال الطعام كان يبيع شريحة اللحم بنفس السعر لكنه كان يضيف إليها البهارات والتوابل من عنده ، وكان يبيع سيجارة الحشيش والماريوانا مقابل علبة من السجائر العادية ، كما هو الحال مع الآخرين ، لكن صنف سجائره كان مختلفا ، فقد كانت السيجارة الواحدة التى يبيعها تكفى لأن تخدر و« تسطل » ثلاثة رجال بدلا من واحد . وفى مجال المراهنات على نتائج مباريات كرة القدم كان إيرل يدفع خمسة أضعاف المبلغ عند الكسب بدلاً من الأربعة أضعاف التى يدفعها الآخرون . وفى مجال العلاقات غير الطبيعية المشينة كان الرجال الذين يعملون مع إيرل أكثر وسامة وجمالا .

كان أعتى منافس له يدعى الدبور ، وكان ضخم الجثة يبلغ طوله ستة أقدام وأربع بوصات ، أى ما يقرب من المترين ، ويستطيع أن يرفع

أربعمائة وعشرة أرطال من الحديد ، ويرتدى أضخم مقاس فى الأحذية طولا وعرضا . كان الدبور قد ورث إقطاعية المبنى رقم « د » من سجين سابق يدعى وولفمان منذ أربع سنوات حين أفرج عنه بعد أن أمضى عشرين عاما متصلة فى الحبس من عقوبته التى بلغت ثمانين عاماً . وقد كان الدبور اسما على مسمى فقد اكتسب لقبه هذا لأنه كان يبدو فى الواقع كنسخة مكبرة مخيفة من هذه الحشرة ، بنظارته السوداء ذات العدسات الضخمة ، المستديرة كأطباق فناجين الشاى ، وأسنانه الذهبية البراقة . كان الدبور يعيش فى القمة فى الزنزانة رقم « د – ٥ – ٢٥ » أعلى المبنى فى آخر الطابق العلوى – أى أن زنزانته كانت فى نفس موقع زنزانة إيرل ، ولكن تعلوها بخمسة طوابق . شعر الدبور منذ اليوم الأول لنشاط إيرل بتناقص موارده وأعماله ، ولكنه آثر أن يحفظ ماء وجهه فلم يفصح عن قلقه لأى من أعوانه أو عملائه .

لكن الأمر تغير حين أدرك عقعق (أو ماجباى) – الذى كان يمسك دفاتر وحسابات الدبور – وكان على درجة وافية من التعليم – أن تجارتهما قد تدهورت بصورة لم يسبق لها مثيل . حينذاك أوعز إلى الدبور بأن يستعين بالسجين هايسايد – وكان جاسوس الدبور الأول وبصاصه الرئيسى المتميز . لم يستغرق الأمر فى يد الجاسوس إلا أياما معدودة عاد بعدها وقد اكتشف شرخا فى مؤسسة الدوق يمكن النفاذ منه إليه .

كان إيرل فى المستشفى لإزالة الإظفر السادس من أظافر قدميه حين ذهب هايسايد إلى جونى فور عودته من عمله . اقترب منه وهمس قائلا :

ـــ « أين الدوق يا عزيزى جونى ؟ »

ـــ « فى المستشفى يا هايسايد . لماذا تسأل ؟ »

ـــ « وصلت بضاعة مخصوصة منذ لحظات . كنت أود أن أقابل الدوق وأخبره بأمرها حتى لا تفوته الفرصة » .

ـــ « لا تتعب نفسك . سيمضى وقتا طويلا هناك » .

ـــ « خسارة . إنها بضاعة ممتازة حقا . ليتك كنت تستطيع أن تحل محله وتتم الصفقة ! »

كانت جملته الأخيرة هى الشوكة المسنونة التى نفذت إلى جسم جونى . كان جونى قد سأم صورته ودوره كتابع للدوق فقط ولا شيء سوى ذلك .

ـــ « إننى أستطيع أن أتم الصفقة بكل تأكيد . ما نوع البضاعة ؟ »

ـــ « صنف ممتاز من المخدرات يدعى سينسيميلا . طازج وقوى ، وفعال . المعروض أوقيتان » .

ـــ « إن الدوق يفضل أن يختبر الصنف بنفسه كما تعرف » .

ـــ « ألم تقل إنك أهل لإتمام الصفقة ؟ »

ـــ « من البائع ؟ »

ـــ « الدبور » .

ـــ « حسن . فلنذهب ونعاين البضاعة » .

قد يسأل سائل : وكيف عرفت ما دار من حوار بينهما . والإجابة هى أن عصفوراً صغيراً همس به فى أذنى . كان هذا العصفور الصغير هو رجل طاعن فى السن يدعوه الجميع بلقب « فوسيل » مشبهين إياه

بالحفريات القديمة . كان فوسيل يقوم بأعمال الكنس والنظافة ويقضى المشاوير للنزلاء ، وكانت لديه قدرات خارقة على التصنت وكأنه جهاز تجسس بوليسى غير معلن . كان يقوم بالسرقة والتجسس نصف الوقت ، ويلعب دور حمامة السلام فى النصف الآخر . ولم يكن فوسيل يتورع عن التضحية بسجين غبى بين الحين والآخر ليستقيم مجرى الأمور فتسبح فيه الأسماك الكبيرة دون عائق وتسمن على الكنوز الكامنة فى الأعماق . كان فوسيل بمثابة جزء من تراث السجن ، وكأنه تحفة قديمة فى متحف ، فقد وجده أكثر من نصف المساجين هنا حين وصلوا .

أخبرنى فوسيل أنّ جونى تبع هايسايد وصعد معه إلى الزنزانة رقم « د - ٥ - ٢٥ » ليقابل الدبور ويختبر البضاعة . قابل الدبور جونى بود شديد وقدم له على الفور سيجارة منتفخة تحوى الصنف وسأله أن يجربها ، وإذا راقت له فسوف يتم الصفقة معه وكأنه الدوق شخصياً . انتفخت أوداج جونى وتقمص دور « الريس » ، ودخن السيجارة عن آخرها فى أنفاس عميقة متلاحقة وهو يعلن أنه يستطيع أن يتحمل أى صنف مهما كانت فعاليته . لكن ما خفى على جونى هو أن الدبور كان قد خلط الحشيش بمخدر « الفنسيكليداين » الذى يستخدم فى تخدير الحيوانات فى الطب البيطرى ، وأن الكمية التى وضعها من هذا المخدر فى السيجارة كانت تكفى لتخدير حمار تخديراً كاملاً . ولهذا لم تمض دقائق حتى انهار جونى وتهاوى على فراش الدبور كخرقة بالية .

انقض الدبور على الفتى وتوحش فى انتهاكه مراراً وتكراراً ذلك العصر ، وكأنه يؤكد من خلاله سطوته ونفوذه على السجن . وبعد ذلك حمله عالياً فوق رأسه ووقف خارج زنزانته ، وأطلق صيحة مدوية اهتزت لها نوافذ السجن وجمدت الدماء فى العروق ، واستمرت

أصداؤها تتردد فى الفضاء بعد أن هوى الجسد المسكين إلى الأرض عبر خمسة طوابق واستقر أمام الزنزانة رقم « د - ١ - ٢٥ » .

وفى هذه اللحظة بالضبط ، سواء بتدبير من الأقدار أم بمحض الصدفة ، كان إيرل يدخل إلى المبنى « د » ، فسمع الصرخة ولمح كومة اللحم تسقط فى الفضاء وترتطم بالأرض . ألقى الدوق عصاه جانبا واندفع جاريا نحو الجثة ، وحين أكدت له عيناه أن الجسد المهشم هو جسد جونى انفجر فى صراخ لم يهدأ إلا حين توقفت أنفاسه .

رن جرس الهاتف فى المكتب حينذاك . كان المتحدث هو الضابط المشرف على المبنى رقم « د » ، ورأيت الدماء تغيض من وجه الملازم جرين ووجهه يشحب من الخوف وهو يستمع إليه .

صرخ فى السماعة : « حاصروا المبنى . سأستدعى فرقة إخماد الشغب فوراً » .

انهمك الملازم فى إدارة قرص الهاتف فى توتر عنيف ، فتسللت وسط الفوضى إلى الباب واتجهت فى هدوء إلى المبنى رقم « د » . كانت بوابته الحديدية الخارجية موصدة بإحكام حين وصلت فانضممت إلى حشد قليل من النزلاء الذين تحلقوا خارج قضبانها بجوار السلم المؤدى إلى المبنى . سمعت ضوضاء عالية فى الداخل لكننى لم أتمكن من تمييز مصدرها ، ثم لمحت إيرل يجرى خلف القضبان وأدركت أن ما سمعته كان صراخه . كانت صرخته لا تشبه صرخة إنسان بل كانت أقرب إلى صراخ ضبع انتزع قدمه من فكى فخ حديدى فمزقها وانطلق هارباً فى الليل وهو يعوى من الألم . ثم وصلت فرقة إخماد الشغب لكنها لم تجرؤ على اقتحام المبنى فى تلك اللحظة .

سمعت أحد أفرادها يقول من تحت خوذته وهو يضرب كفه المبسوطة بهراوته الخشبية ضرباً خفيفاً : « فلننتظر قليلاً حتى تهدأ أعصابهم » .

رأيت الدوق يقفز درجات السلم إلى أعلى ، ثلاثا فى كل خطوة رغم الضمادات التى أحاطت بواحدة من قدميه ، وكان يحمل فى يده جزءًا من ماسورة مجوفة سواها وشحذ طرفها فغدت مثل الحربة ، وسكينا قصيرة ذات نصلين لامعين . لم يلمحنى الدوق فى اندفاعه ولا أظن أنه كان يبصر شيئاً فى تلك اللحظة عدا غضبه العارم الذى كان يلهب ظهره . لقد كان يعلم أن الدبور لن يسكت عليه وأن المعركة الفاصلة بينهما آتية لا ريب ، لكنه لم يتوقع أن يأتى انتقامه على هذا النحو . على أية حال ، كان الدوق قد وصل إلى نقطة النهاية وفقد عقله تماما ، ولم يكن ليجدى معه النصح بالتعقل .

التقى الدوق بالدبور فى منتصف ممر الطابق الخامس ودفع حربته المسنونة داخل فمه فاخترقت رأسه ، ونفذت من الجانب الآخر . ورغم أن الدبور كان فى حالة من الإرهاق والضعف من جراء إفراطه الشديد فيما فعله ذلك اليوم ، وما تلاه من أحداث عنيفة إلا أنه تمكن من تسديد طعنة إلى الدوق أسفل القفص الصدرى قبل أن يطوحه الدوق من فوق السور . ارتطم الجسد بالأرض على بعد عشرين قدما منا خلف القضبان وشعرت بالأرض تهتز تحت قدمى .

بعد ذلك بلحظة رأيت الدوق يهبط السلم . كانت عيناه جاحظتان وكانت حربة الدبور مازالت منغرسة فى جنبه الأيسر وحولها بقعة كبيرة حمراء مبتلة . كان يجرجر وراءه شريطا طويلا من الضمادات المحلولة من قدمه فبدا وكأنه يسحب وراءه ذيلاً بذيئاً مضحكا ، لكن أحداً لم

يضحك ، وحين انحنى على جثة الدبور وانهمك فى العمل لم ينبس أحد ببنت شفة . وفجأة مزق الصمت صوت احتكاك النصل المعدنى بالأرض الأسمنتية ، ثم نهض الدوق واتجه نحو الحشد الذاهل خلف القضبان . كان يجرجر قدمه اليسرى ويحمل فى يده اليمنى رأس الدبور المفصولة وقد أمسكها من شعرها . حين اقترب من القضبان رفع الرأس أمامنا عالياً وأشار إليها بخنجره الملوث بالدماء وهو يقول :

— « هذا عقاب من يغتصب حقوقى » .

ثم تهاوى على القضبان وانزلق هاويا إلى الأرض .

الأرض المهــتزة

إيلين هــيرمان

حين بلغ تيدى الحادية والثلاثين من عمره ابتاع منزلاً . كان متوتراً وقلقا إزاء الصفقة ، وارتعشت أصابعه وهو يوقع عقد العقار فجاء توقيعه مشوشاً متداخل الحروف تصعب قراءته . كان البيت خشبياً صغيراً من طابق واحد ويقع على تلال هوليوود . كانت درجاته الحجرية التى استقرت بفعل الزمن فى خطوط غير مستوية تقود إلى شرفة واسعة مفتوحة تطل على المدينة ، وكان زجاج النوافذ عتيقا يتموج كالمياه فى ضوء الشمس . أما أرضية البيت الداخلية فقد تراخت وهبطت فى بعض المناطق تحت تأثير حركة التربة . بدا وكأن السكان السابقين قد غادروه على عجل ، فقد تناثرت فى أرجائه بعض متعلقاتهم مثل فردة جورب فى أحد الدواليب وكومة من المناديل الورقية المكرمشة فى أحد أدراج المطبخ . كان الناس فى مدينة لوس أنجيليس يغيرون مساكنهم بصورة دورية وكأنهم يغيرون رفاقهم فى رقصة شعبية معقدة .

كان أصدقاؤه الذين يتمتعون بدخول ثابتة قد أكدوا له أن العقار هو أفضل وآمن استثمار للثروة الصغيرة التى هبطت عليه حديثاً :

إذ كان قد نجح أخيراً فى بيع سيناريو لفيلم سينمائى بعد أن أمضى سنوات يكتب برامج تافهة حقيرة لمحطات التليفزيون الرسمية والخاصة تذاع أحياناً فى منتصف الليل ، وأحياناً لا تذاع مطلقا . الآن ولأول مرة فى حياته يشعر بالنجاح ، لكن الشعور بالنجاح كان يصاحبه شعور بالقلق والتوتر . سأل صديقته شارلوت : « ماذا يكون الحال لو كان هذا أول وآخر سيناريو أبيعه ؟ »

قالت : « سيسترد البنك البيت . هذا كل ما فى الأمر » . كانت شارلوت قد هجرت مهنة الكتابة واحترفت النجارة وتخصصت فى صنع المكتبات التى كانت تعتقد أنها ستغدو قريبا من مخلفات الماضى . كانت امرأة فتية شعرها كالسلك ، تعانى بشرتها من حروق الشمس بصورة دائمة فتنتشر عليها بقع وردية لامعة عارية من الجلد . ورغم أنهما لم يكونا قد أعلنا عزمهما على الإقامة معاً حتى الآن إلا أنها على نحو ما كانت تعيش فى بيته ، وتختلط قمصانها فى الأدراج بقمصانه ، كما يختلط شعرهما فى بالوعة الحمام ويسدها . كان معظم الشعر المتساقط فى البالوعة من رأس تيدى الذى بات يعتقد أنه على وشك الصلع .

كان الشهر هو سبتمبر وكان الجو حاراً . تلبد الهواء بموجات الحرارة الملتهبة . كانت حرارة جافة تحرق رئتيه . احترقت حشائش الحديقة وهوت ذابلة فى الطين ، وتعلقت فوق المدينة سحابة من الضباب الأسود . كان تيدى يجلس فى مكتبه غارقا فى عرقه . كانت الحرارة خانقة تعوق التفكير . لقد استقى موضوع السيناريو الذى باعه من تجربة شخصية مر بها ، فقد صور فيه فى قالب كوميدى تمتزج فيه الفكاهة بالمرارة اللاذعة قصة انفصاله عن صديقته السابقة . أما الآن وقد خلت حياته من المعاناة المادية ، فقد أصبح العثور على مادة للكتابة أمراً

صعباً . كان يجلس كل صباح إلى آلة الطباعة الالكترونية يفتش عن فكرة جديدة فيطبع جملاً عشوائية ترتسم فى استحياء على الشاشة السوداء ثم يمحوها بضربة واحدة من إصبعه .

قال له وكيل أعماله الجديد مارك : « لا تغصب نفسك على الكتابة إذا لم تكن لديك فكرة » . كان مارك ربعة القوام ذا شعر أسود منساب يرتدى ملابس واسعة فضفاضة كملابس قساوسة عصر التكنولوجيا الراقية . كان مكتبه يسبح فى إضاءة خافتة تنبعث من مصابيح مغطاة تلقى ببقع خفيفة من الضوء على البساط ، وكان الهواء البارد ينساب إلى الحجرة من فتحات خفية . كانت الجدران عارية من الزينة فيما عدا صورة وحيدة لكلبه « فينى » . كان حيوانا ضخما كثيف الشعر يشبه الأفيال المنقرضة ، وكان من عادته أن يعض أى شخص يحاول إرهابه . كان يعشق مارك بجنون ويغير عليه من صديقاته فيعضهن مما جعل مارك فى النهاية يحجم عن مقابلة النساء .

أغلق تيدى عينيه وفتحهما عدة مرات فى ظلام المكتب وهو يحاول أن يتكيف مع جوه المناقض تماما للجو فى الخارج . قال : « عندى فكرة لموضوع » . كانت هذه الفكرة هى الملجأ الأخير الذى تفتقت عنه قريحته المحبطة وهو فى طريقه إلى هذه المقابلة . « ما رأيك : امرأة تكسب « يانصيب » كاليفورنيا ثم تقرر أن تتنازل عن قيمة الجائزة » .

مال مارك بكرسيه إلى الخلف قليلا ومد ساقيه أمامه على المكتب . كان كاحلاه أجردان خاليان من الشعر يميل لونهما إلى السمرة . قال دون قناعة : « فكرة عظيمة » .

أحس تيدى بجلده بارداً لزجاً . ما أن نطق بالفكرة حتى بدت له قديمة مستهلكة . « سأفكر فى موضوع آخر » .

— « إنهم يفكرون فى الاستعانة بك لكتابة الجزء الثانى من فيلم الزلزال » .

— « كيف يفكرون فى جزء ثان ؟ ألم يلق الجميع مصرعهم فى نهاية الفيلم ؟ »

أجاب مارك : « لا . ليس الجميع – بقى اثنان أو ثلاثة على قيد الحياة » .

فى طريقه بالسيارة إلى المنزل كانت فكرة الفيلم تهيمن على تفكير تيدى : « الزلزال « ٢ » : ما بعد الكارثة » . ترى هل يقع عليه الاختيار ؟ وإذا حدث هل سيقبل ؟ لماذا تصر مدينة لوس أنجيليس على اجترار نفس القصة مرات ومرات وكأنها مريض نفسى يعانى من كوابيس متكررة ؟ أعلن مذيع الأغانى على مذياع السيارة : « وصلت الحرارة إلى خمس وتسعين درجة ومن المتوقع أن تزداد » . رن جرس الهاتف خافتا فى الخلفية فصاح المذيع : « مرحبا .. مرحبا » . أحس تيدى بالشمس تشوى قبة رأسه حيث خف الشعر . ازدحم الشارع بالسيارات التى كانت أسقفها تعكس ضوء الشمس فى موجات تبرق وتلتمع بينما خلت الأرصفة من المارة . صاح المذيع : « لقد نجحت يا عزيزتى كيم فى ذكر أسماء الخمس عشرة أغنية التى أذعناها الآن وربحت خمسمائة ... دولار ! » قال تيدى لنفسه : فكرة لفيلم . كيم تربح خمسمائة دولار . إنها شقراء ، تمتلىء بالحيوية ، من ذلك النوع من الفتيات اللاتى يزحن شعورهن إلى الخلف بعصبية . لكنه وجد من الصعب عليه أن يستثير فى نفسه أى قدر من الاهتمام أو الفضول إزاء امرأة فارغة لايشغلها إلا الاستماع إلى خمس عشرة أغنية تذاع على التوالى .

تلك الليلة قالت له شارلوت حين رقدا فى الفراش قبل النوم : « أريد أن أخبرك بشىء يا تيدى » . كانت أضواء السيارات العابرة تبرق على الجدران بين الحين والآخر بينما انساب من النافذة المفتوحة نسيم بارد لا ينعش .. مثقل بروائح النهار والمدينة . كانت شارلوت ترقد على جنبها وقد فردت ذراعها فوق معدته ودفنت وجهها فى رقبته تدفئها بأنفاسها . لا بأس . قال تيدى لنفسه . ستتركنى وترحل . كان قد أعد العدة لهذا الاحتمال . كان يدرك منذ البداية أن الحب مخاطرة غير مأمونة العواقب ووطن نفسه على هذا . ألم تتركه صديقته السابقة التى صورها فى سيناريو الفيلم بعد ثمانى سنوات ؟ كان يقول لنفسه : أجل . من الأفضل أن ننفصل الآن ونحن مازلنا فى البداية حين قالت شارلوت : « لعلك لاحظت تقلباتى المزاجية الحادة فى الفترة الأخيرة » .

أجرى أصابعه فى شعرها الخشن الذى كانت تنبعث منه رائحة شامبو الأطفال : « إننى أعرف مقدما ما ستقولين . لا بأس . إننى لن أمانع » .

نهضت واستندت على كوعها وتأملته ملياً . التمعت عيناها فى الظلام وقالت : « هل تعنى هذا حقا ؟ هل تعرف ؟ »

قال : « أجل . إننى أعرف »

ــ « هل نمضى فى الأمر إذن ؟ ننجبه معا ؟

ــ « ماذا ؟ » أحس بالهواء ثقيلا من حوله وبغصة فى حلقه . بدا وجه شارلوت وهو يتأرجح فوقه غريبا سيرياليا . « ننجب ماذا ؟ »

قالت شارلوت : « طفلنا بالطبع » . سحب نفسا طويلا بطيئا وكأنه يوشك على الغوص فى مياه عميقة .

فى الصباح وجد كمية من الشعر على وسادته وحين جفف رأسه وجد كمية أخرى منه على منشفته . لم يلطف الحمام من إحساسه بالحر . لم تبشر النشرة الجوية فى الصحيفة بحدوث تغيير فى الجو ، فبالأمس كانت الحرارة تسعين درجة ، وهى اليوم تسعون درجة ، وغداً ستكون تسعين درجة ، وسيستمر الجو حاراً فى عطلة نهاية الأسبوع . أما الخرائط البيانية التى توضح معدلات التلوث فقد تنبأت وأنذرت بتلال من غاز ثانى أوكسيد النيتروجين ، تمثل « حدثاً بارزاً » فى تاريخ التلوث . كانوا يتحدثون عن تلوث الجو ، وكأنه حلقة فى مسلسل تليفزيونى مستمر .

تصفح كتابا من كتب شارلوت يحوى نصائح وإرشادات ، عنوانه « سيدتى : اعتنى بجسدك بنفسك » . ارتفعت حرارة المطبخ تحت تأثير أشعة الشمس ، وبلل العرق أصابعه فتركت آثارا على صفحات الكتاب . فى أحد الرسومات رأى آلة حادة تنغرز فى جزء من الجسم يشبه الفطيرة الرخوة ، وتلا ذلك صورة غائمة تمثل لقطة قريبة جدا لجنين متكور وزلق وكأنه جسم الحلزون الرخو وقد انتزع من قوقعته . قال العنوان تحت الصورة : « فى الأسبوع الثانى عشر تكون أظافر أصابع اليدين فى الجنين وكذلك عيناه قد تشكلت » . كانت شارلوت فى الأسبوع الثامن من الحمل . ربما لم تتكون بعد عينا طفلهما . تخيل الطفل وهو يتحرك فى أعماق الرحم الباردة المنعشة وينتظره . مضى فى التفكير . متى تبدأ الموجات الكهربائية فى المخ ؟ وأية أحلام مبتسرة يبثها هذا الحلزون العارى الرخو عبر موجات وتيارات الهواء الكثيف الداكن ؟

اتصل به مارك تليفونيا . كان صوته أجوف خافتا وكأنه يتحدث من هاتف السيارة . قال : « تيد . لقد ذهب الجميع إلى الاستوديو . لقد

وصلت النائبة الجديدة للمدير وقلبت العديد من المشاريع رأساً على عقب » . كانت عبارة « رأساً على عقب » إشارة مهذبة تعنى فى الحقيقة « الرفض » . بدا له وكأن سيناريو فيلمه قد تعرض لهجوم على يدى خبير فى لعبة « الجودو » طرحه أرضا على ظهره .

ـــ « هل مازالوا ينوون تنفيذ سيناريو الفيلم ؟ »

قال مارك : « بكل تأكيد » . ترامى إلى السمع دوى أبواق السيارات عبر الهاتف . صرخ مارك فى السماعة وكان على ما يبدو يحادث قائد سيارة أخرى : « اخرس يا حمار » . ثم وجه الحديث إلى تيدى قائلا : « يظن هذا الجحش أنه يستطيع أن يدور إلى اليسار والإشارة حمراء » .

ـــ « هل هناك أخبار عن مشروع الجزء الثانى من ذلك الفيلم ؟ ألا تذكر ؟ فيلم « الزلزال » ؟ »

ـــ « آه . لقد نسيت . لا . لم يكونوا جادين » .

قال تيدى : « هذا ما تصورته » . لم يكن تيدى متحمسا حقا لهذا المشروع ، ورغم ذلك فقد اجتاحه شعور بالغثيان وهو يضع سماعة التليفون ، وكأنه هو الذى يعانى من نوبات غثيان الحمل الصباحية وليس شارلوت .

***

كان المنزل معبقا برائحة سجائر شارلوت . كانت أعقابها المطفأة على الأطباق فى كل مكان تومض وسط سحابات الرماد . من النافذة بدت المدينة الراقدة أسفل التلال وقد التحفت بغلالة داكنة من عادم السيارات . كان المنزل المجاور معروضا للبيع ؛ لمح خلال زجاج

النافذة ظلال غرباء ينقرون بأصابعهم على حوائطه ، أو ينحنون على الأرض وكأنهم يبحثون عن أدلة لجريمة ما . كان الجميع ينصرفون عنه فى النهاية . ترى لماذا ؟ !

أحس تيدى بأن عقله قد تيبس وتبخرت حيويته . حين عجز عن التفكير ركب سيارته وتجول بها على غير هدى . انطلق فى الشوارع الجانبية المهجورة بأقصى سرعة ، وتمهل فى الطرق الرئيسية التى تعج بالسيارات . سمع بكاء امرأة على المذياع . كانت تبكى فرحا لأنها نجحت فى تخمين الاسم الثانى للمذيع - « آرثر » - فربحت ألف دولار . ألهبت أشعة الشمس عينيه تحت عدسات نظارته الطبية التى ضاعفت من حرارتها . إلى أين يتجه كل هؤلاء البشر فى منتصف النهار ؟ كانوا يقودون سياراتهم بتمهل وكأنهم لا يقصدون مكانا بعينه . يالها من مدينة قلقة حارة ، أناسها فى حالة انتقال دائم ، كلٌ وحيد فى سيارته . استمرت المرأة تنتحب على المذياع وهى تقول : « لا أصدق أننى خمنت الإجابة الصحيحة . لابد أن لدىّ قوة إدراك خارقة » . موجات كهربائية يرسلها المخ عبر موجات المذياع ! عبرت الفكرة ذهن تيدى . هل تصلح فكرة لسيناريو جديد ؟ لا . لا أمل يرجى منها . لا أمل . ضغط على دواسة البنزين بسرعة وانطلق بسيارته وهو مغلق العينين للحظة .

***

قالت شارلوت تلك الليلة وهى تذرع أرض المطبخ بقدميها العاريتين : « ربما كان من الأفضل أن نتخلص من الجنين » . كان باطن قدميها المفلطحتين مغطى بطبقة من الجلد السميك المتشقق من كثرة ما تمشى حافية ، بل إنها مشت مرة بقدميها العاريتين على جمرات مشتعلة من باب التحدى لتثبت قدرتها على ذلك .

قال تيدى وهو يحاول أن يبعد عن ذهنه شبح الحلزون العارى الدقيق الذى تشكلت أظافر يديه وصار له مخ يرسل موجات كهربائية : « وهذا رأيى أيضاً » .

قالت شارلوت : « لقد جربت الأمومة من قبل فعندى لويس . ليس الآن بالطبع فهو يقيم مع « دون » أبيه . لكننى على أى حال جربت أن يكون لى طفل » . كان زوجها « دون » قد تزوج للمرة الثانية ، وكسب قضية الحضانة الدائمة حين ادعى فى المحكمة أن شارلوت تستخدم فى عملها آلات وأدوات تعرض حياة الطفل للخطر .

قال تيدى : « ليس من الحكمة أن ننجب الآن . هذا كل ما فى الأمر » .

قالت شارلوت : « أنت على حق . سأحدد الميعاد مع الطبيب حالاً » .

***

نزفت أسنانه دما فى الصباح وهو يغسلها بالفرشاة فصبغت رغوة المعجون بلون وردى . فحص أسنانه فى المرآة . هل انحسرت اللثة عن الأسنان بعض الشىء ؟ شعر بأسنانه تتخلخل . هل كانت دائماً معوجة هكذا ؟ ربما يوشك بعضها على الهجرة كالطيور إلى مناطق أخرى فى فمه . حين يبلغ الثانية والثلاثين من عمره سيكون قد فقد أسنانه وشعره بالكامل وأصبح صورة من طفله . لكن طفله لن يكتب له أن يولد بالطبع .

سمع صوت مطرقة شارلوت فى الفناء الخلفى . كانت منهمكة فى أحدث أعمالها : خزانة لعب لابنها لويس . لقد أخذت ميعادا من الطبيب

لعملية الإجهاض يوم الجمعة . هذا هو عين العقل ، قال تيدى لنفسه ، فأى حياة يمكن أن يتوقعها طفل من أب فاشل مثله لم يحقق النجاح إلا شهوراً معدودة ستكون حين يولد أمراً منسياً ؟ أليس من الممكن ، بل من المؤكد أن ينفق تيدى بقية عمره نادلاً فى حانة ؟ نادل نحيف عابس واجم يرتدى سترة العشاء وربطة عنق على شكل فراشة ، ويهز رأسه فى تعاطف مصطنع مع الزبائن وهم يذرفون ملح عيونهم أمامه حزنا على قصص حبهم الفاشلة ؟

كانت مفاتيح آلته الكاتبة المجهزة بالكمبيوتر مغطاة بطبقة لزجة من التراب . حملق فى شاشتها الخاوية التى حملقت فيه بدورها وهى تنتظر فى صمت صبور . خطر له أن انتظارها لسيناريو فيلمه التالى قد يطول حتى تحترق آخر دوائرها الكهربائية ، وأحزنته الفكرة بقدر ما أخافته . أغلقها وانطلق بسيارته . شرد ذهنه فى السيارة فوجد نفسه يتجه دون تفكير إلى شقته القديمة . جلس فى السيارة أمام المبنى وترك المحرك دائراً . ترى من يقيم فى شقته الآن ؟ تأمل الطلاء القديم المتآكل وسطح المبنى الذى أوشك بلاطه الأحمر أن يتهاوى ، والمزراب الذى اختنق بأوراق الأشجار الذابلة وغبط نفسه على حياته الماضية . كان فاشلاً حينذاك ، لكنه على الأقل لم يكن يخشى شيئا ، وكان عزاؤه أن حاله لا يمكن أن يتدهور إلى أسوأ مما كان عليه .

***

حين عاد إلى البيت وجد الباب مفتوحا والتليفزيون دائراً فى حجرة المعيشة الخاوية . رأى على الشاشة امرأة تضع المساحيق والأصباغ الكثيفة وتتشبث بقضبان السجن . كان شعرها يتطاير حول رأسها وكأنها هدف لعاصفة خاصة هبت عليها وحدها . كانت تقول لحارس السجن

بصوت دامع : « كنا ننعم بالسعادة حتى قام هوجو بخطف فيرن وترك أوتيس فى القبو وقد ظن أنه مات » .

— « يا خبر ! » – صاح صوت صبى من المطبخ . « لقد أخذت البيضة التى لم يتماسك صفارها » .

فرك تيدى عينيه بقبضتيه مرات حتى اندفع الدم إليهما وشكل شبكة كثيفة نابضة من الخطوط المتقاطعة أمامه .

حين دلف إلى المطبخ كان لويس يقول لأمه : « هل البيض مفيد للمناضد ؟ » كان صفار البيض السائل يلوث سطح المنضدة ويتساقط فى قطرات كبيرة لزجة إلى الأرض . وجد نفسه يدوس على قشر البيض . كان لويس يرتدى فوق فانلته الرثة التى تحمل صورة نمر رسوم الكاريكاتير الشهير « جارفيلد » عباءة من عباءات السحرة والحواة معلقة فوق كتفيه . صاح الطفل : « إنه عمى تيد ! كيف الأحوال ؟ »

قالت شارلوت وهى منكبة على الحوض وفى فمها سيجارة : « شىء لا يُصدق . أليس كذلك ؟ » تساقط رماد سيجارتها وسمع صوت انطفائه وهو يرتطم بخزف الحوض المبتل . أضافت : « الدلوعة التى تزوجها « دون » وجدت لويس فوق طاقة احتمالها » .

التقط لويس بيضة من الكرتونة وأخذ يديرها على المائدة كالنحلة . « قالت : إنها تحبنى وتريدنا أن نكون صديقتين حميمتين . لكنها فى أشد الحاجة إلى الراحة والهدوء . ثم بكت . أصابتنى بالغثيان » . دارت البيضة كالنحلة لحظة ثم تأرجحت وتدحرجت إلى حافة المنضدة حتى كادت تسقط لكنها توقفت فى اللحظة المناسبة .

أطفأت شارلوت عقب سيجارتها في رخامة الحوض . « وهكذا تخلى عنه « دون » بكل بساطة وأصبح الآن لى إلى الأبد » .

قال لويس : « كنا أعز أصدقاء أنا و « تريشى » ، لكنها حساسة أكثر مما ينبغى » .

فجأة انبعثت موسيقى عالية من التليفزيون فى الحجرة المجاورة وسُمعت امرأة تقول بصوت مرتجف : « هذا مستحيل يا ياسمين . إن ديريك يعانى من عجز جنسى » .

قال لويس : « كنا نشاهد هذا البرنامج معا أنا وتريشى قبل أن تصبح حساسة » .

***

قال مارك على الهاتف : « اللعنة ! لقد نسيت لماذا اتصلت بك » . كان صوته مبحوحا يرتعش قليلا . تنحنح مرتين ثم قال بصوت خفيض : « اللعنة ! »

— « هل أنت بخير ؟ »

— « اعذرنى يا صديقى . إن الأمر يتعلق بكلبى « فينى » . إننى فى شدة الضيق . لقد تخلصت منه بعد أن عضنى فى الليل وأنا نائم » .

قال تيدى : « شيء مؤسف حقاً » .

— « انتظر لحظة . تذكرت الآن . ستتصل بك مساعدة « نارلا جرين » . إنهم يزمعون إنتاج نسخة أمريكية من الفيلم الفرنسى « بينى وبينك » ويريدون سماع أفكارك فى هذا الصدد . إنهم يريدون إعادة إنتاجه فى صورة فيلم أشد أنثوية » .

قال تيدى : « لن أسأل لماذا فلن يجدى السؤال » .

قال مارك : « ومن منا يعلم لماذا ؟ ثم تنهد تنهيدة خافتة متحشرجة ممطوطة طويلة خيل لتيدى معها أنه ينكمش كبالون قديم . أخيراً قال مارك : « لو كان كلبا لطيفا لفهمت . إن ما يحيرنى أنه لم يكن كذلك ، ورغم ذلك فإننى أفتقده بصورة مؤلمة » .

***

كانت شارلوت وابنها يلهوان بصنع فطائر من الطين الذى لوث وملأ حوض الاستحمام ، وفى الفناء الخلفى رقدت الفطائر الطينية الجافة المتشققة على الأرض وكأنها كتل من روث حيوان ضخم . اختلط الطين بالشعر فى حوض الاستحمام وسد البالوعة التى أخذت تقذف بمياه رمادية عطنة من جوفها تجمعت فى قاعه . فى الفناء الخلفى كانت طبقة خفيفة من الطمى تتدحرج أسفل التل وتنثر الزلط وفروع الأشجار الصغيرة اليابسة على حشيش الحديقة . لاحظ شقوقا عميقة فى التربة فى الأماكن التى دهست فيها الأقدام الحشائش . رأى سيارة نقل تقف أمام البيت المجاور ، تومض أنوارها الخلفية . إذن فقد اشتراه شخص فى النهاية . فى الحديقة وقفت أريكة بزاوية مائلة على الحشيش وعليها أكوام من الصناديق ، وبجوار السيارة على الأرض رقدت ثلاثة مصابيح عارية من طرابيشها . بدت له الطرابيش التى وقفت بعيدا على الحشيش وكأنها قبعات حفل صاخب أقامه مَرَدَةٌ ثم تبخروا فى ظلام الليل .

كان نومه مضطربا فى تلك الليلة وطاردته الكلاب الضارية فى أحلامه . حين استيقظ وجد أن شارلوت قد نهضت من الفراش . كانت الوسادة التى جواره لاتزال تحمل آثار ضغط رأسها عليها . ران على المنزل صمت مخيف وأحس لأول مرة بأن البيت لا يصلح لسكنى

شخص بمفرده . خرج إلى الصالة ورأى ضوء التليفزيون يتسرب من باب حجرة لويس المفتوح . كان لويس يخشى الظلام فيترك جهاز التليفزيون دائراً بعد أن يكتم الصوت ليأتنس بالصور الصامتة . كانت شارلوت فى الحجرة تنحنى فوق صندوق مفتوح . همست : « انظر إلى هذا الحذاء المطاطى » . وناولته حذاء لطفل رضيع . وضع فردتيه على كف واحدة من كفيه . كانت أربطته المنحولة معقودة . على شاشة التليفزيون رأى امرأة هزيلة شاحبة تبحث بجنون فى خزانة أدويتها وتبعثر محتوياتها وتحرك فمها بكلمات غير مسموعة .

قالت شارلوت : « هل تصدق أن لويس كان بهذا الحجم الصغير ؟ »

كان الحذاء لا يزال يحمل رائحة النجيل المقصوص حديثا . قال تيدى : « لا أكاد أصدق » . تنهد لويس فى فراشه وانقلب على وجهه .

ـــ « مازلت أذكر معاركنا سويا حين كنت أضع الحذاء فى قدميه . كأنها حدثت منذ أمد قصير » .

ـــ « خمس سنوات تقريبا » . سنوات ممتدة خلَّفَها وراءه . منذ خمس سنوات كان يعيش فى شقته القديمة ويشعر بأن الحياة أمامه طويلة . كانت المرأة الشاحبة على الشاشة تبحث الآن فى خزانة المشروبات الكحولية ، وتقذف بالزجاجات الفارغة إلى الحائط فتتهشم عليه دون صوت .

قالت شارلوت : « لو عاد بى الزمن إلى الوراء لاستفدت من أخطائى السابقة وكنت أما أفضل » . ثم تنهدت قائلة : « هذا ما تقوله كل أم على أى حال » .

ـــ « إنك أم طيبة يا شارلوت » .

لفت شارلوت الحذاء الصغير بحنان فى منديل ورقى وكأنها تضع طفلا فى فراشه وتحكم الغطاء حوله ، وقالت : « إن حالة الأمومة تشبه تلك الأحلام التى ترى فيها نفسك تقود سيارة وضوء الشمس فى عينيك فلا تكاد تبصر شيئا أمامك وتظل تصلى طوال الوقت ألا تصطدم بشىء » .

قال تيدى : « وقد قدت سيارتك بسلام حتى الآن » .

قالت شارلوت : « لكنها تمضى بسرعة مخيفة » .

***

« الطريقة المثلى لإعداد مشروب كوكتيل المارجاريتا » . كان تيدى يقرأ فى كتاب « **فن تقديم المشروبات للمحترفين** » وهو ينتظر مع شارلوت فى العيادة الخاصة بعمليات الإجهاض . كانت رائحة المطهر القوى تنتشر فى الحجرة ، وكانت أرضيتها الخشبية العارية تلتمع ببريق مخيف أينما يقع عليها البصر . على الجانب الآخر من الحجرّة جلست فى مواجهتهما على أريكة برتقالية اللون من البلاستيك فتاة فى سن المراهقة تروّح على وجهها بكتيب المعلومات الخاص بالعيادة . شعر تيدى بلثته متورمة فتحسس جدار أسنانه بلسانه ليختبر ثباتها . كان الهواء البارد يندفع من مكيف فوق رأسه . قرأ فى الكتاب : « إن مزج مشروب كوكتيل المارجاريتا كما ينبغى يمثل أعظم تحد فى فن تقديم المشروبات » .

قالت شارلوت : « كان قراراً حكيما ألا نحتفظ بالطفل » . نزعت بأسنانها زائدة جلدية بجوار أحد أظافرها . ظهرت قطرة من الدم مكانها سرعان ما تسربت فى شقوق جلدها الدقيقة .

قال تيدى : « كان قراراً عملياً » .

ـــ « ليس لدينا دخل ثابت ، أنا أو أنت » .

ـــ « لم نستعد لهذا بعد » . لا شىء يدوم ، والحياة لا تثبت على حال ، فهى تمنحنا بيد ثم تعود فتسلب منحتها باليد الأخرى وبنفس البساطة . أضف إلى ذلك خطر التلوث . كيف له أن ينجب طفلا فى مدينة تظللها سحابة من الهواء فى لون الشاى الخفيف ؟ لم تفلح تلك الحجة فى إزالة همه أو إطفاء جذوة القلق المتأججة داخله . لابد أن يحميا طفلهما من العالم ، أن يحولا بينهما الآن قبل أن يكتمل تكوينه ، وهو مازال بعد بذرة قلب ضئيلة فى برعم صغير من اللحم الطرى . لقد نبت فجأة من حيث لا يدرى أحد كما ينبت الأمل فى الصدور .. هشا متهورا وأعمى . شعر تيدى بآلام فى معدته وقلب الصفحة وقرأ : « إن إجادة مزج كوكتيل توم كولينز تمثل قمة النجاح فى فن تقديم المشروبات » . غامت السطور أمام عينيه وكأنه يراها من خلال موجات كثيفة من الحرارة .

همست شارلوت : « لا أستطيع أن أكف عن التفكير فى الأسماء . ما رأيك فى اسم لوسى أو اسم روفوس ؟ »

ـــ « لا يمكن أن تسمى ابننا روفوس . إن أى إنسان يدعى بهذا الاسم لا يمكن أن يكون طبيعيا » .

قالت شارلوت : « هذا مضمون على أى حال ، فأى إنسان له أبوان مثلنا لا يمكن أن يكون طبيعيا ، وفى هذه الحالة أليس من الأفضل أن نعطيه اسما يناسب غرابة أطواره » .

نادت موظفة الاستقبال فى الردهة وهى تضع علامة فى مفكرتها : « شارلوت بلوك . تفضلى إلى الحجرة الخلفية » .

سحبت شارلوت نفساً عميقا وقالت : « قل وداعاً لروفوس » . لكنها لم تتحرك .

سمع دقات قلب ثالث بينهما وشعر بعينين تنتظران لحظة الإبصار . كان على يقين من هذا . أى عالم سيحيا فيه الطفل ؟ وأى مستقبل ينتظره متعلقا فى الأفق كالسراب ؟ تدفق الزمن أمام عينيه فى تيار جارف فتبدى له المستقبل – كل ما بقى له من عمر – كالعالم حين يراه من علو شاهق .. متألقاً متبدلا ، مفعما بالنور والهواء ونابضا بأنفاس المجهول . شعر بالطفل يتنفس من خلال أنفاس شارلوت وينتظر معها معلقا فى رحم الأمل . سيختنق الطفل .. إنه يحتاج الهواء . قال تيدى : « لنخرج من هنا » ، واندفعا إلى الخارج .

تردد وقع أقدامهما عاليا وهى تضرب الأرض بشدة . صاحت شارلوت لاهثة حين خرجا من المبنى إلى الهواء الساخن فى الشمس الحارقة : « هذا جنون » . وضعت قبضتها على فمها وسعلت سعالا عميقا متقطعا مدويا . كان الهواء يبرق بلون الذهب فى ضوء الشمس ، وكانت أسطح المنازل المنخفضة حوله وسعف النخيل تبرق وتلتمع وكأنه يسبح فى بحر من النور الباهر أصابه بالدوار . قال لها وهما يدخلان السيارة : « أتمنى أن تكون له أسنانك وشعرك ، فقريبا لن يكون لدى شعر أو أسنان » .

قالت شارلوت : « أما أنا فأتمنى أن يرث لونى » .

***

قال مارك على التليفون : « لقد رفدوا ميمى » .. سمع تيدى صوت مياه تتناثر ونباح كلب يدوى على الطرف الآخر من الخط .. « ستصل الإدارة الجديدة إلى الاستوديو غداً . آسف يا عزيزى . لقد أصبحت معلقا فى الهواء مرة أخرى » .

قال تيدى : « لقد اعتدت هذا » .

قال مارك : « كفى يا فينى . اجلس مكانك . لا تتحرك » . رد الكلب بصيحة غاضبة .

ـــ « هل عاد فينى ؟ »

ـــ « أجل . لم أقدر على فراقه . لقد عاد من مأوى الكلاب فى حالة بشعة من القذارة . إننى أكلمك من تليفون الحمام . هيا يا فينى . ادخل حوض الاستحمام » . فى الخلفية كان فينى يزأر ويزمجر . قال مارك : « إنه يكره الماء كالسم » .

ـــ « هل تعلم إذا كانت تلك المرأة - نارلا جرين - ... » .

صرخ مارك : « فينى ! لا . لا تفعل هذا . يا إلهى ! »

ـــ « هل أنت بخير ؟ »

كان مارك يحاول أن يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وأخيراً قال بصوت ضعيف : « أجل . بخير . خدش بسيط . إنه غاضب منى . إنه يدرك أننى حاولت التخلص منه » .

ـــ « هل ستكون فى أمان ؟ »

قال مارك : « بكل تأكيد . سينسى الحادث إن عاجلا أم آجلا . كل ما فى الأمر أننى سأحاول أن أمكث هنا معه طوال الوقت » .

قال تيدى على مائدة العشاء : « أعتقد أن مستقبلى فى السينما قد أصبح على كف عفريت » . جلس لويس بائسا وقد وضع إحدى أصابعه فى فمه ينظر أمامه شارداً .

قالت شارلوت وهى تداعب شعر الصغير : « لا تسرح . كل . ألا تحب اللحم المشوى ؟ » . كانت قد قررت أن تكف عن التدخين من أجل الجنين ، واستبدلته بأصابع اللبان التى كانت تحشرها فى فمها واحدة تلو الأخرى حتى تصبح كتلة ضخمة من اللبان تصدر صوتا مسموعاً حين تمضغها . لم يستطع تيدى أن يتخيل كيف سيتحمل هذا الصوت لمدة سبعة شهور أخرى .

قال تيدى : « إننى أفكر فى أن أعمل فى فرقة إنقاذ » . يستطيع أن يبيع آلته الالكترونية ، وينفق ثمنها فى دروس تعليم الإنقاذ . إنه عمل لا بأس به ، سيلقى بنفسه فى الأمواج الباردة كالثلج وينقذ الغرقى . سيكون أول حارس من حراس الشواطىء فى العالم بلا أسنان .

قالت شارلوت وهى تصنع فقاعة رمادية رخوة من اللبان : « فكرة رائعة » .

اندفع الدم إلى وجه لويس فكسته حمرة عميقة . سحب نفسا عميقا ثم قال : « إننى أفتقد تريشى » ، ثم انفجر باكيا بين حبات البازلاء فى طبقه . جلسا فترة طويلة يستمعان فى صمت لشهقاته المبللة بالدموع .

أخرجت شارلوت قطعة اللبان من فمها ولصقتها أسفل الطبق . وأخيراً قالت : « لا تحزن يا صغيرى » .

رفع لويس وجهه وقد التصقت بجبينه حبة مهروسة من حبات

البازلاء . كانت دموعه تنساب على وجهه وتتساقط من ذقنه . قال : « لا . سأحزن . هذا شأنى . إنك لا تفهمين أى شىء » . ثم غادر الحجرة وهو يضرب الأرض بقدميه .

ترامى نشيجه المكتوم من خلف الجدار إلى سمع تيدى ، ثم صوت إدارة مفتاح جهاز التليفزيون وبعدها أزيز الكهرباء الهامس المنبعث من الشاشة البيضاء بعد كتم الصوت – صحبته الصامتة . قالت شارلوت وهى تنظف الأطباق من بقايا الطعام : « لا أكاد أصدق أنه أحب تلك الدلوعة الحمقاء . الأطفال تخدعهم المظاهر » .

وقف تيدى إلى جوار نافذة المطبخ . تراقصت الظلال على جدران المنزل المجاور . كانت نوافذه مظلمة وكأنه قد خلد إلى النوم . رأى أضواء المدينة من خلف أشجار النخيل ، تلتمع وتخبو وكأنها تغمز له – حشود وحشود من البيوت والعربات تتلألأ كالنجوم فى سماء غائمة ملبدة . نسجت أضواء العربات لوحة معقدة من خيوط النور لا تلبث أن تلتقى فى عقد دقيقة ثم تنفرج لتلتقى مرة أخرى .

غابت النجوم الساطعة . ليس هناك نجم واحد يتعلق نظره به . لم يبق سوى نور الحياة ... نور خافت ينبعث من معاناة البشر ... بشر حقيقيون وخاطئون مثله . وقف ووجهه إلى النافذة . تراكم بخار أنفاسه على الزجاج حتى غطاه فغابت المدينة وسط الضباب .

نجـــاح ســـاحـــق

كاثرين بتروسكى

كان المنظر الجانبى لوجه إيف رولان كاريكاتيرى الطابع يسهل تقليده فى الرسوم الكاريكاتيرية ، وهذا ما حدث كثيراً بالفعل فطالما اجتذب رسامى هذا الفن : كان له أنف طويل نحيل وحاجبان كثيفان ، وشعر أبيض مجعد يذكرك بشعر الكاتب صمويل بيكيت الذى يبدو دائما منتصبا فوق رأسه وكأنه أصيب بالهلع . أضف إلى ذلك بالطبع أن شهرته كمخرج سينمائى جعلته هدفا طبيعيا لرسامى الكاريكاتير . وقف رولان يستقبل المهنئين . هاهو يبتسم وهو يحول عينيه إلى الضيف التالى فى الصف . تكشف الابتسامة عن أسنان دقيقة الحجم .

تقول المرأة التالية فى الصف مهنئة : « سيكتسح فيلمك المهرجان دون شك يا مسيو رولان » . لابأس . لقد نطقت اللقب الفرنسى بصورة مقبولة بل وأجادت نطق حرف الراء . تضيف المرأة : « وكم كان حديثك الليلة رائعا ! إننا جد محظوظين أنك بيننا هنا ! »

وجد رولان المرأة التى تحدثه عن روعته رائعة بدورها ، فهى نحيلة فارعة الطول ذات شعر أسود وبشرة خمرية ، ترتدى ثوبا من الحرير الأسود وقبعة كبيرة من الخوص بلون الثوب . إنها تنتمى إلى ذلك النوع

من النساء الذى يفضل أن يحيط نفسه دائما بهالة من الغموض ، كما أنها الوحيدة التى ترتدى قبعة فى الحجرة . وجد رولان نفسه يفكر كيف يستطيع أن يوظف ملمحاً تفصيليا كهذا فى فيلم من أفلامه . لاحظ وردة كبيرة من الحرير على جانب القبعة السوداء ، لونها وردى فاتح . كانت تهتز مع حديث المرأة . كانت تتحدث بثقة ولباقة ورغم ذلك بدت عيناها ذاهلتان - بالمعنى الحرفى لكلمة الذهول . هل أذهلتها محاضرة رولان ؟ أم أن شخصا استدرجها إلى قاعة المحاضرات ثم ضربها بين عينيها بمطرقة صغيرة قاتلة ؟

من المحتمل أن تكون الحقائق والمعلومات التى ضمنها محاضرته الليلة قد سببت بعض الحرج لإدارة المهرجان . فقد لاحظ انصراف عدد كبير من الحاضرين أثناءها ، عدد أكبر من المعتاد فى مثل هذه المناسبات ، ترى هل أخطأ جمهور من الحاضرين القاعة ، أو تاريخ المحاضرة التى يبغونها ؟ أم تراهم انصرفوا لأن إيف رولان خرج عن الموضوع المعلن عنه - وكان « حول إخراج فيلم الطوفان » - وفضل أن يتحدث عن تأثير الاحتلال النازى على مخرجى وصانعى السينما الفرنسية فى السبعينات والثمانينات ؟ تتحرك صاحبة القبعة الكبيرة والوردة جانبا لتفسح المجال لمن يليها فى الصف ، يلتقط رولان يدها ويهزها مصافحاً مرة أخرى ثم يرفعها إلى شفتيه . إنه يذوب رقة وسحراً . يغشى المرأة بعض الاضطراب تحت تأثير سحره المعتاد ، وتنتشر فى المكان حولهما رائحة عطر الشاليمار الثمين ، كثيفة ، لزجة ، مُسَكِّرة كبحر من الدماء الغزيرة فتعبق الجو .

حين تمضى يستدير إيف رولان ليواجه من يليها فى الدور . إنها امرأة أيضا ولكن من نوع مختلف تماما ، وجهها متورد (أو لعله مصبوغ بلون وردى ؟) ، وصوتها لاهث متلهف (أو هكذا تعمدت أن

يبدو ؟) ، تقول له إنها كانت تنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل .
« هراء » يهمس بالكلمة لنفسه . لقد قابل هذه المرأة مائة مرة ، لا بل ألف مرة على الأقل قبل ذلك . ورغم ذلك ربما لم تكن نفس المرأة تماما . إذا درسها جيدا فسوف يكتشف أوجه الاختلاف .

***

كانت صوره فى الصحف والمجلات تظلمه كثيراً ، وكذلك اللقطات التليفزيونية . كان الجميع يتفقون فى هذا الرأى . كانت الكاميرات الصغيرة الخفية تقتنصه دائما وهو يجرى هربا من المعجبين والصحفيين وقد رفع يده كأنما ليصد لكمة متوقعة . كان يلعن المصورين ويسبهم بالفرنسية ، ونادرا ما حذف المحررون شتائمه ولعناته من مقالاتهم ، لم يكن رولان متأكدا إذا كانوا يفعلون ذلك لأنهم يعرفون معنى كلماته أو لأنهم لا يفهمون ما يقول .

تسأله المرأة ذات الصوت اللاهث : « قل لى ما الذى يجعلك تأتى إلى مكان مثل هذا ؟ » يبدو عليه الارتياح لأنها تحاول ملأ فراغ الصمت المخيم على المكان . ربما يزعجها كما يزعجه .

ـــ « المال . لا أكثر ولا أقل » .

ـــ « آه . لا يمكن أن أصدق هذا » .

ـــ « إنها الحقيقة » . يقول هذا ويهز كتفيه ويبتسم ثم يقلب جيوب سرواله الخاوية مقلداً مارسيل مارسو ، ويضيف : « كما ترين » . إنها حركة عملية تفيد المعنى المقصود وهى أبلغ من أى كلمات .

تنفجر المرأة ضاحكة .

— « وأنت ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ »

— « زوجى . فى الزمن الماضى . أقصد زوجى السابق » .

— « آه » .

— « وما هو الشىء الذى يستطيع أن يبقيك هنا أو أن يغريك بالعودة ؟ »

يرد : « امرأة جميلة » . إنها إجابة جاهزة لا تكلف جهدا ، وقد وجدها رولان دائماً إجابة ممتازة ومفيدة لعدد كبير من الأسئلة المنوعة . أضف إلى ذلك أن سؤالها كان يحمل قدرا كافيا من الغزل الصريح . وجهه ساكن تماما لا يتحرك فيه إلا أعماق الحدقتين .

تقول المرأة : « الناس أمزجة » ، وتضحك مرة أخرى ويشاركها الضحك ثم يقول : « هل تسمحين لى أن أحضر لك شرابا وبعض الطعام ؟ » .

— « لا أرجوك . أعطنى هذا الشرف » ، تقولها وهى تنحنى على طريقة شارلى شابلن حين يقول بالإشارة « تفضل أنت أولاً » ، ويستجيب هو بنفس الحركة ، ويستمران فى تبادل الانحناءات حتى تتحول إليهما أنظار كل من فى الحجرة . حينئذٍ ينفجران فى الضحك معاً من منظر الجمع الذى يضحك منهما .

يقول للمرأة التى تدعى « كليا » : « اخبرينى . ما اسمك ؟ »

***

« والآن إليكم مسيو إيف رولان » . استقبله رواد المهرجان السينمائى بالتصفيق العاصف كالعادة . وكالعادة كانت قاعة العرض

ممتلئة عن آخرها . كانت الإضاءة تلك الليلة مثيرة وباهرة أكثر من اللازم ، لكن هذا أيضاً كان شيئاً معتاداً . لقد أصبحت أيام رولان تتشابه على وجه ما فى تفاصيلها تشابهاً مخيفاً . رحلت إلى الأبد فيما يبدو لحظات الترقب المثيرة والممتعة حين كان يخطط لأفلامه وهو لا يدرى إذا كانت ستخرج إلى النور ، أو ستعجب النقاد أو سيأتى أحد لمشاهدتها . فبعد فيلمه « الطوفان » أصبح اسمه يجتذب الجماهير بصرف النظر عما يقدمه الفيلم أو يقوله النقاد . كان الأمر يختلف بالطبع فى حالة النجاح الساحق ، حين يضرب فيلم من أفلامه أرقاما قياسية . لكن هذه الفلتات كانت تعتمد على أشياء أخرى غير الفن مثل توقيت عرض الفيلم والدعاية لا على قيمة الفيلم نفسه .

أضف إلى ذلك أنه أصاب حظا وافراً من النجاح ومتع الدنيا يكفى حياتين كاملتين ، وطاقة الإنسان على المتعة لها أيضا حدود . كان أهم شىء فى حياته الآن هو عمله الذى تحول فى السنين الأخيرة بالنسبة له إلى عشيقة هادئة ألف طباعها ، إلى رفيقة حياة . كان يثق فى قدرتها على أن تقوده إلى تلك الفجوات فى جدار الزمن التى ينزلق عبرها خارج الواقع المادى لا يدرى إلى أين . وطالما استمرت هذه الرحلات لن يشعر بالقلق إزاء أى شىء . ماذا يهم إذا كان أسلوبه الشبابى التلقائى العنيف قد تحول إلى أسلوب أقل اندفاعا وأكثر اتزانا ؟ لقد استعاض بالوصول إلى القمة والتربع عليها عن فقدان أسلوبه المتمرد ، بعد أن باتت حريته الكاملة فى أن يفعل ما يشاء دون تدخل من أحد حقيقة ملموسة لا يتطرق إليها الشك . كان يفعل ما يريد ويجيد عمله .

آه .. « الطوفان » . كان هذا الفيلم نعمة ونقمة على رولان . لقد عفا عليه الزمن وأصبح تاريخاً قديما لكن الناس ما زالت تذكره وتطرح نفس الأسئلة .. نفس الأسئلة .. دائما عن « الطوفان » . هل توقف الناس عن

الذهاب إلى السينما منذ عشر سنوات ؟ ورغم ذلك لا يستطيع أن يرفض الإجابة وإلا بدا فظاً غليظاً . ربما كان الثمن الحقيقى الذى ندفعه لقاء النجاح هو اضطرارنا للإجابة على نفس الأسئلة دائما أبداً . وقد كانت إجابات رولان جاهزة ..

***

جيم جواب : لا . إنه لا يتوقع أن يخرج فى المستقبل جزءا ثانياً مكملاً لفيلم « الطوفان » .

جيم جواب : لا ليس صحيحا أنه عثر على بطلته مونيك إتوال فى بيت من بيوت الدعارة فى مدينة مارسيليا ، ولا . ليس صحيحا أنه رشحها لبطولة فيلمه « أنا » .

جيم جواب : لا ليس لديه مشروعات حاليا لأن يصبح مواطنا أمريكيا .

جيم جواب : لا ليس صحيحا أنه وإنجمار برجمان أعداء ألداء . بل إنه لا يعرف الرجل ، وهل يعرفه أحد ؟

جيم جواب : نعم . لديه أطفال . ثلاثة . أوشكوا على تخطى مرحلة المراهقة . لا أريد أسئلة أخرى عنهم أرجوك .

جيم جواب : نعم لقد تزوج مرة ثانية . لا ليس متزوجا الآن .

جيم جواب : لا . إنه لا يعتقد أن الفنان يستطيع أن يبذل أقصى طاقاته فى عمله وأن يقوم فى نفس الوقت بدور الشريك فى علاقة زوجية .

جيم جواب : لا . إنه ليس ضد الشواذ .

جيم جواب : لا . إنه ليس مع الشذوذ فهو يؤمن بأن الناس فى النهاية لا خيار لهم فى هذه الأمور .

بعد ذلك سيقول : إننى آسف جدا . لا أود أن تفوتنى الطائرة .

***

وجدها تقول له : « أدركت أن وضعى ليس أفضل من وضع المحظية » .

ألقى رولان على كليا نظرة شاملة فاحصة من وجهة نظره العملية كمخرج . كانت شقراء ، زرقاء العينين ، أمريكية حتى النخاع ، تنتمى إلى ذلك النمط من الممثلات اللاتى يقمن بأدوار الطالبة التى ترأس فريق المشجعين فى المباريات الطلابية ، أو ابنة الجيران ، أو الفتاة البريئة الساذجة ، وذلك حتى يتقدم بهن العمر فتفضح اللقطات القريبة آثار الزمن على وجوههن رغم استخدام حيلة التصوير الناعم خارج مركز بؤرة الكاميرا ، وهى حيلة لا تنطلى على أحد إذ يعرف الجميع الدافع وراء استخدامها .

ابتسامتها لا بأس بها فى الحياة العادية لكنها لا تصلح للشاشة الكبيرة : ستحتاج أسنانها لأغطية صناعية . آه .. لقد عادت إلى موضوع وضعها كمحظية . « كم من الأعوام دامت حياتك الزوجية ؟ »

ترد : « أربعة عشر عاماً . يا إلهى . عمر كامل . كان محاميا . ورغم ذلك كان كريما معى عند الطلاق » . تنظر إليه فيرى فى عينيها أطياف ولاية كانساس وأكواب اللبن المثلج المضروب بطعم الفواكه

ومباريات الكرة أيام السبت . يهز رأسه ويلاحظ أصابع يديها وأظافرها المبتورة . لقد قرضتها حتى الجلد الرخو .

ــ « هذا لا يعنى أننى لم أكن أستحق كرمه هذا . ولكنك تعرف طبائع المحامين » .

أجل . إنه يعرفها . « إنك تظلمين نفسك بالتأكيد » .

ــ « بل إننى لا أجد وصفا أفضل من هذا . لقد كان ينفق علىّ ويدفع الفواتير ويضاجعنى . واستمر يضاجعنى زمنا طويلا بعد أن مات الحب . أصبحت الكتابة هى كل حياتى » . ازداد تورد وجهها .

ــ « آه . أنت كاتبة ! صدقت فراستى إذن . لقد أحسست أنك على صلة ما بعالم الإبداع . وماذا كان شعور زوجك حين اتجهت إلى الكتابة ؟ »

ــ « 'هذا البلاء دمر زواجنا' – هذا ما قاله لى . ربما كان على حق » .

ــ « وماذا تكتبين ؟ الشعر أم القصة ؟ »

***

يدور السيناريو الذى ألفته كليا حول شخصية رجل يتمتع باحترام المجتمع (ويعمل محاميا) لكنه يدمن أنواعاً من المواد المخدرة التى تصرف بالروشتة والتى لا يحدد السيناريو طبيعتها . وفى كل ليلة يقود الرجل سيارته الكبيرة المبطنة بالفراء ويتجول بها وهو مخدر من الساعة الثانية بعد منتصف الليل وحتى الخامسة صباحا . ويتكرر هذا

الطقس كل ليلة دون أن نعرف الهدف منه . لا . لن يبلع الجمهور هذا أبدا فى رأى رولان . لكنه يبتسم ويهز رأسه منصتا لقصة كِليا . ربما تتضح الأمور فيما بعد . إن الإنسان فى مثل حرفته يتعلم أن يتساهل مع المؤلفين حين يتجاهلون عرض تفاصيل الموقف المبدئى فى القصة . أما الفكرة أو « التيمة » الرئيسية والمناطق الهامة التى تحتاج إلى إبراز وتأكيد فهو يفضل أن يعالجها بوسائل السينما المقتصدة ، فيترجمها إلى حركة ذات مغزى أو متتالية من الصور واللقطات ، أو إلى ظلال حساسة فى التعبير ، أو إلى ملمح رئيسى فى الديكور . أجل . هذه هى وظيفة المخرج الحقيقية .

ذات ليلة بينما يتراجع هذا المحامى المدمن بسيارته إلى الخلف خارجا من جراج المنزل يدهس زوجته وحماته بعجلات سيارته دون قصد . فالزوجة والحماة لا تعرفان شيئا عن عاداته الليلية ، ولهذا فقد أحضرتا فراشهما المتنقل إلى الخارج وبسطتاه على أرض مدخل السيارات الأسمنتية الدافئة أمام الجراج ، ورقدتا هناك تنتظران مشاهدة نيازك « البيرسايد » وهى تهوى من السماء . ورغم حالته المخدرة يدرك المحامى خطورة الموقف ، ولكنه يعجز عن التصرف فيهرع إلى تاجر المخدرات الذى يشترى منه مئونته ويطلب معونته . ويستغل التاجر حاجة المحامى ويأسه وعجزه فيطلب ثمنا باهظا لقاء خدماته .

تتوقف كِليا . قبل أن تستأنف يسألها رولان : « هل جربت الكوكايين ؟ »

ترد : « لا . لكنى جربت سجائر الماريوانا مرة منذ سنوات . وجربها بيل أيضا . أين يحصل المرء على الكوكايين فى بلدة مثل هذه ؟ إننى لا أعرف حتى أين أبدأ البحث » .

إنه أمر ممكن كما يعلم رولان جيدا ، لكنه يفطن إلى أن كِليا قد تصورت أنه يطلب منها بطريقة غير مباشرة أن تحضر له بعض الكوكايين . يقول مصححا : « لقد أسأت فهمى . كنت أقصد بالسؤال أن قصتك ... » .

— « آه .. إنها ليست سوى قصة خيالية » ، تقول هذا وهى تبتسم فتظهر غمازاتها .

يبتسم بدوره .

تستأنف كِليا تلخيص خيوط حبكتها ، لكن رولان لا ينصت فهو لا يريد أن يكتشف أن زوجها كان فعلا على حق .

***

تعلو الكلمات وتهبط حول إيف رولان ، وتفيض وتغيض فى موجات محملة بحطام الأصداف وشظايا قديمة من زجاج ملون . لا مفر منها . إنها جزء من تلك الأرض المجهولة التى يواجهها دائماً حين يقبل الارتباط بإلقاء حديث أو محاضرة : لا مفر من حفلات الاستقبال التى تلى المحاضرات . يحاول إيف رولان أن يتصور منظر الحجرة من خلال عدسة ذات زاوية منفرجة فى كاميرا معلقة فى السقف . ترى كيف سيبدو الضيوف فى تجمعهم وتفرقهم وغدوهم ورواحهم ؟ أمواج تسعى نحو الأرض العالية . عيون الحشد تترصده أينما ذهب وكأنها عيون بشر أصابهم مس من جنون القمر فتعلقت عيونهم فى وله بالمعبود ، أو وجوه أزهار عباد الشمس تتبع حركة الشمس نحو المغيب . على حافة المنظر تقف المرأة ذات القبعة والوردة تتأمله من بعيد فى تحفظ ووقار وكأنها شجرة ورد فى حديقة أحد القصور .

فجأة يشرق الوعى فى نفس رولان : صاحبة القبعة ذات الوردة هى زوجته الأولى تماما . قد ينكر الجميع وجود أى شبه بين المرأتين لو أنهما وقفتا جنبا إلى جنب ، فالأمر يحتاج إلى خبرة . لن يدرك الشبه إلا رجل عاشر امرأة من هذا النوع . امرأة مثل زوجته إيلى وتلك المرأة صاحبة القبعة والوردة . إنه شبه لا يستطيع إيف أن يشرحه أو أن يصوره فى فيلم . إنه يتمثل فى الرائحة – رائحة المراعى ، رائحة أبقار الحليب ، وتلك الهيئة التى تشى بمعنى المقاومة السلبية . كان رولان يشعر بالضيق كلما تذكر إيلى : إيلى التى كانت تعرف كل جوانب نفسه وخباياها وتعرف فيه أشياءً فقدها الآن . لكنها رفضت أن تفهمه ولم يستطع هو أن يفهمها . لقد كان يحتاج حريته كاملة . لقد ملها وربما ملته هى أيضاً . كانت دواعى الانفصال عديدة – وكلما تأملا الأمر ظهرت مبررات أخرى جديدة . هل يمل كل إنسان شريك حياته بعد فترة ؟ ربما – يقول رولان لنفسه – الفرق الوحيد هو أن البعض ينجحون فى إخفاء الملل أكثر من البعض الآخر . يتثاءب .

ينظر رئيس المهرجان فى ساعته . لم ينته بعد الوقت المخصص لمسيو رولان . بقى من الوقت خمس وعشرون دقيقة . لا بأس .. لقد كلفهم مجيئه وأجره ثروة طائلة أو هكذا بدا الأمر لهم .

***

فجأة يشعر رولان برغبة جامحة تجاه صاحبة القبعة والوردة .

هذا هو الجنون بعينه . يشعر بأعصاب ساقيه الخلفية تهمس له : اجذبها إليك ومزق ثوبها الثمين واحملها بعيدا إلى أى مكان ، إلى مكان مجهول . إنه يعلم جيدا أنها لم تعتد مثل هذه العواطف الجامحة . ما الذى جرى له ؟ هذا هو العبث بعينه . إن القضية التى تواجهه الآن

هى ما إذا كان يستطيع التحكم فى النفس – التحكم فى النفس ؟ أم التحكم فى الآخرين ؟ لا يهم . إنه يريد أن ينزع القبعة عن رأسها ويلف خصلاتها حول أصابعه ، وأن يلتهمها ويفقد ذاته فيها .

يتثاءب ويتمطع ويدعى الملل . إننى متعب . سامحونى . فرق التوقيت . يلمس كوعه شيئا . إنها كِليا تحمل كأساً من النبيذ ومكعبا من البطيخ مرشوقا على عود من أعواد الخلة المزينة بالأوراق الملونة .. وتخطر له فكرة .. فكرة فيلم آخر . يتناول منها كأس النبيذ وينظر إليها من خلال حافة الكأس .

يسألها : « أين أطفالك ؟ »

ـــ « تيم يعيش مع بيل . أما ميسى فتعيش فى المدينة الجامعية » . تخفض كِليا عينيها ثم تفطن إلى معنى السؤال فترفع عينيها بسرعة إليه وتسأل : « لماذا تسأل ؟ »

نعم . إنها تفهم اللعبة . « ألا يكفينا هذا القدر من الحفل ؟ » يسألها ويضيف : « أليس من الأفضل أن ننسحب إلى مكان أكثر هدوءا ؟ سريلانكا ؟ أو جزر الهبريديز ؟ أو بورا بورا ؟ إننى رهن إشارتك » .

تضحك ثم تنظر حولها . لم يتأهب أحد للانصراف بعد ، وكثير من المدعوين يعرفونها ويعرفون زوجها . خبت ابتسامتها .

هل يستطيع أن يخمن ما يدور فى عقلها ؟ إنه إيف رولان بشحمه ولحمه . تصوروا ! هكذا تقول لنفسها وربما أيضاً تسترجع المناظر الغرامية المثيرة فى أفلامه ، ومشاهد العواطف المتأججة بإضاءتها الذكية وملاءاتها العديدة وهمساتها التى تكتمها الوسادات . يالها من مشاهد رائعة ! لقطات متتابعة للأكتاف والظهور والسيقان والصدور

وقبلات وأحضان .. ثم لحظة النشوة . تصوير بؤرى ناعم وأضواء خافتة .. حلم رومانسى يتحول إلى حقيقة مرئية .

ـــ « حسن . هيا بنا » .هذا ما تقوله .

ستكون أمسية عادية بسيطة : هكذا الحال دائما مع مثل تلك الأمسيات . سيذهبان إلى بيتها أو إلى حجرته . يمد إيف يده ويمسك بيدها ويتجهان إلى الباب .

قريبا من الباب تقف صاحبة القبعة والوردة ، ظهرها للباب ووجهها للناحية الأخرى ، تحادث رئيس المهرجان ، أستاذ جامعى ، وشاب متحمس منفعل يرتدى نظارات طبية . حين يمر رولان خلفها يتعثر ويفقد توازنه ، لكن عثرته كانت فى الحقيقة مقصودة ومدبرة . يقذف بمكعب من الثلج فى ظهر ثوبها الأسود الحريرى الأنيق . تصرخ من المفاجأة وتميل إلى الأمام فيختل وضع القبعة على رأسها وتنسكب الخمر من كأسها على رئيس المهرجان .

يزفر رئيس المهرجان من خلال أسنانه المطبقة غيظا ويهمهم : « ياله من ابن حرام أحمق ! » ويشعر بالاشمئزاز منه وأيضا بالغضب لأنه لا يحترم التزاماته .

يستأنف إيف طريقه إلى الباب وهو يبحث عن يد كِليا ، وكأنها مغناطيس يشده رغم إرادته .

يصيح رئيس المهرجان : « مستر رولان . مازال الوقت مبكراً » .

يعتذر رولان كذبا ويقول وهو يتراجع نحو كِليا : « آسف جدا . يحدث لى هذا كل مرة أشرب فيها النبيذ الأحمر . لكننى لا أتعظ . دائما

يصيبنى صداع قاتل » . إنه الآن فى الردهة الخارجية وكِليا تسبقه ، وهو ما زال يحاول اللحاق بها ليمسك بيدها حتى ليكاد أن يجرى . بدا له وكأنهما يعبران متاهة صامتة ذات جدران خشبية مرتفعة . هناك يفقد الصوت أهميته ، فأهم شىء هو الحركة والفعل وما ينتظرهما فى المستقبل العاجل .

يطل رئيس المهرجان من الباب مائلا بجسده ويلوح بمظروف وكأنه يلوح بعلم لقطار ، ويصيح : « نسيت المظروف » .

يرد إيف صيحته بأخرى : « ارسله إلىّ بالبريد » . لايهم إن أرسلوه أو لم يرسلوه . إنه فى النهاية أمر لا يتعلق إلا بالمال .

صفحـات مـن التــاريخ

فرانسيس شــيروود

حين أفكر فى زواجنا القصير منذ ستة وعشرين عاما ، قبل حركة الحقوق المدنية للسود بمظاهراتها الصاخبة فى الحافلات العامة طلبا للمساواة ، ومسيرات الاحتجاج دفاعاً عن الحرية أشعر وكأننى أتذكر صفحات من أحد كتب التاريخ . فى ألبوم الصور القديمة يبدو ماركوس بشعره القصير جدا ، المحلوق إلى جلدة رأسه ، والمفروق بدقة شديدة بآلة الحلاقة ، وبحذائه اللامع كالمرآة وكأنه أحد أعضاء « مؤتمر القيادات المسيحية الجنوبية » ، بينما أبدو أنا بابتسامتى البيضاء الصريحة وخصلاتى الذهبية المبعثرة ، وأظافر قدمى المتسخة التى تطل من صندلى المفتوح وكأننى صورة كاريكاتيرية لفتاة من « الهيبيز » – رغم أن تاريخ هذه الصور يعود إلى ما قبل ظهور أحداث الاعتصام السلمية وحركة « أطفال الزهور » وغيرها من حركات الثورة الشبابية .

فى عام ١٩٦٠ كانت كل صحف العاصمة تنشر إعلانات المساكن فى قسمين منفصلين : مساكن للبيض ، ومساكن للملونين . كان أول سؤال يواجهنى حين أتصل بأصحاب البيوت هو : هل أنتما من البيض ؟ كنت أجيب : من الجنسين . من البيض والملونين . كان يعقب ذلك فورا على الطرف الآخر شهقة مفاجئة وكأننى مجنونة أو تفوهت بشىء

بذىء ، أو أطلقت ثعبانا ساما كبيرا عبر الأسلاك ، فأخذ يزحف حثيثا ويتسلق سلك التليفون إلى أذن السامع ليعضها أو ليلدغ عصبا من أعصابه . كانوا يغلقون سماعات التليفون بحذر شديد يوحى بتلك الصورة .

قالت مسز تراكليد على التليفون موضحة : « إن زوجى أبيض » . وكررت هذا وهى تصحبنا إلى الدور الثانى من بيتها لترينا الشقة المعلن عنها . كانت تعيش مع زوجها القس فى الدور الأول . كان بيتا نظيفا جميلا يقف فى صف من البيوت فى حى راق من أحياء الزنوج تزين بيوته أشجار الورد ومساحات من الحشائش المهندمة ، ومظلات من القماش المخطط بالأبيض والأخضر تعلو شرفاته الفسيحة المفتوحة التى أعيد طلاؤها حديثا .

قالت مسز تراكليد : « المشكلة أننى أدقق فى اختيار السكان . هذا كل ما فى الأمر » . تفحصت ماركوس بنظرة راضية وقالت : « فهمت من زوجتك أنك تدرس لتصبح طبيبا فى جامعة هوارد . جميل . جميل .. رجل من رجال الطب » . كان ماركوس قد ارتدى خصيصا لهذه المقابلة حلة ذات صدار وحمل معه مظلته فبدا أشبه برجل إنجليزى قح من المستعمرات . كانت مسز تراكليد ترتدى ثوبا بنفسجيا فى لون البرقوق تزينه على الكتفين مناديل مطوية فى ثنيات منتظمة كالأجنحة تنبثق منها باقات من زهور البنفسج – وكأنها ستصحبنا فى جولة حول العالم لا جولة حول المنزل . بدت مثل عطارد رسول الآلهة الرومانية القديم وقد فرد أجنحته وتأهب لأداء مهمة كلفته بها الآلهة . قالت وهى ترمقنى بنفس النظرة الأمومية الحانية : « وأنت يا عزيزتى ، هل قلت إنك تعملين فى صحيفة البوست ؟ أنا أيضاً امرأة عاملة فى مهنة محترمة » .

كانت اللافتة المعلقة أمام المنزل تقول :

« مسز تراكليد ، حرم نيافة الأب تراكليد
دروس فى عزف البيانو للفتيات »

استأنفت حديثها قائلة : « إن زوجى فى الواقع أبيض ناصع البياض ،وهو رجل من رجال الله » .

ذكرنى الوصف بالأشباح . رمقنى ماركوس بنظرة محذرة وكأنه أحد أعضاء الجمعية اليمينية المتطرفة « الكو - كلوكس - كلان » ، وإن كانت فى الواقع أقرب إلى نظرة الأرنب الخائف . ظهر القس من حيث لا ندرى ونحن نوقع عقد الإيجار فوق البيانو الكبير . كان فعلاً أبيض فى كل شىء حتى رموشه وشعره وحواجبه . بدا أنه من أيام سيدنا نوح وكان جفناه الورديان لا يكفان عن الرمش . ابتسم فى استحياء وبدا عليه الحرج .

قالت مسز تراكليد تشرح صمته : « كان القس فى الماضى خطيباً مفوهاً من وعاظ الله المختارين ، لكنه الآن لا يتكلم إلا نادراً . إننا من ولايةمسيسبى. هل تصدقون أننا لم نتمكن من عقد زواجنا هناك فاضطررنا أن نرحل إلى واشنطن . سافرنا منفصلين كلّ فى العربة المخصصة لجنسه ؟! لكننا تزوجنا فى النهاية واستقر بنا المقام هنا » .

قلت : « إنها تشبه القصة الشهيرة المسماة « قطار الهروب السرى » . تقدم القس خطوات ومال نحوى صائحا : « ماذا قلت ؟ »

قالت مسز تراكليد ضاحكة : « إنهما فى شهر العسل أيها الأب الموقر » .

***

قال ماركوس ونحن منهمكان فى حزم أمتعتنا لننتقل إلى الشقة الجديدة فى منزل أسرة تراكليد : « ألم تجدى تشبيها أفضل من قطار الهروب السرى ؟ هل جننت يا جونا ؟ » كنا نعمل فى عجلة شديدة فقد كنت أتلهف على الانتقال .

ـــ « وهل ذنبى أننى تخصصت فى التاريخ ؟ »

قال مداعباً : « أجل . ذنب عظيم » .

ـــ « ألا يمكنك أن تضمنى إلى صدرك علنا فى ولاية فرجينيا مسقط رأسك يا ماركوس ؟ »

ـــ « هل جننت ؟ »

أجل . كنت أحيانا أندفع فى جنون خارج التقاليد والعرف . أما ماركوس فكان العقل بعينه ، لا يفقد أبداً زمام نفسه . لم يستغرق جمع حاجياتى البسيطة ودسها فى حقيبتى المصنوعة من الخوص أكثر من خمس دقائق . كنا نعيش آنذاك فى بيت زميل له كان يشاركه السكن فى الماضى . طوى ماركوس ملابسه بعناية شديدة ورتبها فى أكوام منتظمة قبل أن يضعها فى صندوق متاعه الخشبى الكبير . لاحظت خطابا من والدته . كانت تعيش فى فرجينيا ، على بعد خطوة من حدود مدينة واشنطن ، وكانت غير راضية عن زواجنا أو عنى . قرأت بين سطور الخطاب ما يكفى لأن أتخيل المكان كله كما وصفه لى ماركوس ذات يوم – شرفة مكتب البريد المتهالكة التى تقود إلى الشارع ، والتى يؤمها عادة سرب من الرجال فى ملابس العمل يمضغون التبغ ، ويتشدقون بالعدل وينصبون أنفسهم حماة العرف والتقاليد . على جانب من المنزل يتعلق على الحائط طشت الغسيل المصنوع من الحديد ،

وتحت الشجرة الوحيدة فى الفناء كنبة سيارة قديمة نفرت واحدة من ياياتها الحلزونية ، وأطلت من الغطاء وكأنها فتاحة زجاجات لولبية . أخبرنى ماركوس أن والدته كانت ترغمه على ارتداء مشبك من مشابك الغسيل حول أنفه طوال أيام السبت ، وفى المساء كانت تحك جسده حكا عنيفا بلوفة خشنة حتى يكاد يتفصد منه الدم (وكأنها تحاول أن تنظف جلده من لونه الأسود !) . ومع ذلك لم تكن تحبنى رغم أننى ولدت بجلد أبيض طبيعى .

حين علمت أمى بزواجى كتبت لى من كاليفورنيا حيث تقيم وسط قططها وآنيتها الفخارية المتربة . كان خطابا قصيراً عاجلا وعدتنى فى نهايته بخطاب لاحق ، وقالت إنها كانت تشعر دائماً أننى لن أتزوج رجلا عاديا ، بل سأختار رجلا مثيراً . كنت أدرك تماما ما تعنيه بهذا الوصف . كانت تتخيل رجلاً خارقاً للطبيعة ، بطلا شعبيا أسطوريا مثلا من فصيلة بول روبسون - جون هنرى ، أو شاعراً ثائراً جامحاً مثل بايرون أو براوننج . كانت تقصد رجلا غامضا جذابا أسود الشعر والعينين يشع الخطر من عينيه ، ويتمتع بالطبع بوسامة أخاذة .

***

التقيت بماركوس فى جامعة هوارد حين كنا نحضر معا محاضرات فرانكلين فريزيار حول « الزنوج فى الولايات المتحدة » . كانت محاضرات فى التاريخ وكنت أشعر أثناءها أننى أصنع حدثا تاريخيا ، فقد كنت الممثلة الوحيدة للجنس الأبيض فى القاعة ، بل وفى الجامعة كلها باستثناء طالب واحد من أوبرلين جاء على منحة من منح التبادل الثقافى بين الجامعات وكان مصراً على تجاهلى .

ذات يوم خاطبنى ماركوس لأول مرة قائلا : « ما رأيك فى جامعة

هوارد ؟ » . كنا فى المكتبة فى الدور العلوى وقد اصطفت المراوح أمامنا على مناضد القراءة الطويلة اللامعة ، فقد كنا فى نهاية فصل الربيع . كنا فى الثامنة مساءً ، ورغم ذلك كان الهواء خارج النوافذ المفتوحة ثقيلا ساكنا .

أجبت وأنا أزيح الشعر عن عينى لأتأمل محدثى : « لطيفة » . كان يرتدى منظاراً له إطار معدنى دقيق – على غير المألوف آنذاك – ويرتسم على وجهه تعبير محافظ وعملى .

قال : « كونى صادقة » . لاحظت أن رسغيه أنحف من رسغى وأن أصابعه طويلة نحيلة . قلت فى نفسى إنك تصلح لعزف القيثارة فى الجنة .

قلت كاذبة : « إننى دائماً أقول الصدق » . كانت تزين الردهة فى الدور الأرضى صورة كبيرة للجنرال هوارد الذى تحمل الجامعة اسمه بعينيه الزرقاوين وذراعه اليسرى المقطوعة . كان هذا الجنرال المغوار فى جيش الاتحاد الفيدرالى قد انتقل من معارك الحرب الأهلية وتحرير العبيد إلى معارك إبادة الهنود الحمر . لم يكن طلبة الجامعة فى أول عهدها من العبيد المحررين بل من الصينيين . كانت مكانا يعج بالمتناقضات . ورغم ذلك ...

قلت : « إنها لا تختلف عن جامعات البيض » . فى كل عصر كانت بعض عضوات أسرة الملونات بالجامعة من صاحبات البشرة الفاتحة يتجمعن فى الساحة المربعة وسط المبانى ، وينشدن الأغانى وقد تشابكت أذرعتهن . كان هذا يحدث أيضا فى كليتى .

قال : « لقد خابت آمالك . أليس كذلك ؟ » كان يطل علىَّ من فوق

منظاره بتعبير يجمع بين الإشفاق المتكبر والمداعبة ، وكأنه يكلم طفلاً صغيراً فيجعلنى أشعر بأننى خفيفة الظل ومسلية .

قلت : « لا . أشعر فقط بالدهشة » .

وضع واحدة من أصابعه البنية الطويلة على رسغي ، وكأنه يتحسس نبضى وقال : « إننا بشر مثلكم ، مثل الجميع . لسنا أرفع خلقا أو أكثر حكمة . إننا بشر عاديون . إن الألم لا يعلم الإنسان أن يكون أفضل رغم كل ما تقوله الدعاية والإعلام » .

كان يجب أن أنتبه لهذه الكلمات ، فقد كانت تحمل مفتاح شفرة لغة زواجنا . لكننى لم أتبين فى تلك اللحظة تزمته وضيق أفقه . لم ألحظ سوى اختلافه عن زملائى من الرجال فى محل بيع الكتب حيث كنت أعمل . بدوا إلى جواره شاحبين مثلى فى لون العجين . كان ماركوس أكبر منهم سنا وأنضج ، وكان حديثه ممتعا ومثيرا أكثر من أحاديثهم آلاف المرات . وبالطبع كان يتمتع بسحر غامض كغموض مصر . اهتز قلبى فى صدرى بعنف وأسرعت دقاته فعرفت أننى انتهيت . كنت قد أحببت مرة من قبل وأنا فى الكلية ، وكانت القصة كارثة من البداية إلى النهاية . كان الحبيب فى المرة الأولى من كوريا .

قلت : « سأذهب إلى نيويورك فى الأسبوع القادم » . ترامت من النافذة مقاطع من أنشودة دينية فى الخارج ، فقد كانت إحدى الراهبات تمر بالجامعة . كانت المراوح تدير وجهها يمينا ويساراً على قوائمها المستقيمة ، وكأنها زهرات عباد الشمس تلاحق الشمس أينما ذهبت . كانت خطوة جريئة من جانبى أن أخبره بهذا ، وكأننى أفترض أن أمرى يهمه . لكننى قبلت المخاطرة .

قال : « سأزورك هناك » .

ـــ « هذا ما تقول . سنرى » .

قال : « إننى أعنى ما أقول » . تبادلنا الأسماء والعناوين . كان خطه صغيراً منمقا ، شفرة أنيقة منمطة .

قرأ بصوت عال : « جونا كاندل . وأين هذا العنوان فى نيويورك ؟ »

ـــ « القرية . حى كمبريدج » .

ـــ « آه . طبعا . حى البوهيميين والفنانين » .

ـــ « ليس هذا هو السبب . صدقنى . كانت الشقة معروضة للإيجار بمبلغ زهيد . لا أستطيع أن أفوت فرصة كهذه » .

ـــ « طبعا . طبعا » .

ـــ « إنك تسخر منى ثانية . أليس كذلك ؟ »

رفع يديه فى استسلام وصاح : « حاشا لله . وهل قلت شيئا يستحق السخرية ؟ »

***

لم يكن العمل الذى وجدته فى نيويورك بأفضل من ذلك الذى تركته فى واشنطن . لم تفلح شهادة الليسانس فى التاريخ من كلية ميلز المهيبة فى أن تحصل لى فى واشنطن على وظيفة أفضل من بائعة فى متجر كتب . أما فى نيويورك فقد تدهور بى الحال إلى بائعة فى متجر للخزف والصينى ، أو – إذا صح القول – لمهملات ومخلفات متاجر الخزف

والصينى الأخرى التى تباع بأسعار مخفضة . كان المتجر صغيرا ضيقا وكأنه مطبخ فى سفينة ، وكانت جدرانه تزدحم بالرفوف التى تشغلها المعروضات التى تحمل لافتات تعلن أن كلا منها صفقة لم يسبق لها مثيل ، وتمتد إلى السقف وكأنها برج بيزا المائل . كانت الرحلة إلى خلفية المتجر تكفى لأن تصيبك بدوار كدوار البحر ، أما دورة المياه فكانت دائما فى حالة مدٍّ مرتفع .

ـــ « كيف الأحوال ؟ » قال أحدهم بالأسبانية . كان المتجر يستخدم بعض العمال من بورتوريكو لتغليف البضائع ، وكان علىّ أن أمر بحجرتهم فى طريقى إلى الحمام .

قلت وأنا ألتقط قصاصة من صحيفة يابانية رقدت فى متناول اليد بجوار صندوق من صناديق الشحن : « انهيار فى قيم العالم الغربى يا إخوان . وكذلك العالم الشرقى . لم يعد أحد ينتحر بطريقة الهاراكيرى .. ماذا أصاب العالم وأى مصير ينتظره ؟ لقد اكتسح الين اليابانى جميع الجبهات » .

كانوا يحملقون فى شعر ساقى وإبطى وكأنهم لم يروا مثله من قبل ، ويرفعون إلىّ إبهامهم محيين على الطريقة القديمة . أجل . كنا نستطيع التفاهم رغم حاجز اللغة وكنا على وفاق ، وكان هذا هو الحال أيضا مع البائعة الأخرى فى المتجر التى تجاوبت معها تجاوبا عميقا . كانت من الأرجنتين ، لاجئة سياسية هاربة ، من أنصار بيرون ، وكانت تأمل فى أن تلتقى بطبيب أسنان فى نيويورك وتتزوجه وتعيش فى ضاحية كوينز الهادئة .

***

كنت أقضى ليالى الجمعة فى التجوال بين البارات المكيفة الهواء ، فقد كانت الحرارة تشوى المدينة على درجة ٩٢ فهرنهايت حتى بعد غروب الشمس . كانت هذه البارات قليلة ومتفرقة فى عام ١٩٦٠ . كنت أهوى على وجه الخصوص تلك البارات التى تزينها أحواض السمك لأراقب الأسماك الخضراء وهى تغوص إلى القاع فى سحابة من الفقاعات فتفزع أسماك أفراس البحر الساكنة . لكننى كنت لا أكاد استقر على مقعدى العالى بجوار البار حتى أفاجأ برجل شبق يزحف نحوى من الظلال ليسند ذقنه على كتفى من الخلف . أجل كانت الشهوة فى تلك الأيام الخوالى تفرش الأرض تحت أقدامنا أينما ذهبنا كنشارة الخشب على أرض البارات . كنت أدرك أننى بحاجة إلى مرافق ينقذنى من تلك الهجمات ، فلم يكن من المعقول أن أعيش فى نيويورك ، مدينة المتعة واللهو ولا أستطيع أن ألهو وأستمتع دون مضايقات ، أو أن أحتسى مشروباً فى سلام . وفى أيام الآحاد كنت أقضى فترة العصر فى منتزه ميدان واشنطن أتسلى بالتهام قطعة من الشوكولاته من نوعى المفضل « جود هيومر » ، وأنا أشاهد أطفال المدينة يرتدون أقنعة وزعانف الغطس تحت الماء ، ويستكشفون مجاهل أعماق مياه النافورة المالحة التى لم يكن عمقها يزيد على ثلاثة أقدام ، وكنت أحياناً أذهب للسباحة فى حمام السباحة الواقع فى شارع كارمن حيث كانت تذهب أجمل الفتيات ، فكانت أجسادهن الناعمة تزين حافة الحوض الأسمنتية الخشنة من كل جانب وكأنها أرقام على وجه ساعة سماوية . ما كان أمتعها تلك الحياة !

ذات ليلة من ليالى الجمعة كنت أجلس فى مطبخى الذى كان هو أيضا غرفة المعيشة والطعام ، على كرسى خشبى قديم منحول من كراسى المطبخ أفكر فى الوجبة التالية حين سمعت طرقا على الباب . توقعت أن يكون هو ، فقد كان الشخص الوحيد فى العالم الذى يعرف عنوانى .

قضينا معا عطلة نهاية الأسبوع لا نخرج إلا لتنسم الهواء وشراء الطعام . حكى لى آنذاك عن مكتب البريد فى بلدته وعن حمام ليلة السبت الذى كان يدميه ، وعن أسنة السهام التى يستخدمها الهنود الحمر ، وتمثال الكولونيل - أحد قواد الجيش الانفصالى لولايات الجنوب إبان الحرب الأهلية - الذى كان يتوسط ميدان البلدة الرئيسى . أما أنا فحكيت له كيف حطمنا السرير أنا وشقيقتى يوما من شدة ما تقافزنا فوقه ، وكيف اضطررنا للنوم زمنا متكورتين فى كومة منحدرة حتى قام أحد أصدقاء أمى بإصلاحه وربطه بالدوبار . لم تلق هذه القصة استحسانا أو قبولا فى نفسه .

قال : « لقد انتهت أيام الفوضى هذه » . لم أفهم بالضبط ما يعنيه بالفوضى وأى نظام جديد يعده لى فى المستقبل ، فلم يكن قد خطر على بالى من قبل أننى قضيت طفولة فوضوية . كنت أراها طفولة مرحة ممتعة ، ورغم ذلك حين فكرت أن أقص عليه قصة رحلتنا ، أنا وأمى وشقيقتى ، إلى المكسيك ، وكيف التقطنا فى الطريق راكبا لم يلبث أن مات فجأة فى مقعد السيارة الخلفى ترددت وغيرت رأيى . حين عدنا بجثة الراكب المجهول إلى البلدة الساحلية الصغيرة القريبة من مدينة إنسينادا - حيث التقطناه - لم يتعرف عليه أحد ، ولم يرغب أحد فى تولى أمر الجثة ، فقمنا نحن بدفنه بأنفسنا فى مكان عال يطل على الشاطىء ووضعنا صليبا على قبره ، فقد تصورنا أنه لابد أن يكون كاثوليكيا حيث أن الجميع فى المكسيك يدينون بالكاثوليكية ، ورتلت شقيقتى بعض الكلمات فوق قبره ، كما فعلت حين مات كلبنا الصغير « سترافنسكى » .

فى طريق العودة من العمل إلى المنزل يوم الاثنين بعد عطلة نهاية الأسبوع التى قضيناها معا كنت أعلم أن ماركوس ينتظر عودتى فى

البيت ، وأحسست حين تأملت كل العائدين من أعمالهم مثلى يحملون أكياس البقالة ، ويتململون على أقدامهم المتعبة فى عربات مترو الأنفاق مثلى أننى قد انضممت أخيراً إلى الجنس البشرى . ها أنذا فى طريقى إلى البيت أحمل كيس مشتريات وباقة صغيرة من الأقاحى هدية لماركوس لأنه فى النهاية ، ورغم كل شىء ، ريفى الأصل والنشأة ولابد أن يهوى الزهور . توقعت وأنا أصعد السلالم أن أجد الباب مفتوحا ، لكننى حين وصلت إلى الطابق اكتشفت وأنا مازلت فى مدخل الردهة أنه مغلق ، وأن شخصا ما قد ألصق رسالة مكتوبة عليه . بدت الرسالة من بعيد وكأنها وثيقة إعلان الاستقلال ، فقد امتلأت بتوقيعات عديدة غريبة . حين اقتربت تبينت أنها التماس من السكان ، وإنذار بضرورة إخلاء الشقة . لقد انبرت كل أم فى هذا المبنى المتواضع للدفاع عن كرامة المكان ووقاره ، وكأنه فندق الريتس الفاخر العريق رغم أن الخيال كان يعجز تماما عن رصد أى شبه بينهما ، ووصفننى بأننى عاهرة محترفة . نزعت الوثيقة بهدوء ودسستها فى حقيبتى ودخلت . كان ماركوس يجمع حاجياته ليرحل لا بسبب الوثيقة التى بدا وكأنه لم يرها ، ولكن ليعود إلى وظيفته كحارس لأحد المبانى فى فرجينيا .

***

قال لى فى محطة القطار : « لقد قبلت فى كلية الطب بجامعة هوارد » . بدا منظرنا معاً لافتا للنظر رغم أننا فى نيويورك ولسنا فى مدينة اقليمية .

قلت له : « إننى أحبك يا ماركوس » . فقد رأيت من الأفضل أن أسوى الحسابات قبل رحيله . كنت صادقة فى قولى فقد شعرت بكل الأعراض المألوفة : الحلق الجاف ، واليدان الباردتان اللزجتان إلى آخره ..

قال : « هل ترين أن نتزوج ؟ »

لم تصدمنى الفكرة لكننى قلت : « لا أدرى » ، فقد كان الحب فى قاموسى لا يعنى بالضرورة الزواج ، لكننى كنت أعرف بصورة مبهمة غامضة ، حتى فى تلك المرحلة المبكرة من علاقتنا ، أن قاموس ماركوس يختلف عن قاموسى . كنت أدرك أيضاً ، فى ضوء الأوضاع التى تسود عالمنا ، أن علينا أن نكون جادين تماما فى علاقتنا وأن يكون مبدؤنا كل شىء أو لا شىء .

قال : « إننى أحصل على معاش ضئيل من الجيش ، وقد أدخرت أيضاً بعض المال ، وقد ثبت أن الطلبة المتزوجين فى كلية الطب يبزون أقرانهم العزاب » .

— « وسأعمل أنا أيضاً » .

أضاف مكملاً جملتى : « حتى أنتهى من الدراسة فقط » .

كان الزواج فكرة جديدة . ولم لا ؟ حين التحقت بكلية داخلية للبنات بعد سنوات من التربية العشوائية والتعليم غير المنتظم كانت كل الفتيات فى طابقى قد تمت خطبتهن قبل السنة النهائية ، وكانت نشرة الخريجات تحتشد بالأخبار المثيرة عن أزواج الخريجات اللامعين ، وأطفالهن البارعين الناجحين ، وتذكر أحيانا الأعمال الخيرية التى يتطوعن بها . لكن زواجى من ماركوس لن يكون زواجا هادئا عادياً بل قد يكون أعظم وأروع المغامرات . تخيلت نفسى أنتزع بكفى العاريتين الصلبان المشتعلة التى سيلقيها الأعداء فى فناء منزلنا ، ورأيت إهانات الجهلة والأغنياء تصطدم بصدرى القوى ، ثم ترتد عنه كالكرة دون أن تصيبنى بسهامها . ستكون حياة أفضل بالتأكيد من حياتى الوحيدة فى نيويورك .

زوجنا واعظ من طائفة المعمدانيين فى مدينة واشنطن ، فقد كان الزواج بين أفراد من أجناس أو ألوان مختلفة محرما فى فرجينيا ، ولم يكن لدينا المال الكافى لنتزوج فى كاليفورنيا . شهد عقد الزواج زميل ماركوس السابق فى السكن . ارتسم الذهول على وجهه كأن به مساً من الجنون ، أما أنا فقد كنت أضحك طوال إجراء المراسيم وقد تملكنى فرح له طابع كونى – كما وصفته لماركوس حين بدا عليه الضيق الشديد وبدأ يغضب حقا من سلوكى . كنت أرتدى ثوبا من الصوف الناعم الخفيف مزركشا بأشكال تجريدية دائرية فارسية الطابع ، صنعته أمى فى عجالة من قماش مفرش سرير هندى قديم ، كانت تزين حوافه رسومات لأفيال برتقالية اللون تمضى فى طابور نحو الشرق ، وأرسلته إلىَّ بالبريد . ارتديت ثوبى المزخرف وقد وضعت على رأسى فوق شعرى الذهبى الطويل إكليلا من أوراق الغار . أما ماركوس فكان يرتدى حلته التقليدية المكونة من ثلاث قطع التى كان يرتديها فى المقابلات الهامة ، أو حين يذهب للكنيسة أيام الآحاد .

كنت أنا أيام الآحاد أظل بروب الحمام طوال اليوم وأسترخى فى الفراش لا أبرحه . كنت أعد الإفطار لماركوس ، ثم أعود إلى الفراش ، وأقضى اليوم فيه أقرأ المجلات الفكاهية والتهم الوجبات الخفيفة واستمع إلى المذياع .

كنت أداعبه أحيانا وأنا أعبث بأزرار صداره الصغيرة مرددة بيت الشعر الشهير : « تعالى واصحبنى وكن حبى » . وفى أحيان أخرى كنت أتقافز على السرير راقصة ، وأعلن أن هذه هى رقصة الأنثى التى تشتهى رفيقها وكان ماركوس يمقتها . كان يخشى أن يظن الأب تراكليد وزوجته أننا نمارس هذا الشىء « الذى لا يسمى » يوم الأحد ، فقد كانت حجرة نومهما أسفل حجرتنا مباشرة .

كانت حجرة النوم تطل على شجرة رائعة وارفة كانت أوراقها الصفراء فى الخريف ، عند اقتراب شهر نوفمبر ، تلتصق بزجاج النافذة وكأنها كفوف صفراء مبسوطة انفرجت أصابعها . كانت تذكرنى برسوم الأطفال للخريف التى تراها أحيانا فى نوافذ المدارس . أجل ... كنت أحن للأطفال واشتاق لإنجاب دستة كاملة منهم . سيكونون على قدر كبير من الجمال كالأطفال السمر فى لوحات جوجان الشهيرة لأهل جزر تاهيتى ، وسأمضى بهم إلى الشاطىء فى طابور طويل ، وكأننى الساحر الزمار ذو اللونين الذى قاد أطفال مدينة هاملين بمزماره الساحر فى الأسطورة الألمانية المعروفة . لن يكون شاطىء فرجينيا بالطبع ، « أعوذ بالله منه » ، لا . سيكون شاطئا آخر فى مكان آخر لا أدريه . أما ماركوس فلم يكن يرغب إلا فى طفلين ، ولد وبنت ، بعد أن ينتهى من كلية الطب ومن فترة الامتياز وفترة النيابة .

لفت غيوم نوفمبر القاتمة نهاره وعصاريه . كنت أعود من عملى فى صحيفة البوست لأجد الردهة تزدحم عن آخرها بالفتيات الصغيرات ينتظرن دروس البيانو ، وقد ارتدين صنادل الفتيات التقليدية من ماركة مارى جينز والتفت شعورهن فى ضفائر مشدودة محكمة جعلت عيونهن تنحرف إلى أعلى . فى أيام السبت التى كان ماركوس يمضيها فى المكتبة كنت أكنس الأوراق الذابلة من ساحة الشرفة الأمامية المفتوحة ، وأساعد مسز تراكليد وزوجها فى تركيب حواجز العواصف على النوافذ ، وأتعلم من مسز تراكليد طريقة صنع فطيرة البطاطا والكعكة التى تشتهر بها ولاية مسيسبى وتسمى كعكة الطين ، وأجمع منظفات غليون القس المبتلة التى كان يرصها على جدار الشرفة الأمامية وأحملها للداخل . كانت تبدو كأصابع من الحلوى المجمدة . كان ماركوس يقضى ساعات تحت الدش حين يعود ، أو هكذا كانت تبدو لى ، ثم يتناول

طعامه بسرعة ويلقى بنفسه فى الفراش ، ويرقد متكوراً تماما كحشرة من تلك الحشرات الصدفية التى تتكور داخل قشرتها إذا لمسها أحد . كانت وظيفتى الجديدة فى المكتبة الملحقة بالصحيفة ، والتى كانوا يطلقون عليها لقب « ثلاجة المشرحة » ، تتلخص فى قص ولصق القصص والأخبار الصحفية وحفظها فى ملفات ، وقد وجدت هذا العمل أكثر مللا من عملى السابق فى متجر الخزف والصينى ، فهناك على الأقل كنت أستمتع بصحبة العمال البورتوريكيين المرحين وبحديث زميلتى الأرجنتينية عن وطنها الذى كانت تحن إليه . أما فى المكتبة فقد كنا مجموعة متذمرة من خريجى أقسام التاريخ والأدب الإنجليزى ، نتعامل مع أخبار الأمس التى شبعت موتا وغدت بدورها مملة مميتة . بدأت وقتها أكره الكلمة المطبوعة .

***

فى أجازة عيد الميلاد دعينا أنا وماركوس إلى حفلة فأحسست بالانتعاش . أخيراً سألتقى بزملائه فى الدراسة وأحادث بشراً من لحم ودم . تخيلت حفلة كحفلات أمى التى كان احتساء الخمر والحديث الممتع أهم معالمها ، ولهذا ارتديت بنطلونا مريحا وبلوفراً واسعا ضخما وإيشاربى الطويل المتعدد الألوان . كنت أتخيل أننى سأقضى المساء جالسة على الأرض أناقش الماركسية والموسيقى الشعبية وريتشارد نيكسون . ارتدى ماركوس حلته التقليدية كعادته دائماً فى تلك الحالات . لم أهتم بالتناقض فى ملابسنا فماركوس هو ماركوس دائماً . التصقت به فى عربة الترام التى مضت بنا فى طريق جورجيا أفينيو المحفوف بالأشجار ، وتخيلت حالنا حين نعود إلى البيت تلك الليلة بعد الحفلة . سنكون مخمورين قليلاً ، ونقضى ليلة كليالى نيويورك القديمة فى تلك

العطلة القصيرة حين بدأ غرامنا . لكنه حرك جسده بعيداً عنى درجة بسيطة قد لا يلحظها أحد لكننى أحسستها .

قلت له : « إذا ابتعدت أكثر من هذا فستجد نفسك خارج النافذة » .

قال : « جونا » .

قلت : « أعرف . لا تكمل » . كان يكره إظهار العواطف فى الأماكن العامة ، ويعتبرها خروجا سوقيا على قواعد الذوق الرفيع . انسحبت إلى مكانى بعيداً عنه . مضى بنا الترام يتأرجح ويصلصل ويميل على جانبه عند الملفات . (لقد أزيلت كل قضبان الترام من الشوارع الآن واستقرت عرباته فى المتاحف) . تأملت الطريق أمامنا . كانت شوارع واشنطن تخلو من المارة فى الليل ، وكان من الصعب أن تكتشف إذا كان هذا الجزء أو ذاك من المدينة يخضع لقواعد التفرقة العنصرية أم لا اللهم إلا من هيئة المبانى . ففى بعض الأحياء كانت المبانى متينة وجميلة وفى البعض الآخر كانت رديئة وقبيحة ، كانت هناك المبانى التى يحرسها حراس وتلك التى لا يحرسها أحد .

قلت : « إننى أفكر جديا فى العودة إلى الدراسة فى المساء ، حين تكون غائبا عن المنزل » .

لم يفهم المعنى الذى ألمح إليه .

ـــ « هل تريدين المزيد من التاريخ ؟ »

ـــ « لن أرتكب هذا الخطأ مرة أخرى . ربما درست علم النفس » . كنت أعلم رأيه فى علم النفس . لم يكن يوليه أهمية أو قيمة كبيرة . قال متأففا : « سأكتب عدة أبحاث فى الفصل الدراسى القادم » .

ـــ « ماذا تقصد ؟ »

ـــ « كنت آمل أن تساعدينى فى نسخها على الآلة الكاتبة » .

صحت : « آه . فهمت » . لكننا كنا قد وصلنا . غادرنا الترام وعبرنا الشارع ودلفنا إلى مبنى مهمل معتم ليس به حارس . كانت مفاجأة لم أستعد لها ، وتضاعفت دهشتى حين انفتح باب الشقة . أدركت على الفور أننى أخذت على غرة وأنتابنى إحساس عارم بالحيرة والضياع . كان الأثاث حديثا أنيقا ناعما ذا لون أبيض يميل للاصفرار ، وكانت نباتات الظل تتدلى من السقف فى سلال أنيقة . كانت الحجرة تسبح فى إضاءة خافتة ونغمات موسيقى الجاز الهادئة الناعمة . أما المشروبات فلم تكن من الخمر الرخيصة المعبأة فى قدور كبيرة من الفخار ، كما لم تكن الأكواب هى الأكواب الورقية التى اعتدتها . كان هناك بار كامل حقيقى يكتظ بزجاجات الويسكى الفاخر وكافة أنواع المشروبات ، ويشرف عليه نادل فى زيه الرسمى كان من الواضح أنه استؤجر خصيصا لهذه المناسبة . كان الجميع يحتسون كئوس المارتينى ، وكانت المشهيات ساخنة ومعقدة الصنع رغم قلتها النسبية ، وكانت تقدم على صوان من الفضة الخالصة . وكان أسوأ ما فى الأمر أن الجميع كانوا يرتدون أفخر ما عندهم من ملابس وزينة . لم تكن مجرد ملابس ثمينة لكنها كانت قمة فى الذوق والدقة والأناقة كتلك التى نراها فى مجلات الموضة . كنت أبدو كبثرة على وجه الحفل . كان يجب على ماركوس أن ينبهنى . أحسست برغبة عارمة فى أن أصاب بالإغماء فى تلك اللحظة وأنا على الباب حتى يحملونى بعيدا على نقالة ، وقد ألقوا على جسدى بطانية تخفى ثيابى . كان شعرى الذهبى الغزير فى تلك اللحظة هو مصدر أناقتى وزهوى الوحيد إلى جانب ماركوس ، ولكننى حين التفت لم أجده إلى جوارى . كان قد اختفى فى الزحام ، ومن يلمه ؟

كان محقا ، ولم أعتب عليه فى تلك اللحظة .

قلت لعامل البار : « ويسكى بالثلج » . يجب أن أغرق فى الشراب وأفقد الوعى حتى أتحمل الموقف لحظة أخرى .

هتف صوت خلفى : « أهلا بك » . التفت إلى مصدر الصوت .

ـــ « هاللو » ، كانت محدثتى ترتدى ثوبا على طراز السارى بكُسر عميقة عند الأرداف . كان القماش الشفاف الهفهاف من الكريب الأخضر المتعدد الدرجات ينسدل فى نعومة رائعة تفصح عن حياكة بارعة .

قالت : « اسمى كيزى » .

ـــ رددت : « جونا » . تأملتها . كان شعرها معقوصاً على طريقة مغنية الجاز الشهيرة بيلى هوليداى ، لكنها استبدلت زهرة الجاردينيا بزهرة برية رقيقة ارتدتها فوق أذنها .

ـــ « إننى زوجة ماركوس » . من المؤكد أنها تعرف ماركوس .

ـــ « أعلم هذا » . ذكرتنى بشرتها وابتسامتها بالممثلة السمراء لينا هورن . لم أصدق أن هذه المرأة الباهرة المتألقة ترانى جديرة بأن تختصنى بحديثها .

رفعت حاجبيها المرسومين بالقلم وقالت : « لدىّ سؤال يحيرنى . هل كان هناك نقص فى الرجال البيض حيث كنت تعيشين ؟ » نظرت حولى فى ذعر بالغ أبحث عن منقذ ، عن عزاء ، عن أى شىء ، وأدركت أننى وحيدة تماما بلا معين .

قلت وأنا أحاول جاهدة أن أمنع دموعى : « عن إذنك يا كيزى » . يجب أن أحتفظ بشىء من كرامتى ولو ظاهريا . أضفت : « إننى أشعر بالغثيان » .

قلت لمسز تراكليد فى اليوم التالى ونحن نتناول الشاى وحلوى البنفسج المسكرة : « احتميت بالحمام . كنت أريد أن اختفى هناك مدى الحياة - لا يعرفنى أحد ولا يصل إلىّ أحد » .

ردت مسز تراكليد بغضب : « آه يا عزيزتى . إن هؤلاء الفتيات السمراوات المترفعات من لويزيانا يبالغن فى تقدير أنفسهن . لقد شعرت بالغيرة منك . هذا كل ما فى الأمر . قالت هذا بدافع من الغيرة لا أكثر ولا أقل » .

كان أقارب الأب تراكليد ينظرون إلينا من أطر صورهم البيضاوية التى تصطف علىَ جدران غرفة الطعام . كانت صورا شمسية يرتدون فيها حللا ذات ياقات عالية تزين صدورها سلاسل ساعات الجيب ، قد اتخذوا أوضاعاً متكلفة تنم عن الكبر والخيلاء . لم أجد شبها بين الأب تراكليد وبينهم أو أى صلة تربطه بماضيه الأسرى . كنت أتخيل أحيانا أنه خرج تلقائيا من بيضة من مستنقعات مجاهل الغابات ، وكأنه دودة صغيرة فى حوض نهر المسيسبى ، باهتة شفافة ، ثم تحول من دودة إلى رجل فى دورة حياة واحدة ، وتطور من خلية حيوانية إلى ملاك . كانت مسز تراكليد قد أخبرتنى أنه كان واعظاً يحاول أن يوقظ الإحساس بالإيمان حين قابلته . كان ذلك حين اضطروا إلى الاستعانة بها حين تخلف عازف البيانو الأبيض عن حضور أحد تلك الاجتماعات .

ــــ « هل يجب علىّ أن أخبر ماركوس بما حدث ؟ ما رأيك ؟ لم أكن قد حكيت له أى شىء ولم أتفوه بكلمة واحدة .

ــــ « يا إلهى . بالطبع لا . لا تتفوهى بكلمة واحدة . سيكون هذا خطأً فادحاً » .

***

جلسنا تلك الليلة أنا وهو نواجه بعضنا عبر المائدة . كنا نتناول عشاءً متأخرا فى الثامنة . تركت باب الفرن مفتوحا ليزيد من دفء الحجرة . كانت الرياح تصفر فى الخارج ، وكان البخار يتجمد على زجاج نوافذ حجرة نومنا من الداخل .

ــ « أتمنى أحياناً لو كنا فى كاليفورنيا يا ماركوس أنا وأنت » .

ــ « يبدو من نبرتك وكأنك تلومينني على هذا » .

ــ « ليس هذا صحيحا » .

ــ « بل إنه صحيح » .

ــ « فليكن . أجل إننى ألومك وليذهب كل شىء إلى الجحيم » .

ــ « إننى أكره السلوك السوقى فى المرأة » . كنت أعلم هذا .

أجبت : « وأنا أكره القسوة فى الرجل » .

قال وهو يزفر ويهب واقفا : « آه . يا لكم من بشر ! »

ــ « أى بشر تعنى يا ماركوس ؟ البشر فى كاليفورنيا ؟ الآخرين ؟ الجنس الأبيض ؟ لمعلوماتك إننى نوعك من البشر » .

ــ « جونا عما تتحدثين ؟ »

ــ « عن المواقف . عن موقفك منى » .

ــ « إنك أنت التى تتخذين موقفا منى » .

ــ « بل إننى وحدى التى أشعر بأننا عائلة واحدة . أنا وحدى . إننا من نوع واحد يا ماركوس . ليس من حقك أن تصيح فى وجهى يا لكم من بشر بهذه البساطة ! إنك تتحدث مثل تلك المرأة فى الحفلة » .

ـــ « أى امرأة ؟ »

ـــ « تلك التى سألتنى إذا كنا نعانى من نقص فى الرجال البيض حيث نشأت » .

ـــ « من قالت هذا ؟ »

ـــ « كيزى » .

ـــ « آه . كان سؤالا بريئا » .

ـــ « بل كان يعنى الكثير . لا تحاول الدفاع عنها . لقد كان سؤالاً شريراً دنيئاً » .

ـــ « إنه لم يقتلك على أية حال » .

ـــ « وهذا رد أكثر إساءة ووضاعة . هل أنت فى صفى أم فى صفها ؟ »

جلس وقد ارتسم القرف الشديد على وجهه .

قال فى ملل : « لقد صحبتك إلى الحفلة لأننى كنت أتصور أنك ستقضين وقتا ممتعا » .

ـــ « كانت حفلة بغيضة مرعبة » .

ـــ « عظيم . هذا شىء عظيم حقا » .

أخذت طبقه وذهبت به إلى الحوض .

ـــ « هؤلاء هم أصدقائى يا جونا . أرجو أن تدركى هذا . إنهم يقفون إلى جوارى وسيقفون إلى جوارك . لو حدث أى شىء ... » .

استدرت من الحوض وقلت : « اسمع يا ماركوس . إننى أعلم جيداً

أن هؤلاء الناس لن يمدوا لي يد المعونة لو وجدوني احتضر إلى جوار الرصيف ، وأنت تعلم هذا أيضاً » .

ـــ « وماذا عن أصدقائك ؟ هل سيساعدونني ؟ »

قلت برقة : « ولكن أصدقائي لا يعيشون في واشنطن » .

ـــ « وأين يعيشون إذن يا جونا ؟ هل يوجد أحد منهم على وجه الأرض ؟ »

لم أستطع أن أخبره بما قاله زملائي في العمل حين رأوا صور زوجي ، ولم أكن قد أخبرته بالتجارب المريرة التي خضتها وأنا أبحث عن سكن لنا . لم يكن يدري ما أصاب عالمي . لم يكن قد انقسم على نفسه فقط ، كان قد تهاوى تماما .

استمر قائلا : « لم ترسل لنا والدتك وفق ما أعلم هدايا بمناسبة زفافنا ، ولا فعلت هذا شقيقتك » .

ـــ « صنعت أمي ثوب زفافي » .

ـــ « هذا الزي التنكري العجيب ! »

لم أتمالك نفسي فجلست وقلت دفاعاً عن أمي : « لقد هنأتنا أمي بالزواج على الأقل وهو ما لم تفعله أمك » . كان رداً ضعيفاً غير مقنع ، فقد كان محقا فيما يتعلق بموقف شقيقتي التي تحولت في سني النضج إلى سيدة متعالية متكبرة ، تحتقر وترفض كل القيم التي تربينا عليها في طفولتنا مهما كانت براءتها . إننا نمثل طليعة المجتمع . كانت أمي تردد هذه العبارة دائماً وهي تقود سيارتها البونتياك التركوازية على الطريق الساحلي السريع . قلت : « هل تذكر رسالة أمك يا ماركوس ؟ قالت بالحرف الواحد : هل أنت مضطر إلى الزواج يا ماركوس ؟ وكأنها تعتقد أنك ستتزوجني لأنني حملت منك مثلاً ! »

ــــ « كان هذا أمراً وارداً على أية حال » .

ــــ « سأتغاضى عن هذه الكلمات . إن ما يؤلمنى حقا هو أنك تأخذ جانب تلك السيدة فى الحفلة ضدى » .

ــــ « هناك نقص خطير فى عدد الرجال الزنوج ، لذلك حين تنجح امرأة بيضاء ... » .

ــــ « فى خطف أحد رجالهن ... » .

ــــ « هل تدركين رأى الناس فينا يا جونا أنا أو أنت ؟ »

ــــ « وهل تعرفه أنت ؟ أنا لا أكترث برأى الناس على أية حال » .

ــــ « لكننى أكترث » .

ــــ « أكثر مما ينبغى وهذه هى مشكلتك الحقيقية » .

ــــ « لا نستطيع أن نحيا بمعزل عن الناس والمجتمع » .

ــــ « إننا نحن الناس والمجتمع يا ماركوس » . شعرت بأننى تماسكت بما يكفى لأنهض وأغسل الأطباق . كنت عادة أغمرها بالماء فى الحوض وأتركها فترة قبل الغسيل ، لكن ماركوس شرح لى الأضرار الصحية التى قد تنجم عن هذا .

ــــ « إن العالم الخارجى يا ماركوس يمتلىء بالمنافقين والتافهين » .

ــــ « إن قولك هذا لن يغير من الأمر شيئا » .

ــــ « ولكنه يضع الأمور فى نصابها الصحيح يا ماركوس ، ويجعلنا ندرك قيمة الأشياء ، ندرك أن علاقتنا أهم من رأى الناس » . نظرت إليه عبر الحجرة ، وتذكرت شعورى حين فتحت له بابى فى نيويورك لأول مرة ، وعرفته على الفور كما أعرف نفسى ، وكأن الباب لم يكن

سوى مرآة تعكس نفسى . شعرت انذاك أننا قريبان إلى هذه الدرجة اللصيقة . أما الآن فقد أحسست بالبرودة تسرى فى جسدى ، وأنا أنظر إليه وكأننى أواجه جداراً أصم .

ـــ « حين أصبح طبيبا يا جونا ... » .

ـــ « سيتوقف العالم عن الدوران ! »

ـــ « اسخرى ما شئت . ولكن دعينى أخبرك بما قاله لى أحد أساتذتى . حين كان يقضى فترة الامتياز فى أحد المستشفيات الكبيرة ، فى مدينة من مدن الشمال ، وصلت إلى قسم الطوارىء امرأة بيضاء مصابة بنزيف حاد يهدد حياتها ، لكنها رفضت رفضا باتا أن تدعه يلمسها ليثبت إبرة جهاز نقل الدم فى ذراعها . كانت تفضل الموت على ذلك .

ـــ « وهل ماتت ؟ »

ـــ « بالطبع لا . لقد جعل إحدى الممرضات تتولى الأمر » .

جلست على مقعدى وألصقت ظهرى بمسنده ووضعت رأسى بين يدى فقد كنت أعلم ما سيتبع ذلك . « والآن سننتقل إلى قصة تشارلز درو يا ماركوس . أليس كذلك ؟ أليس هو الرجل الذى اكتشف فصائل الدم ثم نزف حتى الموت على قارعة الطريق فى إحدى ولايات الجنوب لأن أقرب مستشفى كان مقصوراً على البيض ؟ هيا ، هات كل ما عندك . قص علىّ كل البشاعات » .

ـــ « إنك تتحدثين وكأن هذه أمور تافهة » .

ـــ « إننى أعلم جيدا أنها ليست تافهة ولكنها ليست المشكلة التى تواجهنا ، فأنا لست من الأعداء ، وأنت لا تستطيع أن تلعب على الحبلين

فى وقت واحد » . هزت الريح زجاج النافذة . « يبدو أنك فى الحقيقة مثل تلك المرأة فى الحفلة ، ومثل والدتك وكل هؤلاء الذين لا ينتمون إلى مجتمع البيض التقليدى ، وينشدون الانتماء إليه ، لكنهم يمقتونه فى نفس الوقت . إن هذا ... » .

— « وأنت ، هل تدعين الانتماء إليه ؟ »

— « لا . إننى غريبة مثلك تماما . أليس هذا واضحا ؟ »

— « لا » .

— « إنها ليست مسألة لون أو جنس » . كنت أشعر فى تلك اللحظة أننى أقف خارج كل شىء ولا أنتمى إلى أى شىء ، ورغم ذلك فقد أدركت من موقعى البعيد حقيقة الموقف . لقد كان ماركوس يرانى جزءا من ذلك المجتمع وربما كان هذا أحد الأسباب التى اجتذبته إلىّ ، أما أنا فقد تصورته غريبا مثلى بينما كان فى أعماقه منتميا إلى هذا المجتمع . « إننى أقف على هامش الأشياء يا ماركوس ، كل الأشياء ، وعلى هامش حياتك أيضاً . إننى احتاج إلى رفيق ألا تدرك هذا ؟ »

كانت أغصان الشجرة العارية تخمش زجاج النافذة وكأنها أصابع هيكل عظمى يحاول النفاذ إلى الداخل . نظرت إلى أصابع ماركوس الرشيقة التى ستقطع وتقص الأجساد يوما ثم تعيد خياطتها ، كان جلد أطرافها قد انكمش تحت تأثير مادة الفورمالدهيد التى يستخدمها فى معمل التشريح ، كما تجعدت مفاصلها . اجتاحتنى موجة من الحنان ومددت يدى لأمسك بيده لكنه سحبها بعيداً .

— « لا تنفر منى هكذا يا ماركوس بحق الله وكأننى سأقطع يدك ! »

ورغم ذلك فقد دهمنى فجأة شعور غريب جارف بأننى أريد حقا أن أقطع يده ، ولو كانت فى متناولى لقطعتها ، ولكننى بدلا من ذلك جريت إلى الحمام ، وبضربتين سريعتين من حد المقص الكبير الذى حملته معى حين غادرت بيتى فى كاليفورنيا البعيدة ، قصصت نحو قدمين من شعرى الطويل الذى استغرق نموه إلى هذا الطول سنوات طويلة منذ أن كنت فى الصف الاعدادى . حملت شعرى واندفعت عائدة إلى المطبخ .

صحت وأنا أضع أمامه قبضة من الشعر : « انظر ! ما رأيك فى شطيرة محشوة بالشعر ؟ أليست لذيذة ؟ هل ترى ما دفعتنى إليه ؟ هل تشعر بالسعادة الآن ؟ »

صاح : « جونا ! » ثم هز رأسه آسفا ، وكأننى مريضة فقد الأمل من شفائها .

قلت فى نبرات حاولت أن أجعلها تفصح عن شعور بالانتصار : « إننى أهديك شعرى » . لكن صوتى اهتز وارتجف جسدى كله . بدت خصلاتى الملقاة على المائدة وكأنها حيوان ضعيف لا حول له ولا طول ، يرقد ضارعاً فى استسلام تام ، حيوان مهزوم ميت .

ـــ « إنك مجنونة يا جونا وجنونك هذا يعقد الأمور ويجعل الحياة لا تطاق » .

ـــ « وأنت تجعل الحياة مستحيلة لكنك لا تكترث » . كنت أشعر بدوار أيضا ، وكأن قوتى كقوة شمشون كانت تكمن فى شعرى . أحسست برقبتى باردة عارية وبوجهى وقد تجرد من هالته . شعرت وكأننى أقف وحيدة عارية الصدر فى الخلاء كأحد الخونة ينتظر الإعدام رميا بالرصاص . صرخت باكية : « إنك لا تكترث » .

قال وهو يضع إصبعه على شفتيه دون أن يكلف نفسه النهوض من مقعده ليضمنى ويهدأنى : « اخفضى صوتك . ستوقظين الجيران » . ازداد صراخى ونحيبى . تسرب طابور من الصراصير من شق فى جانب المائدة ليستطلع الأمر ، ثم هز قرون استشعاره فى عجب من أحوال هذين الماردين البشريين . أردت أن أصيح بها : انظروا . هذا ما يفعله أطفال الله دائما . إنهم يتقاتلون ..

ــــ « كفى عن الصراخ يا جونا » .

عند هذا الحد انفجرت فى صراخ هستيرى وبعد لحظات سمعنا طرقا خفيفا على الباب .

ــــ « جونا . حبيبتى . إننى ألثيا . هل أنت بخير ؟ »

ذهبت إلى الباب وفتحته فتحة صغيرة .

ــــ « آه يا صغيرتى ! ما الذى جعلك تقصين شعرك الجميل ، تاج جمالك ؟! »

قلت وأنا أنشج : « لا بأس يا مسز تراكليد » . كان الأمر مزعجا ، ولكن ليس إلى هذا الحد . « إن شعرك أنت أيضاً قصير » .

ــــ « هذا أمر مختلف . إننى امرأة عجوز » .

ــــ « لا . لست عجوزا » . لاحظت أن روب الاستحمام الذى اتشحت به كان مثل كل ملابسها تنويعا على لون البنفسج .

ــــ « لماذا لا تأتين معى وتشاهدين مباراة المصارعة الحرة على التليفزيون . إن المصارع الليلة هو « جورجاس » جورج .

كان « جورجاس » جورج أو جورج الرائع هو مصارعنا المفضل .

كنا حين يتأخر ماركوس فى العودة ، ويعتكف الأب تراكليد مبكراً نسهر أنا وهى نشاهد مباريات المصارعة الحرة ونحتسى مشروب النعناع المسكر .

قلت وأنا أغلق الباب برفق : « ربما فى فرصة قادمة » .

ـــ « إلى اللقاء إذن » ، صاحت وهى تهبط الدرج .

قلت وأنا أستدير إلى ماركوس : « إن مسز تراكليد صديقتى بحق » .

ـــ « لقد أيقظتهما » .

ـــ « إنهما لم يناما بعد » . تأملت نبات البنفسج الأفريقى فوق الثلاجة . كان هدية من مجموعة مسز تراكليد التى كانت تحتفظ بها على عربة بيضاء من عربات تقديم الشاى . كانت الموسيقى حرفتها ورسالتها كما قالت ، أما زراعة البساتين فكانت تسليتها وهوايتها .

كرر ماركوس فى إلحاح : « لقد أيقظتهما . ما ذنبهما ؟ إنهما شخصان بريئان » .

قلت : « ليسا على هذا القدر من البراءة يا ماركوس كما تظن » . كانت مسز تراكليد قد أخبرتنى فى الواقع أن الأب الموقر يفضل أن يضع وسادة تحت ردفيها ليرفع نصفها الأسفل حين يضاجعها ، وأنه رشا فراش القطار أثناء رحلتهما إلى الشمال وتسلق مع مسز تراكليد التى كانت لا تزال حينذاك الآنسة جيبسون إلى أحد الأسرة العلوية وضاجعها هناك . قلت لنفسى وقتها لابد أنها كانت تجربة ميتافيزيقية بحق - تجربة الجماع على سرير علوى فى قطار بين واعظ دينى وعازفة البيانو التى تصاحبه . على أية حال .

قال ماركوس : « هل تعرفين يا جونا ، كثيرا ما اسأل نفسى ... » .

ـــ « وأنا أيضا يا ماركوس ، كثيرا ما أسأل نفسى . أجبنى » لم يكن قد قالها لى أبدا من قبل ، ولا حتى ليلة زفافنا . « أجبنى بصدق يا ماركوس هل تحبنى ؟ » .

مرت لحظة صمت طويلة ، طالت دهرا ، وليته كان صمتا حقيقيا ساكنا . كان صمتا يموج بخشخشة فروع الشجرة وهى تحتك بالنافذة ، ودبيب آلاف الأقدام الصغيرة تحت خشب الأرضية - دبيب جحافل من الصراصير ، أو الفئران .

مرت لحظة أخرى من الصمت العميق . خيل لى أننى أسمع صوت فرع البنفسج ينمو فى إنائه فوق الثلاجة أو يميل نحونا ليسترق السمع ، وقد أرهف آذانه وتأهبت أوراقه لالتقاط حفيف الأنفاس وانتصبت كل شعيراته الدقيقة . ثم تنحنح ماركوس فقلت :

ـــ « لم تجب » . كنت أنتظر . كانت هذه هى اللحظة الحاسمة .

ـــ « لقد تزوجتك - أليس كذلك ؟ »

رفع عينيه إلىّ فلم أكن قد جلست . قرأت - فيهما - ذعرا بالغا عميقا جعلنى أشعر برغبة شديدة فى تهدئة روعه وطمأنته ، فما جدوى السؤال . لقد أدركت فى تلك اللحظة أن قصتنا قد انتهت .

أفعــال فى الخفــاء

تشــارلز ســيمونز

لم يكن بمقدور أحد أن يغضب من بيلى أو ألا يحبه . كان الأمر يتعلق بملامح وجهه إلى حد كبير . كان قصيراً نحيفاً لا توحى نحافته بالضعف أو الاعتلال ، ذا وجه مليح صريح وعينين بنيتين وشعر بنى خشن متصلب . إننى أستطيع أن أرسم صورته من الذاكرة ، فما زال هذا الوجه .. الفاضل .. واضحا فى ذهنى أشد الوضوح . لا . إن صفة « الفاضل » ليست دقيقة ، والأحرى أن أقول إن وجهه كان يزدحم بالفضائل .

كانت مدرسة « كينج أوف كينجز » (ملك الملوك) التى جمعتنى ببيلى وأربعمائة طالب آخر تتبع طائفة اليسوعيين . أما الزمن الذى أتحدث عنه فكان بعد اشتراكنا فى الحرب العالمية الثانية بقليل ، حين كانت العقيدة الكاثوليكية على الطريقة الأمريكية ، وأعنى بها الكاثوليكية الأيرلندية الأمريكية ، فى أوج تشددها وصرامتها . كانت الفضيلة الأولى التى وضعت نصب أعيننا جميعا هى ما تعلمنا أن ندعوه « بالطهارة » ، وكانت تعنى البراءة الكاملة من الأفكار والأفعال الجنسية . وقد كان بيلى شديد الطهارة والنقاء ، ورغم ذلك لم يكن أى منا يعتبره متزمتا . كيف أمكن ذلك وسط مجتمع من الصبية

المراهقين ؟! ربما كان بيلى فى الحقيقة متزمتا دون أن ينم مظهره عن ذلك ، ومن المؤكد أن السبب يرجع إلى ملامح وجهه . كان قصير القامة كما ذكرت ، وكان يقبل علينا ويرفع عينيه متطلعا إلى وجوهنا فى لهفة يشوبها التردد وكأنه يطلب ودنا . كان يطلب ود الجميع ويريد أن يستمتع بوقت طيب مع الجميع . كان شرطه الوحيد ألا تجعل ذلك مستحيلا . وكانت أسهل الطرق لجعل ذلك مستحيلا هى بالطبع استخدام التلميحات الجنسية أو إطلاق النكات البذيئة صراحة . وكان فى هذا إغراء لا يقاوم . على سبيل المثال ، كان يحدث أحيانا أن يبدأ أحدنا معه لعبة « من الطارق ؟ » أمام اثنين أو ثلاثة من الزملاء فيسأله : « من الطارق يا بيلى ؟ » وكان بيلى يشعر آنذاك بالريبة على الفور . لكنك إذا ألححت عليه قائلا : « هيا يا بيلى . من الطارق ؟ » كان يستجيب ويقول : « لا بأس . من الطارق ؟ » فيجىء الرد بريئا : « أبو جلمبو » . فيسأل بيلى بدوره وقد هدأت مخاوفه وبدأت اللعبة تستهويه : « أبو جلمبو من ؟ » فتصدمه الإجابة إذ تقول : « الذى يقرص أمك » . حينئذٍ ينعقد لسانه فلا ينطق ويهز رأسه بعنف كأنما ليطرد الدنس منها وينطلق بعيداً عنا .

ربما يشى سلوكنا هذا بشىء من القسوة ، لكننا رغم ذلك لم نكن غلاظ القلوب . وأظن أن سلوكنا هذا إزاء بيلى كان تعبيراً عن مشاعرنا المتضاربة تجاه الجنس . فقد تربينا جميعاً فى مدارس ابتدائية كاثوليكية على أيدى الراهبات ، ولُقّنا منذ السنة الأولى ضرورة التمثل بالقديسين الذين كانوا جميعا طاهرين ، بل إن بعضهم مات فى سبيل الطهارة . قيل لنا إن الدنس لا يتوعدنا فقط بجهنم وبئس المصير ، ولكنه يغضب علينا السيد المسيح الذى أحبنا . ورغم ذلك فقد كنا فى سن المراهقة وكان الجنس يشغل تفكيرنا طوال الوقت . كنا جميعا – أو فى شلتى على الأقل – نشعر بأن الجنس يحمل لنا وعداً بسعادة كبيرة ومتعة

بالغة . ومع مرور الوقت وانتقالنا من سن الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة ثم إلى الخامسة عشرة بدأت مشاعرنا المتضاربة إزاء الجنس تستقر وتستوى ، وأدركنا أن متعة الجنس تستحق أى ثمن ندفعه من أجلها . أخذت عظات الطهارة التى ظلت سنيننا الأولى في الانحسار من تفكيرنا وحلت مكانها خيالات ومغامرات حقيقية . لكن آثار العظات لم تكن قد انمحت بعد ، ومن ثم كانت نكاتنا التى استهدفت بيلى وسيلة للتنفيس عن توترنا فى مرحلة الانتقال تلك .

قلت من قبل إن المرء لم يكن يملك أن يغضب من بيلى ، أما بيلى نفسه فلم يكن يغضب أبداً أو يتفوه بما يسىء إلى أى من زملائه ، أو أساتذته على وجه أخص . كنا نتفق جميعا – على سبيل المثال – على أن مستر ماكماهون ، مدرس الحساب ، هو الغباء نفسه يمشى على قدمين ، أما بيلى فقال إن لديه فقط عيبا فى النطق ، وحين وصفنا مدرس اللغة الألمانية الأب ليشنر بأنه « أحد هؤلاء البغال الذين تحتشد عقولهم بالفضلات » ، قال بيلى دون أن يعرف معنى العبارة الألمانية التى وصفناه بها – إذ كان يدرس الفرنسية بدلا من الألمانية فى مادة اللغات الحديثة : « إنه فقط طاعن فى السن » . وكان بيلى يمارس الفضيلة إيجابا أيضاً . لقد كانت مدرسة « ملك الملوك » مدرسة للمتفوقين الذين يستحقون منحاً تعليمية ، ولذا كان من السهل عليها أن تطرد أى طالب يتخلف ، وكان مبدؤها أن تتخلص من ثلث الطلبة الذين يحتلون ذيل القائمة فى صفوفهم خلال سنوات الدراسة الأربع . كان بيلى لا يبخل بالمساعدة على أحد ، ويمكث بعد ساعات الدراسة مع الطالب الذى يلجأ إليه حتى يفهم الطالب أو ييأس من الفهم . لقد كنا جميعاً نتحمل بيلى ، ونعجب ببيلى فقد كان خيراً طيباً .

وقد تعرفت على عاهة بيلى بالصدفة البحتة حين كنت أقضى معه

أجازة عطلة الأسبوع فى بيت أسرته ، ربما كان ذلك لأننا لم نكن نخلع ملابسنا إلا لماماً فى مدرسة « ملك الملوك » ، أو بسبب حياء بيلى واحتشامه فيما يتعلق بأمور الجسد . كنا نستعد للنوم ودخلت الحمام دون أن أعلم أنه بالداخل . كان يجفف جسده بعد الاستحمام . تصورت لأول وهلة أنه يؤدى رقصة ما ، فقد كان يحرك المنشفة إلى أعلى وأسفل أمامه بصورة متكررة حتى استقرت أخيراً حول جزئه الأسفل . حينئذ رأيت فى وسط صدره عظمة بارزة وعلمت فيما بعد أن هذه العاهة تسمى « صدر الدجاجة » ، وأن بيلى كان له « صدر دجاجة » . لم نتحدث أنا وهو عن هذا الموضوع أبدا ، ورغم أن المنظر صدمنى آنذاك إلا أننى لا أذكر أنه مر بخاطرى حتى كان العام الماضى حين مات بيلى ، فعادت إلى الذاكرة صورته وهو فى الحمام فى ليلة السبت البعيدة تلك ، يغطى نصفه الأسفل وعورته بمنشفة ، بينما تبرز من صدره هذه العظمة القبيحة .

شاءت الأقدار أن يلعب بيلى دوراً حاسماً فى حياتى . ففى عصر يوم من أيام الشتاء ، فى عام تخرجنا من المدرسة ، تلكأت أنا ودونالد بوسكو وفرانك ماكنات فى مغادرة المدرسة حتى وقت متأخر ، إذ لم يكن أى منا يشعر بالرغبة فى العودة إلى منزله والاستعداد لامتحان التاريخ فى اليوم التالى . كانت المواد الهامة فى مدرسة « ملك الملوك » هى اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية أو الألمانية والحساب واللغة الإنجليزية . أما التاريخ والدين وهما المادتان الباقيتان فى المنهج فكانتا مادتين ثانويتين . لم يكن الدين يُدرَّس كالمواد الأخرى ، بل كانت تعقد حلقات للمناقشة ، يديرها عادة أحد الآباء اليسوعيين المتقدمين فى السن . أما بالنسبة للتاريخ فلا أظن أن عدداً كافياً من شباب المدرسين اليسوعيين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من هيئة التدريس توفرت لديهم دراية كافية بهذه المادة . كانت مادة التاريخ للسنة النهائية تتناول

التاريخ الأوروبى الحديث ، وكان علينا ذلك المساء أن نراجع الكتاب المقرر والمذكرات التى دوناها أثناء الدروس . لكننا كنا نشعر بالتعب والسأم بعد الاستذكار اللاهث والمراجعة النهائية المكثفة للمواد الأساسية ، فقلت إنه يبدو أننا آخر من تبقى فى المدرسة . لم لا نتسلل إلى غرفة الناظر ، ونحصل على نسخة من امتحان التاريخ ؟ سيوفر علينا ذلك جهداً كبيراً إذ لن تستغرق المراجعة سوى نصف ساعة ، كما أنه سيضمن حصولنا على درجات عالية – هذا مع اعترافى بعدم أهمية درجات التاريخ حيث أنه مادة ثانوية .

كانت فكرة تلك المغامرة الطائشة فكرتى فقد كنت أحد مثيرى الشغب بالمدرسة ، بل ربما كنت المشاغب الأول . هل كان ولعى بالشغب يرجع إلى مرح الشباب وحبه للدعابة فقط ؟ لا أعتقد أن حب المرح والدعابة وحده يمكن أن يبرر المخاطر التى كنت أعرض نفسى لها .

حتى وأنا فى عامى الأول بالمدرسة كنت أدبر الألاعيب و« المقالب » . كان علينا أن نحضر القداس صباح كل جمعة ونشترك فى « سر التناول » ، وكان الصيام يفرض علينا قبل القداس فى تلك الأيام ، وبعده تفتح الكافيتيريا أبوابها لتقدم وجبة الإفطار . كانت الكافيتيريا تقع فى البدروم ، وكان من عادة طلبة الصفوف العليا التجمع معا فى جانب منها بينما يتجمع طلبة الصفوف الأولى فى الجانب الآخر . وكان بكل جانب أربعة أحواض للشرب بها صنابير تعمل بطريقة النافورات ، فإذا أدرت اليد ارتفع الماء فى ماسورة أسطوانية قصيرة تبرز منها حلقة معدنية حجمها نصف بوصة ، كان الغرض منها أن تمنع الصبية من تغطية فتحة الصنبور بأصابعهم ورش بعضهم البعض بالماء . ورغم ذلك فإن كل ممنوع مرغوب ، وهكذا ففى صباح أحد أيام الجمعة بعد الإفطار صنعت من الورق المطوى أربع سدادات

صغيرة على شكل حدوة الحصان ، ووضعتها فى الماسورة الأسطوانية حول الحلقة المعدنية البارزة فى صنابير الجانب الذى يشغله طلبة الصفوف العليا . وبعد أن ثبّت السدادات التى من شأنها أن تجعل الماء يندفع بشدة من فتحة صغيرة ، وقفت بعيدا مع زميلين فى الصف الأول أراقب الموقف . كان طلبة الصفوف العليا يتقدمون للشرب واحداً تلو الآخر فى ثيابهم الأنيقة التى سرعان ما يندفع الماء ويغرقها . ولكن بعد الصدمة الأولى والغضب والثورة كان الضحية ينضم إلى المشاهدين وينتظر مقدم الضحايا الجدد . استمرت اللعبة حوالى خمس دقائق حينما تقدم الأب فلاجيللو – المشرف على النظام ، وكان يسوعيا جهما متبرما قصيراً ممتلئاً فى أواسط العمر – من أحد الأحواض ليشرب . كانت هذه هى الخاتمة المثلى للدعابة رغم شحنة الخوف والترقب الذى بلغ ذروته فزادها إثارة . غمر الماء وجهه البنى وكذلك شعره الرمادى ورداءه الأسود . جفف وجهه واستدار ليجد جمهور المشاهدين وقد علت الابتسامة وجوههم ، وأدرك أن ليس أمامه سوى الانسحاب فانسحب .

بعد عشر دقائق اجتمع الطلبة فى فناء المدرسة المربع كالعادة . كان هذا الاجتماع هو الفرصة الوحيدة المتاحة خلال الأسبوع لناظر المدرسة الأب دان ليناقش الشئون العامة لمدرسته . كان الأب دان ربع القوام ذا وجه وردى أيرلندى الطابع . لو لم يكن رجل دين لتخيلته كأحد رجال الشرطة – وهو لم يلتحق بكلية القساوسة الكاثوليك بعد المدرسة الثانوية مباشرة كما يفعل معظم الآباء اليسوعيين ، بل التحق بكلية عادية وبعدها مارس لعبة البيسبول كشبه محترف لمدة عامين قبل أن ينخرط فى دراسته الدينية . كان موضوع حديثه ذلك اليوم هو الإهانة والأذى الذى لحق بالأب فلاجيللو . كان يقول : « ... وأعدكم كلكم .. كل رجل وصبى منكم .. أن المذنب حينما نجده سوف يطرد من هنا شر طردة » .

تسللت من الفناء خلسة ودلفت إلى ممر داخلى ، وهرعت إلى مكتب

الأب دان الذى لم يلبث أن وصل غارقا فى عرقه من جراء خطبته العنيفة فهز رأسه إلىّ محييا ، فرغم أننى كنت طالبا مستجدا فقد كان يعرفنى عن طريق أخى الذى درس فى مدرسة « ملك الملوك » منذ بضع سنوات . قلت : « أبى . إننى الصبى الذى كنت تعنيه فى حديثك الآن » . كان اعترافا صريحا نقيا دون ضغط أو تهديد .

حملق فى وجهى وكأنه أدرك أننى قد وضعته فى مأزق حرج لا فرار منه . تكلم أخيراً وقال : « اسمع أيها الصبى . لو أن أحداً جاء إلى هنا قبلك وأخبرنى بمن فعلها لكنت الآن خارج هذا المكان . مطروداً » .

— « أجل يا سيدى » .

وقف صامتا فى مكانه لفترة تقرب من الثلاثين ثانية . ربما كان يفتش عن عقاب مناسب أقل قسوة من الفصل النهائى . لكنه لم يجده على أية حال إذ قال : « لا بأس . سأتحدث إلى الأب فلاجيللو . اذهب واعتذر له بعد انتهاء الدروس » .

قلت : « أجل يا سيدى » . وانتهى الأمر عند هذا الحد . لم يحدث أن جابهت الخطر بمثل هذا الدهاء بعد ذلك . كان مخرجاً عبقرياً : المذنب يعترف والقس يغفر .

لم تكن زيارتى للأب فلاجيللو على هذا المستوى من اللباقة والكياسة ، إذ بعد أن استمع لاعترافى وإقرارى بالندم سألنى إذا كنت طفلا وحيداً .

— « لا يا سيدى » .

— « لكنك أكبر إخوتك » .

ـــ « لا يا سيدى » .

ـــ « هل لديك مشاكل فى البيت ؟ »

ـــ « لا يا سيدى » .

ـــ « هل اشتكى أحد من عدم التزامك بالنظام فى المدرسة الابتدائية ؟ »

ـــ « لا يا سيدى » .

أعتقد أن إجاباتى المتكررة بالنفى قد أغضبته أكثر مما أغضبه الابتلال بالماء ، لكننى أفلت من العقاب وكان هذا شيئا عجيبا حقا ، فقد كان الطلبة يفصلون من « ملك الملوك » إذا ضبطوا يدخنون فى الحمام أو تغيبوا عن الدراسة ليوم واحد دون عذر .

حين وصلنا إلى البدروم اكتشفنا أنا وبوسكو وماكنات أننا أخطأنا حين تصورنا أنه ليس بالمدرسة سوانا ، فقد ظهر بيلى فجأة ونحن نناقش الفكرة التى طرحتها . لم يدهشنا ظهوره ، لابد أنه كان يؤدى عملا من أعماله الطيبة . ودعوناه بالطبع لينضم إلينا ، لكنه بالطبع رفض . كنا نعلم برفضه مسبقا ، لكننا قدمنا الدعوة من قبيل المشاكسة ، بنفس الروح التى كنا نلقى بها النكات البذيئة أمامه . كان هدفنا أن نصدمه .

بعد أن تركنا صعدنا إلى الدور الأول . وجدنا باب مكتب الناظر مغلقا بالمفتاح كما توقعنا . أما باب مخزن الأدوات المكتبية الذى يتصل بحجرة الناظر فكان مفتوحا كما توقعنا أيضا . كان هذا المخزن عبارة عن مقصورة خشبية ، مساحة متواضعة اقتطعت من الممر لتفى بالغرض ، وحوطت بجدران مقسمة إلى أرفف من خشب الصنوبر العارى من أى طلاء يبلغ ارتفاعها ستة أقدام . كان ضوء آخر النهار

الشتوى الخافت المنبعث من نوافذ حجرة الناظر والساقط فوق الأرفف الخشبية يكفى للرؤية بالكاد ، إذ أننا لم نجرؤ على إنارة المصباح المتدلى من السقف . كانت الأرفف المرصوصة بعناية تحمل صفوفا من الدفاتر الصفراء والأظرف ، وصناديق الأقلام الرصاص والمسَّاحات ومشابك الورق . أزحتها جانبا لأهيىء لنفسى سلماً ، وتسلقت الأرفف تاركاً آثار حذائى على الخشب العارى ، ثم قفزت إلى مكتب الأب دان . وهناك على منضدة من خشب البلوط اصطفت أربع مجموعات من أوراق الأسئلة فى مادة التاريخ ، مجموعة لكل صف . كان امتحان الصف النهائى أبسطها ، إذ كان يتكون من ورقة واحدة تحمل سؤالين يطلب كل منهما من الطالب الكتابة فى موضوع واحد ، بينما كانت أوراق الأسئلة للصفوف الأخرى تطلب إجابات قصيرة فى مواضيع شتى . كم أود أن أتذكر هذين السؤالين . لقد نسيتهما رغم أننى أستطيع الآن بعد مرور خمس وأربعين سنة أن استرجع بالضبط الأبيات التى ترجمتها من ملحمة الإلياذة فى امتحان اللغة اليونانية . تناولت ثلاث نسخ وطويتها طولا وعرضا إلى ربع حجمها ودسستها فى جيب معطفى ، ثم جربت أن أفتح باب المكتب من الداخل فاستجاب لى . فتحت الباب . كان الأب فلاجيللو ينتظرنى خارجه فى الممر . ورغم الصرامة التى نطقت بها ملامحه (التى رأيتها بعد تلك الحادثة بسنوات فى روما فى وجه تمثال لفارس قديم يعتلى جواده) فقد بدا عليه الخوف . لماذا ؟ هل يصبح التلميذ المحاصر مصدر خطر على مهاجمه كالفأر المحاصر ؟

قال : « ماذا تفعل هنا ؟ »

لن تجدى حيلة الاعتراف مع هذا الغبى ، ولم تكن لتجدى فى هذا الموقف حتى مع الأب دان . كانت فعلتى هذه المرة جريمة كبرى . لم أقل شيئا .

ــــ « هل أنت وحدك ؟ »

بسطت كفى وخفضت عينى ناظرا إلى قدمى . انتابنى فى تلك اللحظة شعور يقترب من المرح .

ــــ « تكلم . تكلم » .

لكننى بقيت صامتا .

ــــ « قف مكانك » . أشار كشرطى إلى بقعة بعيدة عن باب مكتب الناظر المفتوح . صاح دون أن يحول عينيه عنى داخل المكتب : « اخرجوا ! » . انفتح باب مخزن الأدوات المكتبية وخرج كل من بوسكو وماكنات . كان التعبير المرتسم على وجهيهما يجعل من الأنسب أن يرفعا أيديهما فوق رأسيهما أيضا . لو كانا بقيا فى مكانهما لأفلتا من العقاب ، لكنهما كانا كاثوليكيين تعودا إطاعة الأوامر وإن خرقا القواعد .

ــــ « اسمع يا بوسكو ويا ماكنات ، و .. أنت » – استنكف أن ينطق اسمى – « عودوا إلى بيوتكم وابقوا هناك » .

لم يكن هناك تفتيش أو استجواب . لم نتبادل أى كلمة حتى وصلنا إلى موقف الحافلة العامة الذى كان يبعد عن المدرسة بخمسة شوارع . أخيرا تكلمنا لكننى نسيت ما قلناه . تبادلنا أرقام التليفونات وقدمت إليهما نسخا من ورق أسئلة الامتحان لكنهما رفضاها ، وأصابنى هذا الرفض بإحساس حزين بالعزلة .

حكيت لأمى القصة كاملة فور عودتى وكذلك لأخى الذى كان فى أجازة من البحرية . وأخبرت أمى بدورها أبى حين عاد .

كانت أزمة عائلية من الدرجة الأولى ، فمدرسة « ملك الملوك » لم

تكن مدرسة عادية فقد تأسست بعد الحرب العالمية الأولى بهبة من امرأة كاثوليكية ثرية ، وكان أنبغ أطفال المدينة من تلاميذ المدارس التى تشرف عليها الأبرشيات يتسابقون عاما بعد عام للحصول على مقعد من المائة والعشرين مقعدا المخصصة لكل فصل دارسى جديد ، وكان يؤمها الفقراء والأغنياء فلم تكن هناك رسوم للدراسة ، وكان مستوى التعليم فيها يعد أفضل مستوى بين جميع المدارس الثانوية الكاثوليكية فى القطر كله . كان شرف لأى أسرة كاثوليكية ، أو أى مدرسة ابتدائية كاثوليكية أن يحصل ولد من أبنائها على مكان فى مدرسة « ملك الملوك » . كان أخى الذى يكبرنى بسبع سنوات قد التحق بها وأبلى بلاءً حسنا ، وطوال سنوات دراستى الابتدائية حرص الجميع على أن يطبعوا فى ذهنى ضرورة أن التحق بها أنا الآخر . أذكر أننى كنت أرقد فى فراشى بعد صلواتى الليلية وأسأل الله هل سيكتب لى أن أدخل مدرسة « ملك الملوك » ؟ لم أكن أسعى إلى إجابة مباشرة صريحة ، وإنما كنت أطرح أسئلة ماكرة خبيثة كأن أسأل مثلا : ترى ما لون السويتر الذى سأرتديه إلى المدرسة بعد بضع سنوات . فإذا كان الرد بأن لونه سيكون قرمزيا داكنا ، وهو لون الزى المميز لمدرسة « ملك الملوك » ، نمت هانئا قرير العين .

ترى هل خانتنى الذاكرة ؟ أم أننى حقا كما يبدو لى الآن قد صادفت هناك قدرا من الذكاء واللماحية والمواهب لم أره فى أى مكان آخر منذ تلك الفترة . كان هناك ريتشى أوكانَّار الذى كان يستطيع أن يلعب أى قطعة موسيقية معقدة للبيانو دون نوتة بعد أن يسمع تسجيلها مرة واحدة ، ورغم ذلك لم يكن يرغب فى احتراف الموسيقى بل كان يفضل أن يحترف تنظيم العمل وقد فعل فيما أعتقد . وكان هناك أيضاً فرانسيس داجان الذى نظم قصيدة عن لقاء البحر بالشاطىء بدت لى حينذاك أجمل القصائد وأكثرها حسية . ولا أنسى تيم لايونز الذى لعب دور بورشيا

فى مسرحية تاجر البندقية ، فكان ذكراً يمثل دور امرأة تتنكر فى زى الرجال تماما كما كان يحدث فى عصر شكسبير . وفى فقرة من المسرحية يضيف شكسبير إلى مستويات الدور الثلاثة تلك مستوى رابعا إذ يجعل بورشيا تقلد إمرأة وهى فى زى الرجال . وقد حافظ تيم على مستويات التأنيث والتذكير منفصلة ولم يخلط فيما بينها فى أدائه . ولا ينبغى أن أنسى مستر جراميكو ، وكان مدرسا ملهما للغة اليونانية ، وإن لم يكن من رجال الدين ، وكان يقال عنه إن أحدا قط لم يرسب فى مادته ، ويشاع أن له ثلاث حلمات أثداء بينما يبلغ عدد أسنانه ستا وثلاثين سنة .

كنا نتناول العشاء حين رن جرس التليفون . أدركنا جميعا أن المتحدث هو المدرسة . تحدث أحد المدرسين اليسوعيين إلى والدى ، وقال إننى لا يجب أن أحضر إلى المدرسة فى الغد أو فى أى يوم آخر حتى يتصل بنا الأب دان .

اتصل أخى بعد العشاء بالأب دان وحدد موعداً للقائه فى عصر اليوم التالى . لم يكن السبب فى ذهاب أخى بدلا من أبى أو أمى هو تفوقه السابق فى مدرسة « ملك الملوك » فقط ، أو لأنه لم يقطع صلته بالمدرسة بعد التخرج ، بل كان السبب فى تصورى هو حصوله حديثا على رتبة ضابط بالبحرية وارتدائه الزى الرسمى . ستكون المواجهة بين رجلين كل منهما يرتدى زيه الرسمى . وقد كان أخى يبدو رائعا حقا فى زيه الرسمى - زى حامل العلم .

لم تسفر المقابلة عن أى نجاح ، فقد أخبره الأب دان بأن عدداً كبيراً من أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة قد سهروا الليل كله لوضع أربعة اختبارات جديدة فى مادة التاريخ وإعداد النسخ اللازمة منها ، إذ لم

يكونوا على ثقة من أن أوراق أسئلة جميع الامتحانات لم تتسرب إلى الطلبة في جميع الصفوف .

قلت : « وكيف عرفوا أننى أخذت أيا منها ؟ »

قال أخى : « لقد عدوها » .

ـــ « لابد أنهم أدركوا إذن أننى لم آخذ إلا امتحان السنة النهائية » .

ـــ « ربما قرأت أسئلة الامتحانات الأخرى . إنك على أية حال أخذت بالفعل ورقة أسئلة السنة النهائية » .

ـــ « هل أنت فى صفى أم فى صفهم ؟ »

سألته أمى : « وماذا قرروا ؟ »

شرح أخى بشىء من عدم الاقتناع أن هناك فرصة لإنقاذ ماكنات وبوسكو « إذا قبلت أن تتقدم وتعلن أنك طلبت منهما العون » .

ـــ « طلبت العون ! »

ـــ « لأنك كنت بحاجة إلى ورقة الأسئلة لتنجح فى الامتحان » .

ـــ « أنا بحاجة إلى الأسئلة لأنجح ! لم يحدث أن رسب أحد فى مادة التاريخ . إن المادة كلها لا تعدو أن تكون أضحوكة . ثم إننى لم أرسب أبدا فى حياتى فى أى مادة . ماذا تدبرون ؟ فكرة من هذه ؟ »

ـــ « لقد تحدث الأب دان إلى كل من ماكنات وبوسكو وهما على استعداد لتأييد أقوالك إذا قبلت أن تتقدم بها » .

ـــ « هل أفهم من هذا أننى مفصول على أية حال ؟ »

هز أخى رأسه موافقا وقال : « أما زميلاك فيمكن إنقاذهما » .

لم يقل أبى شيئا خلال العشاء ، ربما لأنه كان بروتستانتياً . أما أمى فكانت كاثوليكية ، وقد ترك أبى أمور تعليمنا كلها فى يديها . لكنه الآن قال : « إذا كانوا يريدون زميليه ، فليستبقوه فى المقابل » .

وقبل أن آوى إلى الفراش انفرد بى وحدثنى واعتذر لأنه اتخذ القرار نيابة عنى . قال إنه لم يكن ليعترض لو كان متاحا لى أن أنقذ زميلىّ بصدق وأمانة وأردت هذا ، لكنه لا يريدنى أن أكذب . وقال أيضاً إن اقتراح الأب دان يدخل تحت باب « مكر اليسوعيين » .

بعد يومين تلقى والدىّ خطابا من الأب دان يفصلنى فيه رسميا من المدرسة . كان خطابا صارما جافا لا يحمل أى تعبير عن الأسف . وقد قرأته قراءة دقيقة متأنية كما لو كنت أقرأ خطاباً يعلننى بأننى فزت فى مسابقة ما . تكررت عبارة « أفعال فى الخفاء » مرتين ، وحيث أن الأب دان استخدم كلمة متقعرة من أصل لاتينى للتعبير عن معنى « فى الخفاء » بدلا من كلمة « سرية » البسيطة فلم أفهم معنى العبارة ، وإن كنت قد خمنت أنها تعنى شيئا سيئا مشيناً . وحين وردت تلك الكلمة المجهولة فى رواية للكاتب ويلكى كولينز رجعت إلى القاموس ، واكتشفت لدهشتى وعجبى أن هذه الكلمة تعنى ببساطة « فى السر » ، وأنها مشتقة من كلمة لاتينية صغيرة بهذا المعنى .

أنهينا دراستنا الثانوية أنا وبوسكو وماكنات فى مدارس خاصة مختلفة . وقد عوملت أحسن معاملة فى مدرستى . كان رئيسها رجل أيرلندى يدعى أوبويل ، وقد منحنى اهتماما خاصا ووضعنى فى فصول الطلبة المتفوقين ، وقدمنى إلى رائد جمعية التمثيل بالمدرسة الذى أعطانى دور الشرير فى المسرحية التى قدمناها فى الربيع . كان نصف أعضاء هيئة التدريس من النساء ، وكانت مدرسة اللغة الإنجليزية شابة

جميلة وقد أسعدنى هذا أيما سعادة . ورغم ذلك فقد أحسست بأننى قد عانيت لأول مرة فى حياتى محنة فقدان شىء لا يعوض : إذ لم أعد واحداً من أبناء « ملك الملوك » .

كنت قد خططت للالتحاق بكلية يسوعية ، ولكن لظروف شتى اخترت فى النهاية كلية لا تنتمى لطائفة دينية بعينها وكان اختياراً موفقا بدرجة كبيرة ، فقد اغتنى عقلى هناك بشتى ضروب المعارف ، وكنت أدرس بمتعة شديدة تبلغ أحياناً حد النشوة السامية .

كان أخى هو همزة الوصل الوحيدة بينى وبين مدرسة « ملك الملوك » بعد أن تركتها ، فقد ظل عضوا نشيطا فى رابطة خريجيها ، وكان فى كل عام يتلقى النشرة الدورية التى تسرد أخبارهم وإنجازاتهم .. أما بيلى فقد اختار أن يكون قسا يسوعيا ، وأُرسل بعد رسامته إلى مستعمرة غيانا الفرنسية فى أفريقيا ليعلم اللغة الإنجليزية فى مدرسة ثانوية فرنسية . وبعد ذلك كان يؤم جماعة انعزلت فى خلوة دينية فى مدينة أولبانى للعبادة والدراسة والتأمل ، وقبل موته فى العام الماضى كان يعمل مستشاراً فى الأمور والمشاكل الزوجية مع جماعة خدمات كاثوليكية فى مدينة بوسطن .

علمت بموته حين كنت أزور أخى فى ديلاوير حيث استقر به المقام بعد اعتزاله الخدمة . أخبرنى أخى أن بيلى قد اتجه بعد أن تركنا فى البدروم فى ذلك اليوم إلى مقر إقامة القساوسة الذى يقع عبر الشارع ، وأخطر الأب فلاجيللو بأمرنا . كان الأب دان قد أخذ على أخى وعداً بألا يخبرنى بهذا . قال أخى : « كان يخشى أن تنتقم أنت وزميلاك من الصبى » .

ـــ « لم نكن لنفعل ذلك » .

ـــ « لم يكن على ثقة من هذا . على أية حال إنك لا تستطيع أن تؤذيه الآن » .

ـــ « ماذا كان رأيه فيما فعله بيلى ؟ »

ـــ « كان يشعر بأن قوة مجهولة قد قادت خطاه إلى مكانكم » .

ـــ « قوة مجهولة ؟! هل كان يعنى الله ؟ »

ـــ « أجل . أظن هذا » .

ـــ « إذن فقد كان راضيا عن فعلة بيلى » .

ـــ « لا . كان يعتقد أنها ألحقت به أذى كبيرا ، وأنه كان قربانا للحق ، لكن لم يكن أمامه خيار » .

ـــ « هل تدرك أن ذهابى إلى كلية غير كاثوليكية ربما كان السبب فى أننى تركت الكنيسة ؟ هل حسبت قوتك المجهولة حساب هذا ؟ »

قال أخى نيابة عن الكاثوليك : « إننا نعتقد أن لله حكمة غامضة فى كل أفعاله . ما شعورك أنت إزاء ما فعل ؟ » .

ـــ « من ؟ الله ؟ » .

ـــ « لا . يا إلهى ! إننى أعنى بيلى » .

ـــ « ليس لدىّ أى شعور على الإطلاق » .

لكننى فهمت فيما بعد وشعرت نحوه بالشفقة والإعجاب .

بعـــد أن رحـــلتَ

أليـس آدمـز

أعترف لك بأننى استطعت لفترة أن أسيطر على مشاعرى ودبرت أمورى على خير وجه . أدرت شئون المنزل ، وأصلحت بعض التلفيات التى حدثت بصورة مريبة . سيطرت على الأرق الذى كان يعترينى فى الليل حين تلح علىّ ذكريات حسناتك وأنسى كل سيئاتك ، وعلى اللحظات المؤلمة التى كانت تمر بى فى النهار حين يظهر شبحك فجأة ليعكر صفو اليوم . تقبلت رحيل بعض الأصدقاء برحيلك وظهور مشاريع صداقات جديدة وعلاقات حميمة . سارت الأمور بى على هذا المنوال خلال الشهور الثلاثة التى تلت رحيلك إلى ولاية أوريجون . كان كل شيء على ما يرام حتى بدأت أتلقى تلك الخطابات من « امرأتك » الجديدة . (إننى أرفض كلمة « عشيقة » فهى صريحة أكثر من اللازم ، وحيث إننى أعرفك جيداً فإننى لا أظن أن كلمة « صديقة » يمكن أن تنطبق عليها) . إننى أعنى على أى حال المدعوة سالى آن .

(أود أن أذكرك أنك أنت الذى شجعتنى على الكتابة إليك . طلبت منى هذا وأنت تعلننى فجأة ودون سابق إنذار بعزمك على الرحيل . طلبته وكأنك تسدى إلىّ جميلا ، ولسان حالك يقول : « راسلينى فسوف يخفف هذا عنك » ، وإن لم تقلها صراحة . ما علينا . إننى أريد فقط ،

ربما بحكم المهنة ، أن أسرد عليك الأحداث – أو « الوقائع » كما نسميها فى لغة القانون – فى صورة منظمة ، فالمحامون كما تعلم يُدربون على التفكير المنظم) .

أولاً : البيت . إننى أعرف جيداً أنه ليس بيتك ولم يكن بيتك فى يوم من الأيام ، وذلك رغم تلك اللحظة المتهورة فى فندق ترايدنت حين عرضت عليك (تحت تأثير عدد كبير من كئوس كوكتيل المارجاريتا اللذيذ والمنظر الساحر ، منظر مدينتنا سان فرانسيسكو وهى تلوح من بعيد بأضوائها الخافتة) – حين عرضت عليك أن أضيف اسمك إلى عقد الإيجار باعتبارنا شريكين فى البيت ، فقد كنت أعتبرنا فعلا شريكين ، رغم أننى كنت أدفع الإيجار وحدى . فالعامان اللذان عشتهما فيه . ومهارتك الزوجية الفائقة فى العناية به خلالهما جعلاه يبدو وكأنه فعلا بيتك . (سأطرح عليك سؤالاً لا أدرى إن كان ميتافيزيقيا أكثر منه قانونيا : إذا عاش شاعر فى بيت كزوج ولم يكن فى الحقيقة زوجا ، ترى من يكون صاحب البيت ؟) إن ما أقصده فى الحقيقة هو الآتى : كيف تمكنت من التدبير لإتلاف كل شىء فى البيت فى الأسبوع السابق لرحيلك ؟ حتى خراطة الخضروات وجدتها تالفة ، وهذا ما لم يحدث لأحد من قبل ولم يسمع به أحد قط .. أبداً . هذا بالإضافة إلى المكنسة الكهربائية والبطانية الكهربائية وغسالة الأطباق وجهاز التخلص من القمامة ، وأهم من هذا وذاك سيارتى الداتسون . قال لى عامل إصلاح الأدوات الكهربائية وهو يشخص سبب مشاكلى المنزلية : « إنها الأسلاك القديمة . يحدث هذا كثيراً فى الشقق القديمة » ، ثم أضاف : « ولكنها شقة رائعة رغم هذا » ، وأشار إلى المنتزه العام الذى تطل عليه – إلى مدرجات الحشائش المترامية فى منتزه « ألتا بلازا » التى يخيل لى أحياناً ، وحتى هذه اللحظة ، أننى أراك تمرح عليها ، تجرى وترقد فى

الشمس فى ثيابك الرياضية العجيبة : الشورت الأصفر الضيق ، وتلك الفانلة الخضراء الفاقعة التى لا أدرى من أين جئت بها والتى كانت أيضاً أصغر من مقاسك .

تبين من الفحص أن سيارتى الداتسون تحتاج إلى ضبط المحرك فقط ، وحيث أنك لا تعرف القيادة لم أجد ما يبرر إلقاء اللوم عليك . ورغم هذا ، وبسبب تزامن عطلها مع عطل كل الأجهزة الأخرى ، كان من الصعب ألا ترد الفكرة على بالى .

ثانياً : الأصدقاء . أقيم أحياناً بعض الحفلات الكبيرة ، لكننى توقفت بعد رحيلك عن دعوة الأصدقاء على العشاء فى البيت . ورغم ذلك فأنا أرحب بدعوات العشاء الخاصة من الصديقات غير المتزوجات والرجال الشواذ ، لكننى أرفضها إذا كان صاحب الدعوة رجلاً متزوجاً سافرت زوجته لفترة أو حتى رجلاً أعزب مهما بدا لطيفا – أشعر أننى لست مستعدة نفسيا لخوض علاقة جديدة الآن .

توقعت أن يختفى الأصدقاء الذين كانوا يحتفون بنا فقط لأنك شاعر مشهور ، وقد فعلوا .

ثالثاً : الليالى . مازلت أراك فى أحلامى بالطبع ، أراك هنا معى أحياناً ، أو أراك ترحل وأدرك فى الحلم أنك لن تعود وأنه ليس فى مقدورى أن أمنعك (لا تنسى أنك حكيت لى عن سالى آن والعوامة التى تعيشان فيها فى مدينة بورتلاند وكانت قصة مؤثرة للغاية) . تذكرت حديثا أننى كنت أحلم أحلاما مشابهة حين مات أبى : كنت أراه يحتضر ، وأعرف أنه يحتضر وأنه ليس فى مقدورى أن أبقيه على قيد الحياة . ولكن هناك فرق بالطبع . فالأحلام التى تدور حول الأب تعكس فى تصورى شعورا بالذنب ، وأنا لا أرى سببا واحدا يجعلنى أشعر بالذنب

تجاهك ، فلقد أحببتك بصدق بالطريقة التى أعرفها وفعلت كل ما فى وسعى (أو هكذا تصورت) لنظل سعداء ، وإن كنت لم أتوهم أبداً أننا سنبقى طويلاً معا . ألا تعد فترة عامين مع امرأة واحدة فترة قياسية نوعا بالنسبة لك ؟ وربما أيضاً بالنسبة لأى شاعر يرفض مبدأ الزواج ؟ كنت أتخيل أحياناً أن مدينة سان فرانسيسكو نفسها هى التى تبقيك هنا إلى جوارى بأضوائها ودروبها التى عشقتها وذرعتها وأنت تطارد أطياف الشعر والإيقاع - أنت مازلت هناك فى تلك الدروب فى أحلامى ، أو أنت هنا فى فراشنا (أعنى فراشى) ونحن نصحو سويا ، تدريجيا لنتعانق فى حب وجفوننا مازالت مثقلة بالنعاس .

منذ شهر تقريبا تخيلت أننى رأيتك جالساً فى آخر قاعة المحكمة ، رأيت هذه الخصلات الأيرلندية السوداء اللعينة ، وعينيك المنحرفتين إلى أعلى وأنفك الكبير وذقنك المتعجرفة والغمازة التى تتوسطها . كانت صدمة رهيبة . ظللت أياما أتأرجح بين الشك واليقين . تُرى هل كان هذا الشخص أنت ؟ هل أردت أن تداعبنى بطريقتك ؟ هل كنت تختبر مشاعرى ؟

ولكن إحقاقا للحق .. وبالمناسبة - أعنى بمناسبة ذكر الحق أريد أن أسألك سؤالاً : هل لك أن تخبرنى لماذا كانت محاولاتى لإحقاق الحق ، أو حتى لرؤية الأمور من جانبك تغيظك وتغضبك إلى هذا الحد ؟ أكاد أسمعك الآن تصيح : اللعنة ! لماذا تصرين دائما على إحقاق الحق ؟ ما أهمية هذا الحق الذى تتحدثين عنه ؟

لندع هذا جانبا . كنت أقول إننى إحقاقا للحق أفتقد طهوك الممتاز ، حين كنت تتنازل فى بعض الأمسيات وتطهو بالطبع . كنت أهوى حساء الكرشة الذى تعده ، وكذلك طريقتك الخاصة فى إعداد المكرونة التى

كنت تخلطها بعش الغراب البرى ، وأيضاً البيض المضروب الذى كنت تعده صباح يوم الأحد ولا نجد الوقت لنأكله إلا عند الظهر .

ويجب أن أعترف بمهارتك الفائقة فى إصلاح الأجهزة المنزلية ، وليس ذنبك أنها كانت عادة تتعطل ثانية بعد قليل .

وأهم من كل هذا أنك شاعر من الدرجة الأولى - هكذا يقول أتباع مدرسة جامعة ييل فى الشعر ، وقد انضم إليهم الآن أتباع مدرسة جاجنهايم ، ومن المؤكد أن جماعة ماك آرثر ستحذو حذوهم كما تأمل . ورغم أننى لا أجيد الحكم على الشعر - إذ لم أقرأ منه إلا القليل باستثناء أشعارك - فإننى كما قلت لك مراراً كنت أعتبر شعرك ضرباً من السحر ، نوعاً من الكيمياء التى تحول الكلمات إلى طاقة سحرية .

إننى أفتقد كل هذا - إصلاحك للأجهزة المنزلية وطهوك وحبك وشعرك . ورغم ذلك فقد كنت أحيا دونها فى سلام حتى وقت قريب .

رابعاً : الخطابات . كان أول خطاب يصلنى منها عبارة عن اعتذار قصير متكلف . كان مكتوبا على ذلك النوع الكريه من الورق المزين بالزهور الزرقاء الصغيرة ، وكان الخط صغيرا دقيقا تميل حروفه إلى الاستدارة . قالت إنها تشعر بالذنب لأنها أخذتك منى (وهو تعبير يليق تماما بطالبة فى المدرسة الاعدادية) لكنها واثقة أننى « سأفهم » لأننى إنسانة تنظر إلى الأمور نظرة عادلة وتميل إلى إحقاق الحق (أدركت لحظتها أنك قد وصفت لها بالتفصيل طريقتى فى التفكير) . قالت إننى سأقدر أن أى فتاة قليلة الخبرة والتجربة مثلها لا تستطيع أن تقاوم وسامتك وذكاءك وجاذبيتك الجنسية (عند هذا الحد بدأت أشك أنك أنت مرسل الخطاب . وهو ما يبدو لى احتمالا قائما) ثم أضافت أنها تتوقع بالطبع أننى قد وجدت الآن بديلا لك بسهولة ، فهذا هو الشىء الطبيعى

المتوقع لامرأة متحررة مثلى تعيش فى مدينة متحررة مثل سان فرانسيسكو . والمقصود هنا بالطبع من الإشارة إلى أسلوب حياتى وحياة المدينة هو تبرير هروبكما معاً إلى نقاء وطهارة بورتلاند ، أوريجون !

كان الخطاب يحتوى على فرضيتين كاذبتين . فالحقيقة أن فرصتى أنا شخصيا فى الحصول على بديل مناسب لك قد تكون أفضل بكثير فى مدينة مثل بورتلاند عنها فى مدينة مثل سان فرانسيسكو . فالرجال الذين أخالطهم هنا عادة هم إما محامون من طراز الشباب المترف السطحى التافه الذى لا أطيقه ، وهذا النوع مرفوض تماما ، وإما سماسرة ، سواء كانوا سماسرة عقارات أو وسطاء عموميين ، وهؤلاء يتبدلون بصورة دائمة ولا يتميز أحدهم عن الآخر . لا عجب إذن أننى اخترت شاعراً ... رجلا مترهلا ليس لديه حساب فى البنك أو أى مؤهلات عدا صندوق كبير زاخر بكتب رائعة . (كم أفتقد كتبك رغم أن الوقت لم يسعفنى لقراءتها كلها فقرأت نصفها بالكاد . وبالمناسبة .. هل كان من الضرورى أن تأخذ رواية « موبى ديك » التى كنت قد وصلت إلى منتصفها ؟ عموما ، لا يهم . لقد ذهبت إلى مكتبة جرين أبل يوم رحيلك وابتعت مئونة تكفينى وقتا طويلا) .

على أى حال ، لقد أحسست من الخطاب أن رفيقتك الجديدة هذه ، تلك المدعوة سالى آن ، قد توصلت إلى استنتاجات خاطئة ، والأدلة على ذلك كثيرة . لقد أدركت أوجه الاختلاف بيننا أنا وهى ، ولم تنتبه إلى أوجه التشابه . لم تدرك أننى أنا الأخرى وقعت فريسة سهلة لسحرك و« اختلافك » عن الآخرين .

ولكن الشىء الذى يحيرنى حقا هو السبب الذى جعلك تحكى لها عنى بهذه الاستفاضة ؟ أليس لديك موضوعات أخرى للحديث ؟ ألم يكن من

الأنفع لها أن تقرأ عليها بعض القصائد بصوت مرتفع كما كنت تفعل معى ؟ إنه أقل ضررا على أى حال فى تصورى . لكننى حين فكرت مليا فى الأمر وجدتنى أتذكر أحاديثنا ، وأدركت أن العديد منها كان يدور حول عشاقنا السابقين . كنت أتعمد إنهاء هذه الأحاديث بسرعة وعدم الاسترسال فيها لسببين واضحين : أولهما أننى كنت أشعر بنوع غريب من الحرج لقلة تجاربى نسبياً فى هذا المجال - كما كنت تصفها ، وثانيهما أننى لم أكن أود أن أستمع إلى تجاربك . وبالرغم من ذلك لم تيأس ومضيت فى محاولاتك . كنت تريد أن تحدثنى عن امرأة معينة فى نيويورك ، محررة شابة ناجحة (فى مجلة تافهة على ما أذكر) ، أردت أن تحكى لى كل شىء عنها . لكننى رفضت . قلت لك : « لا علاقة لها بنا الآن » (هل تذكر ؟) من سوء الحظ أن رفيقتك الجديدة المدعوة سالى آن لم تفعل نفس الشىء فى حالتى .

كان الخطاب الثانى يحوى سؤالا يبدو فى ظاهره بريئاً : هل تلتحق سالى آن بكلية الحقوق ؟ ما رأيى ؟ على السطح ، بدا السؤال مجرد طلب استشارة بسيط من إنسانة تعد شبه خبيرة فى هذا المجال . لكنها لم تكتف بهذا السؤال بل استرسلت فى الحديث عن الموضوع ، وأفاضت حتى أدركت أن السؤال الحقيقى الذى تعنيه هو كيف تستطيع أن تجعل نفسها نسخة منى ؟ وهو شىء يثير الأسى وينم عن خبل وسوء تقدير : فإذا فرضنا أنك عرفت يوما امرأة مثالية يمكن لسالى أن تتخذها نموذجا تحتذيه فلست هذه المرأة بأى حال . كما أنك لا تستسيغ عمل المرأة بالمحاماة ، واعتدت أن تستخدم تعبير « الهوانم المحاميات » للسخرية منا عندما تمر بأسوأ حالاتك النفسية .

لم أرد على الخطاب القصير الأول (كان هذا مستحيلا . كيف يرد الإنسان على خطاب كهذا ؟) لكننى استجبت للخطاب الثانى فقد بدا لى

أنها تتوقع رداً . أرسلت لها بطاقة مطبوعة على الآلة الكاتبة تحتوى النصائح التافهة المعتادة : حدثتها عن العمل الشاق المرهق الذى تقتضيه المهنة ، وعن ازدحام الساحة بالمحامين إلى درجة التخمة ، وعن المحاميات اللاتى لا ينتمين إلى المهنة إلا شكليا وبالاسم فقط .

***

كانت النتيجة أنها الآن تراسلنى يومياً تقريبا . إننى أعنى هذا ، فأنا أتلقى منها خطاباً كل يومين على الأقل . أليس لديها أصدقاء غيرى ؟ أو أقارب تراسلهم أو معارف من أيام الدراسة ؟ إذا كان لديها أصدقاء فيبدو أنهم قد بهتوا تماما فى ذاكرتها وخرجوا من دائرة تفكيرها بسبب حالة الاضطراب النفسى التى تمر بها الآن . (يا لها من مسكينة ! إننى أشفق عليها من وحدتها معك ، وحياتها المنعزلة فى تلك العوامة الطافية على نهر ويلامت فى مدينة بورتلاند الصغيرة) لم يبق فى حياتها سواى ، سوى شبح عارض لامرأة لم ترها أبدا دخلت حياتها بالصدفة !

قالت إن موسم الأمطار قد بدأ فى بورتلاند وسيستمر وفق ما تعلم حتى نهاية الشتاء ، وأنها لا تحب فى الواقع الحياة فى البيوت العائمة فهى تخيفها . قالت إنها شكت لك من اهتزاز العوامة وأنك قلت لها إن كل البيوت العائمة تهتز وما باليد حيلة . (يبدو أنك أنت الآخر لست فى قمة تألقك . إننى لم أسمعك أبدا تعترف بالعجز عن إصلاح أى شىء مهما كان - حتى سيارتى الداتسون ، لقد تفاخرت بقدرتك على إصلاحها وأصلحتها فعلاً ... مؤقتاً) .

أخبرتنى أيضا أنك قد قابلت بعض أصدقائك القدامى فى كلية ريد القريبة ، وأنك تقضى أوقاتا طويلة معهم هناك ، وأنك نصحتها بأن تبحث عن عمل يشغل وقت فراغها ويسرى عنها ، وأنا معك فى هذه

النصيحة . ولكن كيف يمكنها ذلك ؟ لقد اخترت لها منطقة تعانى من نسبة عالية فى البطالة !

قالت إنها لا تحب حساء الكرشة الذى تصنعه (فالكرشة فى الواقع تثير قرف واشمئزاز سالى آن) وأنك بدورك لا تستسيغ سلاطات الفلفل الأحمر وجبن لبن الماعز والمكرونة الباردة التى تجيد هى صنعها .

أما أشعارك فهى لا تفهمها على الإطلاق ولا تدرى ماذا تقول حين تقرأها عليها . وهذه مشكلة بالفعل . حين كنت فى نفس موقفها قررت أن أواجه الأمر دون لف أو دوران فقلت لك بوضوح وبساطة إننى لا أفهم الشعر عادة ، ولم أقرأ منه الكثير ولم أدرسه أبداً ، ورغم ذلك فإننى أجد قصائدك رائعة فى موسيقاها وتراكيبها الصوتية . وكنت أعنى حقا ما أقول . كم أفتقد أصوات قصائدك المتناغمة ... وكلماتك . ما علينا . خلاصة الأمر هى أننى استطعت أن أعلن ما تعجز سالى عن قوله رغم أنها تشعر إزاء أشعارك ، دون شك ، بنفس شعورى .

قالت إنك تتحدث عنى كثيراً ، طوال الوقت تقريبا وهذا شىء لا يغتفر . إننى واثقة أنك تدرك هذا تماما فى لحظات صفائك الذهنى . إننى أعجب حقا : ما أهمية أن تخبر سالى آن بعدد الأرطال التى فقدتها من وزنى فى الشهور الثلاثة الأولى من إقامتنا معا ؟ أو أن شعرى يتجعد إذا تعرض للمطر ، أو أن تذكر لها تقديراتى الدراسية فى الجامعة ؟ لماذا بحق السماء ؟!

قالت إنك تغيب عن البيت كثيرا الآن ، وأن غيابك يتزايد . وها هى سالى آن تعترف لى الآن أنها كانت تعمل مضيفة أو « جرسونة » فى حانة توسكا التى كنت ترتادها ، وها أنا اكتشف أننى حين كنت أمكث فى المنزل وحدى أحيانا هنا فى سان فرانسيسكو وأتركك تخرج وحدك

(وكم كنت فى أشد الحاجة إلى بعض الوقت وحدى لإنجاز العمل المتأخر) ، حين كنت أتصور أنك فى نزهة بريئة على الشاطىء فى منطقة نورث بيتش ، كنت أنت فى الحقيقة منهمكا فى مغازلة سالى آن . قد تندهش حين أقول لك إن هذا الاكتشاف لا يسبب لى أى ألم فى حالتى الراهنة ، وأن نتيجته الوحيدة هو أن افتقادى لك قد تناقص بصورة ملحوظة . المهم : تسألنى سالى آن إذا كان من المحتمل أنك تقابل الآن امرأة أخرى ؟ لقد امتدحت أمامها – كما تقول – أستاذة اللغة الفرنسية فى كلية ريد ، وقلت إنها متعددة المواهب . ثم تسألنى سالى آن : ما رأيى ؟

رأيى هو أنك على علاقة بهذه الأستاذة بكل تأكيد ، فأنت فيما يبدو تفضل عشيقاتك من ذوى المهن المحترمة . وما المسكينة سالى آن إلا الاستثناء الذى يثبت القاعدة . كانت علاقتك بها نتيجة سوء تقدير من جانبك أو خطأ فى حساباتك ، أو من المحتمل جدا أنها كانت رد فعل لعلاقتنا ، لحياتك معى ، لطبيعة شخصيتى . هل تفهم ما أعنيه ؟ أعتقد أنك ستفهم . على أى حال ، كانت علاقتك بها خطأ فادحا من كل الوجوه أضر بكل الأطراف .

أقول كل الأطراف لأننى أدرك الآن بوضوح أنك تسىء معاملة هذه الفتاة إساءة بالغة على المستوى العاطفى . إنك تلحق بها ضرراً بالغاً ، وأستطيع أن أثبت هذا أمام القضاء وأن أقنع به المحلفين . والمؤسف أنها – على العكس منى – لا تمتلك أى وسيلة للدفاع عن نفسها .

يجب أن تكف عن هذا فوراً ، يجب أن تتوقف وتمتنع عن إيذائها . على الأقل هذا السلوك لا يليق بك ، وأنا واثقة أنك تدرك هذا تماما فى لحظات صفائك وهدوئك ورقتك (إننى أعلم أن لك جانبا طيبا . وأستطيع

فى أشد لحظاتى سخطا عليك أن أتذكر العديد من أعمالك العطوفة وأفعالك الخيرة) . لماذا لا تعطيها تذكرة سفر لمكان آخر مصحوبة ببعض الكلمات الرقيقة التى ترفع معنوياتها وتدفعها إلى الثقة بنفسها (يعلم الله أنك أفضل من يجيد التعامل مع الكلمات !) وتطلق سراحها ؟ بعد ذلك تستطيع أستاذة اللغة الفرنسية فى كلية ريد أن تنتقل إلى عوامتك ، وتعيشان معا فى ثبات ونبات وسعادة إلى الأبد .. أو على الأقل إلى أن تخفت حدة المطر فى بورتلاند وتشعر برغبة فى الانتقال لمكان آخر .

أما بالنسبة لى فأرى من واجبى أن أخبرك ، إحقاقا للحق ، أننى قد وجدت صديقا جديدا .. أو بالأصح صديقا قديما دخل إلى حياتى فى دور جديد . (حين كتبت عبارة « إحقاقا للحق » وجدت نفسى أتساءل : ترى هل كنت محقا بشكل ما فى اعتراضك على هذه العبارة طوال الوقت ؟ هل تبينت في مفهومى للعدل وإحقاق الحق شيئا من العدوانية والتلذذ بالانتقام ومبدأ العين بالعين ؟ لا أدرى . ربما . إنه احتمال قائم على أى حال وعلىّ أن اعترف به على الأقل) .

على أى حال .. سأذهب بعد غد فى رحلة قصيرة إلى بلدة جاكسون فى ولاية ويمنج مع صديقى « الجديد / القديم » الذى لا أستطيع أن أقول عنه الآن إلا أننى حتى هذه اللحظة لم أر منه إلا ما يبشر بالخير ، فى الواقع ، كل الخير - وذلك رغم أننى بعد تجربتى معك قد أصبحت أميل إلى الحذر فى إطلاق الأحكام . لكننى ، على الأقل ، أعرفه وأعرف نوعه من البداية أفضل مما كنت أعرفك (فقد كنا زملاء دراسة فى نفس الجامعة فى الأيام الخوالى - الأيام الرومانسية البعيدة فى جامعة باركلى) وهو على الأقل لن يزعجك بخطابات يشكو فيها منى كما تفعل

صديقتك . إنه يعرف تماما طبيعتى ولن يتوقع منى أكثر مما أستطيع أن أعطى .

والآن أرجو أن تتمنى لى التوفيق كما أتمناه لك (وسأدعو من قلبى أن يحالفك الحظ مع جماعة ماك آرثر) .

وأكرر وأعيد ، أرجوك ارحم سالى آن . اتركها وشأنها . دعها ترحل . سيكون فى صالحنا جميعا - فى صالحك وفى صالحى وفى صالح سالى آن ، أن تتخلص منها ، وأن تتخلص منك . أما أنا فسوف أتخلص من عبء هذه الخطابات المجنونة التى أعتقد أنه كان من المفروض أن أرسلها إليك جميعا لو أننى كنت فعلا أريد إحقاق الحق .

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٠ / ٧٩٩٤

مطابع الاهرام التجارية - قليوب - مصر